بين التصوف والحياة

للعلامة الشيخ عبد الباري الندوي
١٣٠٧ - ١٣٩٦ هـ

قدم له
العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي

دار الفارابي
المعارف

بين التصوُّف والحياة

للعلامة الشيخ عبد الباري الندوي
(١٣٠٧-١٣٩٦هـ)

قدم له
العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي

نقله إلى العربية
الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي

اعتنى به
سيد عبد الماجد الغوري

دار الفارابي
للمعارف

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٣م

طباعة . نشر . ترجمة

سورية . دمشق . حلبوني . شارع مسلم البارودي .

ص.ب: ٢٣٨٢ هاتف: ٢٢٢٦٧٨٦ فاكس: ٢٤٥٢٨٨٦

www.daralfarabi.com

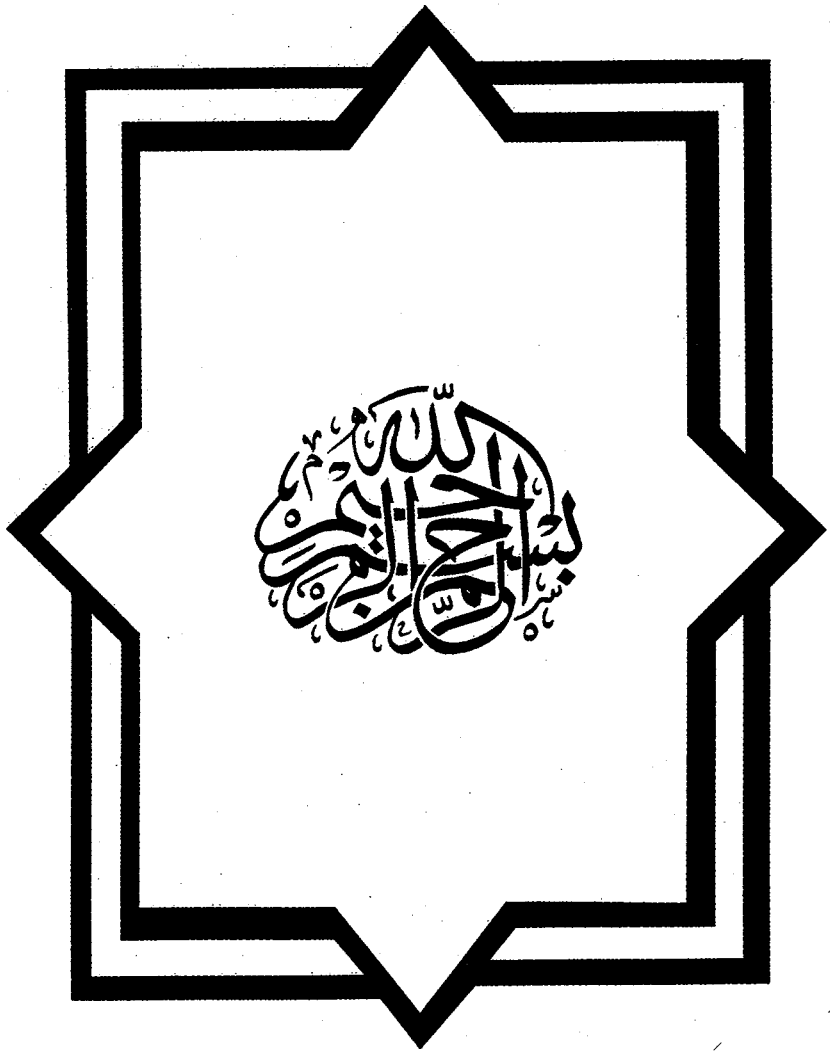
بسم الله الرحمن الرحيم

شذرات من أقوال الائمة والعلماء في التصوّف[1]

نقل الفقيه الحنفي الحصكفي صاحب الدر: أن أبا علي الدقاق رحمه الله تعالى قال: (أنا أخذتُ هذه الطريقة من أبي القاسم النصر أباذي، وقال أبو القاسم: أنا أخذتها من الشبلي، وهو من السري السقطي، وهو من معروف الكرخي، وهو من داود الطائي، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة النعمان رضي الله عنه وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله).

('الدر المختار' ج١/ص ٤٣)

صحبتُ الصوفية فاستفدتُ منم ثلاث كلمات:

قولهم: الوقت سيف إذا لم تقطعه قطعك.

قولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

وقولهم: العدم عصمة.

وقال أيضاً: (حبب إليَّ من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف.

(الإمام الشافعي)

من تفقَّه ولم يتصوف فقد تفسَّق، ومن تصوَّف ولم يتفقَّه فقد تَزَنْدَقَ ومن جمع بينهما فقد تحقَّق.

(الإمام مالك)

---

[1]- هذا من إضافات المحقق في الكتاب.

(لا أعلم أقواماً أفضل منهم، قيل إنهم يستحيون ويتواجدون، قال دعوهم يفرحوا مع الله ساعةً...).

(الإمام أحمد)

فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حماد، والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين، فلا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن يموت وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم.

(الإمام ابن تيمية في 'فتاواه' ج١/ص ٥١٦)

اعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية وذلك خطأ لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة الله تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية، وهذا طريق حسن.. وقال أيضاً: والمتصوِّفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس من العلائق الجسمانية، ويجتهدون أن لا يخلو سرُّهم وبالهم عن ذكر الله تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع الله عز وجل، وهؤلاء هم خير فرق الآدميين).

(الإمام فخر الدين الرازي في « اعتقادات فرق المسلمين المشركين»ص٧٢)

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملَّة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم

لطريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخارف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذّة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشى الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية.

(ابن خلدون في مقدمته)

اعلم يا أخي أن الله كلفنا امتثال الأوامر واجتناب النواهي.. وإذا كنا مأمورين بالإخلاص في ذلك وهو لا يتصوَّر بدون الفناء وبدون المحبة الذاتية، وجب علينا أيضاً سلوك طريق الصوفية الموصلة للفناء والمحبة، حتى نتحقق حقيقة الإخلاص، ولما كانت طرق الصوفية متفاوتة الكمال والتكميل، كان كل طريق تُلْتَزَمُ فيه متابعة السنة السنية، وأداء الأحكام أولى وأنسب بالاختيار.. وإن هؤلاء الأكابر التزموا في هذه الطريقة متابعة السنة واجتناب البدعة، ويجعلون الأحوال والمواجيد تابعة للأحكام الشرعية.. والكتاب والسنة عندهم أولاً قبل كل شيء.

والتصوف الذي أردتُ هو الإسلام الكامل في مقاصده وأهدافه، والصوفية السابقون وكثير من اللاحقين استقام سلوكهم على هذا المبدأ في منهجه ولا شأن لي فيما شارك اسماً وامتلأ بالدخائل والبدع، فذلك ما لم أقصد إليه، فإن التصوف حال أكثر منه قالاً، وإن من سلك سبيل القوم بصدق ذاق ما ذاقوه إن شاء الله تعالى له ذلك".

(الإمام أحمد السرهندي في كتابه «الأنوار القدسية»)

(إن أصول طريق التصوف خمسة:

١ً - تقوى الله تعالى في السرِّ والعلانية.

٢ً - اتِّباع السنة في الأقوال والأفعال.

٣ً - الإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار.

٤ً - الرِّضى عن الله في القليل والكثير.

٥ً - الرجوع إلى الله في السرَّاء والضرَّاء).

(الإمام النووي)

والقدر الذي أذكره لينتفع به هو أني علمتُ يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى.

وأن سيرتهم أحسن السِّير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، وإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، فأيقنتُ أنهم الفرقة الناجية وماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها: تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، وعمادهما ومفتاحها الجاري منها مجرى الإحرام في الصلاة: استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها: الفناء بالكلية في الله.

(الإمام الغزالي في 'المنقذ من الضلال')

(جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامهم عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره

واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم إلى محل المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف، وتحققوا بما منّه سبحانه لهم من التقليب والتصريف، ثم رجعوا إلى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال، علماً منهم بأنه جلّ وعلا يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد، لا يحكم عليه خلق، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق، ثوابه ابتداء فضل، وعذابه حكم بعدل، وأمره قضاء فصل).

(الإمام القُشيري في "الرسالة القشيريّة")

أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء (الصوفية) ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال في النوع أو الجنس، لهم مشاهد صحيحة في عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها في الواقع فهم لذلك لا يستبعدون شيئاً مما يحدَّث به عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ومن ذاق عرف ومن حرُم انحرف ودليل صحته ما يحدثون به، ومنه ظهور الأثر الصالح منهم، وسلامة أعمالهم ممّا يخالف شرائع أنبيائهم وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم.

(الشيخ محمد عبده)

نحن في عصرنا هذا أشد الناس حاجة إلى متصوف بنظام التصوف الحقيقي، وذلك لأن شبابنا قد استهوته الأهواء وسيطرت على قلبه الشهوات.. وإذا سيطرت الأهواء والشهوات على جيل من الأجيال أصبحت

خطب الخطباء لا تجدي، وكتابة الكتَّاب لا تجدي، ومواعظ الوعاظ تجدي، وحِكَم العلماء لا تجدي، وأصبحت كل وسائل الهداية لا تجدي شيئاً.

إذاً لا بد لنا من طريق آخر للإصلاح، هذا الطريق أن نتجه إلى الاستيلاء على نفوس الشباب، وهذا الاستيلاء يكون بطريق الشيخ ومريديه، بحيث يكون في كل قرية وفي كل حيٍّ من أحياء المدن وفي كل بيئة علمية أو اجتماعية رجال يقفون موقف الشيخ الصوفي من مريديه.

إن العلاقة بين المريد والشيخ، وبين مراتب هذا المريد هي التي يمكن أن تهذِّب وأن توجِّه.

(الشيخ محمد أبو زهرة)

التصوف ليس إلا تعبيراً للشريعة الإسلامية وتفسيراً لها، لأجل ذلك يجب أن يدرس الناس كتب التصوف مثل كتاب (قوت القلوب) للمكي، و(العوارف) للسهروردي، وكتب الغزالي، تماماً كما يدرسون كتب الفقه، فالتصوف لا يمكن أن يصلح الأمر بغيره، لأن أول شيء في طريق التصوف هو تعليم التواضع، وعنوانه في التصوف: "الفناء".

التصوف هو عنوان للأحكام التي تعالج الباطن والقلب، كما تعالج أحكام الفقه الحياة الدينية الظاهرة، وإن أحكام التصوف منصوصة في القرآن والحديث مثل أحكام الفقه.

(الشيخ أشرف علي التهانوي)

التصوف في الحقيقة غير دخيل في العقيدة الإسلامية كما قلنا في كتابنا عن أثر العرب في الحضارة الأوربية، ومثبوت في آيات القرآن الكريم، مستكن بأصوله، في عقائد صريحة.

(الأستاذ عباس محمود العقاد في "الفلسفة القرآنية")

إنما التصوف عبارة - في حقيقة الأمر - عن حب الله ورسوله الصادق، بل الولوع بهما والتفاني في سبيلهما، والذي يقتضيه هذا الولوع والتفاني ألاّ ينحرف المسلم قيد شعرة عن اتباع أحكام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فليس التصوف الإسلامي الخالص بشيء مستقل عن الشريعة، وإنما هو القيام بغاية من الإخلاص وصفاء النية وطهارة القلب.

(الأستاذ أبو الأعلى المودودي)

التصوف لا يعدو أن يكون جهاداً عنيفاً ضد الرغبات ليصل الإنسان إلى السُّمو أو إلى الكمال الروحي، ليكون عارفاً بالله، وإن الذين يربطون بين التصوف من جانب أو الكرامات وخوارق العادات من جانب آخر كثيرون، ولكن التصوف ليس كرامات ولا خوارق للعادات.

(الدكتور عبد الحليم محمود في 'قضية التصوف')

فلاشك أنه لولا هؤلاء (الصوفية) أصحاب النفوس المزكاة، الذين وصلوا إلى درجة الإحسان وفقه الباطن لانهارَ المجتمعُ الإسلاميُ، إيماناً روحانياً، وابتلعت موجة المادية الطاغية العاتية، الباقية من إيمان الأمة وتماسكها، وضعفت صلة القلوب بالله، والحياة بالروح، والمجتمع بالأخلاق، وفقد الإخلاص والاحتساب، وانتشرت الأمراض الباطنة واعتلت القلوب والنفوس، وفقد الطبيب، وتكالب الناس على حطام الدنيا، وتنافس أهل العلم في الجاه والمال والمناصب، وغلب عليهم الطمع والطموح، وتعطلت شعبة من أهم شعب النبوة وبنيانها، وهي (تزكية النفوس والدعوة إلى الإحسان وفقه الباطن).

(العلامة أبو الحسن علي الندوي في 'ربانية لا رهبانية')

(ولا ريب أن مفهوم التصوف العملي إنما هو الذي جاء به الإسلام من خلال الانقطاع للعلم باعتباره عبادة وجهاداً، حيث لا غرض مادي ولا سعي لشهرة زائفة بل وقف العقل والنفس للحقائق، ووجهة التعليم والعلم والتربية في ذلك هو مرضاة الله تعالى، على أن يتم ذلك كله في إطار تقوى الله والخوف منه وفي محيط الأخلاق".

(الأستاذ أنور الجندي في 'عالمية الإسلام')

على المسلم أن يتعلَّم الأشياء التي لا بد منها في الشرع، منها:

ما يزكى به نفسه ويطهر به قلبه بأن يعرف الفضائل "المنجيات" ليتحراها ويتخلق بها، ويعرف الرزائل "المهلكات" ليتجنبها ويتوقاها، ويتعلم ما يضبط به سلوكه في علاقته مع نفسه أو مع أسرته أو مع الناس حكاماً ومحكومين، مسلمين وغير مسلمين، فيعرف في ذلك الحلال من الحرام والواجب من غير الواجب واللائق من غير اللائق.

ولا يضيرنا أن يدخل هذا القدر تحت اسم التوحيد أو الفقه أو التصوف أو الآداب الشرعية أو الزهد وغير ذلك.

فهذه التسميات مصطلحات محدثة ولم يتعبدنا الله بها وإنما يهمنا المضمون ولا عبرة بالأسماء والعناوين متى وضحت المسميات والمضامين، وهذا القدر من العلم يجب أن يكون إلزامياً يتعلمه كل مسلم ومسلمة.

(الدكتور يوسف القرضاوي في 'الرسول والعلم')

التصوف بمعناه الحقيقي السليم هو لب الإسلام، وجوهره الكامن في أعماق فؤاد الإنسان المسلم وبدونه يغدو الإسلام مجرد رسوم ومظاهر وشعارات، يجامل بها الناس بعضهم بعضاً وهذا اللباب يتمثل في الرغبة والرهبة إذ تهيمن على قلب المسلم حباً له ومخافة منه فيتطهر فؤاده من أدران الضغائن والأحقاد وحب الدنيا.. ولا توقفنك إزاء هذه الحقيقة مشكلة

الاسم، فلقد كان التحلي بهذا اللباب في صدر الإسلام مسمى لا اسم له إلا الإسلام، ثم سمي فيما بعد بـ (التصوف)).

(الدكتور سعيد رمضان البوطي في "السلفية")

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدّمة التحقيق

الحمدُ لله ربِّ العالَمِين، والصَّلاَةُ والسَّلاَمُ على أشرف الْمُرسَلِين، سيّدنا محمَّد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومَن تبعهم بإحسانٍ ودعا بدعوتهم إلى يوم الدِّيْن.

أمَّا بعد: فإنَّ هذا الكتاب الذي بين يدي القُرَّاء، هو يوضِّح الجانبَ الرُّوْحِيَّ في الإسلام، والذي اعتاده المتأخِّرون أن يُسَمّوه بالتصوُّف، وهو يُثْبِتُ في قُوَّةٍ ووضوحٍ وفي أسلوبٍ علميٍّ متينٍ أنه لبُّ الإسلام وكمالُ الإيمان. ولكي يقوم هذا الجانبُ على أساسٍ من الكتاب والسُّنَّة، ومعرفةٍ دقيقةٍ لجوانب النَّفس الإنسانية وطبيعتِها ومَسَالِكها وخَفَاياها الشُّعُوْرِي منها واللاَّشُعُوْرِي؛ قام مؤلِّفُ هذا الكتابِ الشيخ عبد الباري النَّدْوِي (أستاذ الفلسفة الحديثة سابقاً في الجامعة العثمانية بحيدرآباد – الدَّكَن) بتنظيم هذه التعاليم الأساسية وإيضاحِ السُّلُوك القائم على الإيمان والعمل، لا على الدَّرْوَشَة والذُّهُوْل والانعزال والغفلة.

والكتابُ في الحقيقة مجموعةٌ من الْحِكَم والْمَواعِظ والفوائد والأقوال للعالِم الرَّبَّانِيّ الْمُصلِح الْمُرَبِّي الشيخ أشرف عليّ التَّهَانَوِيّ (المعروف في شِبْه القارَّة الهندية بلقبه: "حكيم الأمة")، وكلّها تَخْتَصُّ بالإصلاح وتزكيةِ النَّفس، وكان – رحمه اللهُ تعالى – يوجِّهها بين الحين والآخَر إلى العلماء والزعماء والمثقَّفين والأساتذة الجامعيِّين، كما أنَّه يَشمَل أيضاً عُصَارَةَ مجموعةٍ من كتبه ورسائله التي ألَّفها بالأردية في الإصلاح والتربية والتصوُّف، وقد جَمَعها ولَخَّصها المؤلِّفُ في هذا الكتابِ وعلَّق عليها تعليقاتٍ قيمةً مفيدةً، ثم نَقَله إلى العربية فضيلةُ الأستاذ الشيخ محمَّد الرابع الحسني النَّدْوِي – حفظه اللهُ ومَدَّ في عمره – بأسلوبٍ عصريٍّ سَلِسٍ يَسهَل فهمُه على كلِّ مُهْتَمٍّ وغيرِ مُهْتَمٍّ بهذا الموضوع.

وقد طُبع هذا الكتابُ قديماً في "دار الفتح" بدمشق سنةَ ١٣٨٣هـ (١٩٦٣م)، ثم نَفِدَتْ طبعتُه، وتعذَّر الحصولُ عليها لطالِبيها، فاتّجهت النيةُ إلى إخراجه من جديدٍ مع الاعتناء بتخريج أحاديثِه والترجمةِ للأعلام الوارد ذكرُهم فيه، أسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبّل هذا الجهدَ المتواضع في إخراجه، ويكتب له القبولَ، إنه وليٌّ ذلك والقادِرُ عليه، وآخِرُ دعواي أن الحمد لله ربّ العالَمين.

١١/شوال ١٤٢٢هـ

٢٦/ كانون الأول ٢٠٠٢م

كتبَهُ المعتزُّ بالله تعالى

سيِّد عبْد الماجِد الغَوْري

تقديم الكتاب

بقلم: **العلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي.**

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

أما بعد: فإن للمصطلحات والأسماء الشائعة بين الناس للأشياء جناية على الحقائق، ولهذه الجناية قصة طويلة في كل فن ولغة وفي كل أدب ودين، فإنها تولّد كائناً آخر، تنشأ عنه الشبهات، وتشتد حوله الخصومات، وتتكون فيه المذاهب، وتستخدم لها الحجج والدلائل، ويحمى فيها وطيس الكلام والخصام، فلو عدلنا عن هذه المصطلحات المحدثة، وعن هذه الأسماء الحرفية ورجعنا إلى الماضي وإلى الكلمات التي كان يعبر بها الناس عن هذه الحقائق في سهولة وبساطة، وإلى ما كان ينطق به رجال العهد الأول والسلف الأقدمون، انحلّت العقدة، وهان الخطب واصطلح الناس.

ومن هذه المصطلحات والأسماء العرفية التي شاعت بين الناس «التصوف» ومن هنا ثارت أسئلة وبحوث وتساءل الناس ما مدلول الكلمة وما مأخذها، هل هو من الصوف أو منَ الصفاء أو من الصفو أو من الصفة؟ أو هي مأخوذة من الكلمة اليونانية (صوفيا) معناها: «الحكمة؟»[1].

ومتى حدثت هذه الكلمة؟ ولم نعرف لها أثراً في الكتاب والسنة وما جاءت في كلام الصحابة ﷺ والتابعين لهم بإحسان وما عرفت في خير القرون، وكل ما كان هذا شأنه، فإنه من البدع المحدثة، وحميت المعركة بين أصدقائه وخصومه

---

[1] - كلما أقول: قيلت في معنى التصوف واشتقاقه، راجع دائرة المعارف للبستاني، وتاريخ اللغة العربية لزيدان.

والموافقين والمعارضين حتى تكونت بذلك مكتبة كبيرة يصعب استعراضها.

أما إذا عدلنا عن هذا المصطلح الذي نشأ وشاع في القرن الثاني[1] ورجعنا إلى الكتاب والسنة وعصر الصحابة والتابعين وتأملنا في القرآن والحديث، وجدنا القرآن ينوّه بشعبة من شعب الدين ومهمة من مهمات النبوة يعبر عنها بلفظ: (التزكية) ويذكرها كركن من الأركان الأربعة التي بعث الرسول الأعظمﷺ لتحقيقها وتكميلها: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2]. وهي تزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل وتخليتها من الرذائل، التزكية التي نرى أمثلتها الرائعة في حياة الصحابة رضوان الله عليهم وإخلاصهم وأخلاقهم والتي كانت نتيجتها هذا المجتمع الصالح الفاضل المثالي الذي ليس له نظيرٌ في التاريخ وهذه الحكومة العادلة الراشدة التي لا مثيل لها في العالم.

ووجدنا لسان النبوة يلهج بدرجة هي فوق درجة الإسلام والإيمان ويعبّر عنها بلفظ: (الإحسان). ومعناها: كيفية من اليقين والاستحضار يجب أن يعمل لها العاملون، ويتنافس فيها المتنافسون، فيُسأل الرسولﷺ ما الإحسان؟ فيقول: «**أَعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فإن لَمَ تَكُنْ تَرَاه فإنَّهُ يَرَاكَ**»[3].

ووجدنا الشريعة وما أثر عن الرسولﷺ من الأقوال والأحوال ودوّن في

---

[1] - انظر كشف الظنون الجزء الأول صفحة ٢٨ نقلاً عن الإمام القشيري.

[2] - سورة الجمعة الآية: ٢.

[3] - والحديث كما رواه الطبراني عن رجل من بني النخع قال: سمعت أبا الدرداء حين حضرته الوفاة قال: أحدثكم حديثاً سمعته من رسول اللهﷺ، سمعته يقول: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، واعدُدْ نفسك بالموتى، وإيّاك ودعوة المظلوم فإنها تُستَجاب». والحديث حسن بشواهده. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٤٠): رواه الطبراني في الكبير.

الكتب ينقسم بين قسمين، أفعال وهيئات وأمور محسوسة كقيام وقعود وركوع وسجود، وتلاوة وتسبيح، وأدعية وأذكار، وأحكام ومناسك قد تكفّل بها الحديث رواية وتدويناً، والفقه استخراجاً واستنباطاً وقام بها المحدثون والفقهاء ـ جزاهم الله عن الأمة ـ فحفظوا للأمة دينها وسهّلوا لها العمل به.

وقسم آخر هو كيفيات باطنية كانت تصاحب هذه الأفعال والهيئات عند الأداء وتلازم الرسولﷺ قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً، وداعياً وذاكراً، وآمراً وناهياً، وفي خلوة البيت وساحة الجهاد، وهو الإخلاص والاحتساب والصبر والتوكل والزهد وغنى القلب والإيثار والسخاء والأدب والحياء والخشوع في الصلاة والتضرع والابتهال في الدعاء، والزهد في زخارف الحياة وإيثار الآخرة على العاجلة والشوق إلى لقاء الله إلى غير ذلك من كيفيات باطنية وأخلاق إيمانية هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد والباطن من الظاهر، وتندرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات وآداب وأحكام تجعل منها علماً مستقلاً، وفقهاً منفرداً فإن سمّي العلم الذي تكفل بشرح الأول وإيضاحه وتفصيله والدلالة على طرق تحصيله (فقه الظاهر) سمي هذا العلم الذي يتكفل بشرح هذه الكيفيات ويدل على طرق الوصول إليها: (فقه الباطن).

فكان الأجدر بنا أن نسمي العلم الذي يتكفل بتزكية النفوس وتهذيبها وتحليتها بالفضائل الشرعية وتخليتها عن الرذائل النفسية والخلقية ويدعو إلى كمال الإيمان والحصول على درجة الإحسان والتخلق بالأخلاق النبوية واتباع الرسولﷺ في صفاته الباطنية وكيفياته الإيمانية كان الأجدر بنا وبالمسلمين أن يسموه: (التزكية) أو (الإحسان) أو (فقه الباطن) ولو فعلوا ذلك لانحسم الخلاف وزال الشقاق، وتصالح الفريقان اللذان فرق بينهما المصطلح وباعد بينهما الاستعمال الشائع، فالتزكية والإحسان وفقه الباطن حقائق شرعية علمية، ومفاهيم دينية ثابتة من الكتاب والسنة يقرُّ بها المسلمون جميعاً، ولو

ترك المتصوفون الالحاح على منهاج عمليّ خاص للوصول إلى هذه الغاية التي تعبّر عنها بالتزكية أو الإحسان أو فقه الباطن، فالمناهج تتغير وتتطور بحسب الزمان والمكان وطبائع الأجيال والظروف المحيطة بها، وألحّوا على الغاية دون الوسائل لم يختلف في هذه القضية اثنان، ولم ينتطح فيها عنزان وخضع الجميع وأقروا بوجود شعبة من الدين وركن من أركان الإسلام يحسن أن نعبّر عنه بالتزكية أو الإحسان أو فقه الباطن، وأقرّوا بأنه روح الشريعة، ولُبٌّ لباب الدين وحاجة الحياة، فلا كمال للدين ولا صلاح للحياة الاجتماعية، ولا لذّة ـ بالمعنى الحقيقي ـ في الحياة الفردية إلا بتحقيق هذه الشعبة في الحياة.

ومن هنا كانت جناية هذا المصطلح والعرف الشائع (التصوف) على هذه الحقيقة الدينية الناصعة عظيمة، فقد حجبتها عن أنظار كثيرة، وصدت فريقاً كبيراً من الناس عن سبيلها والحرص على تحصيلها ولكن كان ذلك لأسباب تاريخية يطول ذكرها والأمور تجري كثيراً على غير الأهواء والمصالح، وليس لنا الآن أن نقرر الحقيقة ونتحرر من القيود والمصطلحات ومن النزعات والتعصبات ولا نفرّ من حقيقة دينية يقررها الشرع ويدعو إليها الكتاب والسنة وتشتد إليها حاجة المجتمع والفرد لأجل مصطلح محدث أو اسم طارىء دخيل.

ثم جنى على هذه الحقيقة الدينية شيء آخر وهو أنه دخل فيها دجالون ومحترفون وباطنيون وملحدون، اتخذوها وسيلة لتحريف الدين وإضلال المسلمين وإفساد المجتمع ونشر الإباحية، وتزعموا هذا الفن وحملوا لواءه فكان ذلك ضغثاً على إبالة، وزهّد فيه ونفر منه أهل الغيرة الدينية والمحافظين على الشريعة الإسلامية وطائفة أخرى من غير المحققين لم يعرفوا روح هذه الشعبة وغايتها ولم يميزوا بين الغاية والوسائل فخلطوا بينها، وألحوا على الوسائل أحياناً وضيّعوا الغاية أو أدخلوا ما ليس من هذا الفن في صميم هذا الفن وصلبه، وعدّوه من الكمالات ومن الغايات المطلوبة وعقدوا المسالة وطولوها،

وجعلوا الشيء الذي يكلَّف به كل مسلم والذي هو لب الدين وحاجة الحياة لعزة وفلسفة ورهبانية لا يجرؤ عليها ولا يطمع فيها إلا من نقض يده من أسباب الحياة ورفض الدنيا وما إليها، ولا شك أن أولئك قليل من قليل في كل عصر وجيلن وليست هذه دعوة الدين ولا أسوة الرسول ولا حكمة الخلق، ولكن الله قيّض للمسلمين في كل عصر وجيل من ينفون عن هذا الدين «تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين» ويدعون إلى التزكية الخالصة من شوائب العجمية والفلسفة وإلى (الإحسان) و(فقه الباطن) من غير تحريف، وانتحال وتأويل، ويجددون هذا الطب النبوي لكل عصر وينفخون في الأمة روحاً جديدة من الإيمان والإحسان، ويجددون صلة القلوب بالله والأجسام بالأرواح، والمجتمع بالأخلاق، والعلماء بالربانية ويوجدون في الجمهور قوة مقاومة الشهوات وفتنة المال والولد، وزينة الحياة الدنيا وفي الخواص قوة مقاومة صلات الملوك وسياطهم ووعدهم ووعيدهم، والجرأة على الجهر بكلمة حق عند سلطان جائر والاحتساب على الملوك والأمراء والاستهانة بالظاهر والزخارف، والقناعة باليسير فيستطيع أحدهم أن يقول - وقد طُلب منه أن يُقبّل يد الملك ليرضى عنه - «**يَا مسكين والله ما أرضاه أن يقبل يدي فضلاً عن أن أقبّل يده يا قوم أنتم في واد وأنا في واد**»[1].

ويقول بعضهم وقد عرض عليه ملك بلاده أن يقبل شيئاً مما آتاه الله من الخير الكثير «**إنّ الله يصف هذه الدنيا بطولها وعرضها بالقلة والخِسّة فيقول: وقل متاع الدنيا قليل، وقد رزقك الله جزءاً صغيراً من قطعتها**

---

[1] - قالها الشيخ عبد العزيز بن عبد السلام الملقب بسلطان العلماء، الذي كان من كبار فقهاء الشافعية بلغ رتبة الاجتهاد، ولد ونشأ في دمشق، وتوفي في القاهرة عام ٦٦٠هـ، وله مؤلفات عظيمة، منها: التفسير الكبير، والإلمام في أدلة الأحكام وقواعد الشريعة وغيرها.

الصغيرة، فلا أرزؤك فيه»[1] ويمد أحدهم رجله إلى أمير جبار، ويرسل إليه هذا الأمير صرة من الذهب فيرفضها قائلاً: «**إن مَن يمدُّ رِجْلَه لا يمدُّ يَدَه**»[2].

فلا شك أنه لولا هؤلاء ـ أصحاب النفوس المزكاة، الذين وصلوا إلى درجة الإحسان وفقه الباطن ـ لانهار المجتمع الإسلامي إيماناً وروحانية وابتلعت موجة المادية الطاغية العاتية البقية الباقية من غيمان الأمة وتماسكها، وضعفت صلة القلوب بالله والحياة بالروح، والمجتمع بالأخلاق، وفقد الإخلاص والاحتساب، وانتشرت الأمراض الباطنية واعتلّت القلوب والنفوس وفقد الطبيب، وتكالب الناس على حكام الدنيا، وتنافس أهل العلم في الجاه والمال والمناصب، وغلب عليهم الطمع والطموح وتعطلت شعبة من أهم شعب النبوة ونيابتها وهي: (تزكية النفوس والدعوة إلى الإحسان وفقه الباطن).

أنظر إلى بلاد ضعفت فيها الدعوة إلى الله والربانية وتزكية النفوس من زمان وندر فيها وجود الدعاة إلى الله وتجديد الصلة بالله وإصلاح الباطن ـ بنفوذ الحضارة الغربية أو للقرب من مركزها أو بفعل عوامل أخرى أنك تشعر فيها بفراغ هائل لا يملؤه التبحر في العلم ولا التعمق في التفكير، ولا فضل من ذكاء، ولا غنى من أدب ولا نسب قريب بلغة الكتاب والسنة ولا نعمة من استقلال، إنها أزمة روحية وخلقية لا علاج لها، ومشكلة من أدق مشكلات المجتمع لا حلَّ لها، فالدهماء والشعب فريسة المادية الرعناء ونهامة المال العمياء والأمراض الإجتماعية والخلقية، والمثقفون ـ الثقافة الدينية أو المدنية ـ فريسة

---

[1] – قالها الشيخ مظهر الدهلوي، الذي كان من كبار الشيوخ النقشبندية في الهند في القرن الثاني عشر الهجري.

[2] – قالها الشيخ سعيد بن حسن بن أحمد الحلبي كان من كبار فقهاء الأحناف في الشام لعصره، ولد ونشأ في حلب، وتوفي بها عام ١٢٥٩هـ.

الحرص على الجاه والمنصب والأمراض الباطنية من حسد وشح ورياء وكبر وأنانية وحب الظهور ونفاق ومداهنة وخضوع للمادة والقوة، والحركات الإجتماعية والسياسية تفسدها الأغراض وعدم تربية النفوس وضعف القادة، والمؤسسات يفسدها الخلاف والشقاق وقلة الشعور بالمسؤولية والتفكير الزائد في المادة وزيادة الرواتب، والعلماء يضعف سلطانهم اهتمامهم الزائد بالمظاهر وخوفهم الزائد من الفقر وسخط الخاصة والعامة، واعتيادهم الزائد للحياة الرخية الناعمة، ولا علاج لكل ذلك إلا في (التزكية النبوية) التي نطق بها القرآن وبعث لها الرسول، وفي (الربانية) التي طولب بها العلماء ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾[1].

إنني لا ألح على منهاج خاص من التزكية درج عليه جيل من أجيال المسلمين واشتهر في الزمن الأخير بالتصوف - من غير حاجة إلى ذلك فقد كان في كلمات الكتاب والسنة ومصطلحاتهما غنى عنه - ولا أبرىء طائفة ممن تزعم هذه الدعوة واضطلع بها من نقص في العلم والتفكير أو خطأ في العمل والتطبيق ولا أعتقد عصمتها فكلٌّ يخطىء ويصيب، ولكن لا بد أن نملأ هذا الفراغ الواقع في حياتنا ومجتمعنا ونسد هذا المكان الذي كان يشغله الدعاة إلى الله والربانية والمشتغلون بتربية النفوس وتزكيتها وتجديد إيمانها وصلتها بالله والدعوة إلى إصلاح الباطن والعناية بالفرد قبل المجتمع. وأقول للمتحمسين في نقد هؤلاء الدعاة والمنكرين عليهم بلسان الشاعر العربي (الحطيئة)[2]:

أقلُّوا عليهم لا أبا لأبيكم ... من اللَّوم أو سدُّوا المكان الذي سدّوا

وقد كانت الهند مركزاً لهذا الصنف من التزكية والدعوة والربانية لأسباب

---

[1] - سورة آل عمران، الآية: ٧٩.

[2] - شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، كان هجاءاً عنيفاً، مات سنة ٤٥هـ.

تاريخية خاصة نشرحها في الجزء الثاني من كتابنا: (رجال الفكر والدعوة في الإسلام) ونشطت فيها حركة الإصلاح وقويت حتى وصلت إلى أقصى العالم الإسلامي في الغرب والشرق، ووجد فيها مجتهدون استقلوا في تفكيرهم وجددوا هذا الفن وسهلوه لأهل العصر ونقحوه مما التصق به من البدع والزوائد، واستخلصوا منه خلاصة توافق نفوس أهل العصر وطبائعهم وتقرب الطريق وتيسر الوصول نذكر منهم: الإمام الرباني الشيخ أحمد السرهندي[1] (م١٠٣٤هـ). وشيخ الإسلام الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشيخ ولي الله الدهلوي[2] (م١١٧٦هـ). والسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد[3]

---

[1] - هو الشيخ الأجل الإمام العارف، محي السنة، ناصر الشريعة، مجدد لعالم الحقيقة، حجة الأولياء المتقين، شيخ الإسلام والمسلمين، أحمد بن عبد الأحد بن زين العابدين، ولد بسرهند عام ٩٧١هـ، وتوفي بها عام ١٠٣٤هـ، انظر للإطلاع على حياته الجزء الثالث من سلسلة العلامة أبي الحسن علي الحسني الندوي للكتاب: رجال الفكر والدعوة في الإسلام. طبع دار ابن كثير دمشق.

[2] - هو أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي الدهلوي الملقب شاه ولي الله، أحد كبار العلماء والمحدثين لعصره، أحيا الله به وبأولاده الحديث والسنة بالهند بعد مواتها، توفي عام ١١٧٦هـ. وله آثار قيمة، منها: حجة الله البالغة. من يريد الاستزادة من الاطلاع على حياته فليراجع الجزء الرابع من سلسلة العلامة أبي الحسن الندوي للكتاب: رجال الفكر والدعوة في الإسلام.

[3] - هو السيد الإمام المجاهد أحمد بن عرفان الشهيد، قائد حركة الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله في تاريخ الحصن الإسلامي المجيد، وأوّل من أقام دولة إسلامية في الهند على منهج الخلافة الراشدة في الحدود الشمالية الغربية للحصن في العصر الحديث لمواجهة الاستعمار البريطاني، استشهد في معركة بالاكوت على أيد السيخ سنة ١٣٤٦هـ. إقرأ ما كتبه العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي عن حياته وجهاده في سبيل الله في كتاب: «إذا هبت ريح الإيمان». طبع دار ابن كثير دمشق.

(م١٢٤٦هـ). والعالم الرباني مولانا رشد أحمد الكنكوهي[١] (م١٣٢٣هـ).

وقد كان من خلفائهم المصلح الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي[٢] (م١٣٦٢هـ). الذي هو من كبار علماء هذا العصر الربانيين. وأعظم مؤلف في هذا العصر بالإطلاق[٣] ومن أعظم من انتفعت بهم الهند في إصلاح العقيدة والعمل والرجوع إلى الله وإصلاح النفس وانتفع الناس بكتبه انتفاعاً لم يعرف لعالم آخر في هذا الزمان وقد شرح الله صدره لتيسير هذه الطريقة ـ التي كانت قد التوت وتعقدت ـ وتقريبها وتنقيح الغايات من الوسائل واللباب من القشور والزوائد وبلغ فيها درجة الإمامة والاجتهاد حتى أقرَّ له كبار العلماء والشيوخ والمربين بالتفرد في هذا الباب والتجديد لهذا الفن، ووفقه الله عن طريق التربية والتأليف والوعظ لتجلية حقيقة التصوف وإقناع الناس بأهميته والحاجة إليه وتيسره لكل فرد على حسب طبقته وأشغاله وثقافته وعقليته حتى سهل منالـه ودنا جناه وأقبل عليه العلماء والزعماء والمؤلفون والموظفون وكبار المثقفين والمعلمين في الجامعات، وممن تأثر بالحضارة الغربية والفلسفة الحديثة وتعرض للالحاد والمروق من الدين، والعاطلون والمشتغلون، وأهل النبوغ والذكاء وأهل الحرف والصناعات وأصحاب النفوس القوية وأهل الهمم الضعيفة على السواء حتى كان للتصوف وإصلاح الباطن مكانة في الطبقة المثقفة ودولة في هذا العهد المادّي.

---

[١] – هو الشيخ الإمام العلامة المحدث: رشيد أحمد بن هداية أحمد الكنكوهي. أحد العلماء المحققين والمحدّثين البارعين في الهند، لم يكن له نظيرٌ في زمانه في الصلابة في الدين، والتفقه فيه. توفي عام ١٣٢٣هـ، وله مصنفات مختصرة قليلة، وبعض رسائل في المسائل الخلافية والرد على البدع، وله فتاوى قد جمعت في ثلاث مجلدات.

[٢] – ستأتي ترجمته مفصّلاً في الصفحات القادمة.

[٣] – يبلغ عدد مؤلفاته إلى تسع مئة وعشر كتب.

اختار الله لعرض دعوته وفكرته ـ التي احتواها آلاف من الصفحات ـ أستاذنا الكبير الشيخ عبد الباري الندوي أحد تلاميذه الروحيين وقد كان من أجدر الناس بهذا العمل العظيم، فقد كان معلماً للفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد ومؤلف كتاب: (بين الدين والعقليات)[1]. المشهور وعاش في الوسط الديني والعلمي، وتخرج في معهد كبير ديني وصحب كبار العلماء والمؤلفين والكتاب في الهند وعاصر دور العقلية والتنور والحرية الفكرية في هذه البلاد ودرس الفلسفة الحديثة بتعمق وتوسُّع ثم مارس مهنة التعليم في جامعة من أرقى جامعات الهند ودرّس طوائف من الشباب الأذكياء النابغين الفلسفة وعلوم الدين واجتاز مراحل القلق الفكري والارتيابية والسوفسطائية، وكان متصلاً بالمدارس الفكرية الحديثة في أوربا ثم ساقه سائق التوفيق إلى شيوخ مخلصين في مقدمتهم الشيخ أشرف علي التهانوي الذي خص الأستاذ بالثقة والعناية لذكائه وسلامة فهمه وصدق طلبه حتى حصلت له الإجازة منه ودامت الصلة بينه وازدادت توثقاً وإحكاماً، ولم تزده الأيام والتجارب إلا إعجاباً بشخصية شيخه وثقة بفهمه واجتهاده واستمر اللقاء والمراسلات حتى استأثرت بالشيخ ـ رحمه الله ـ عام (١٣٦٢هـ).

وانقطع الشيخ بعدما أحيل إلى المعاش سنة ١٩٤٥ إلى تلخيص مؤلفاته والاقتباس منها والتقاط الدرر من بحارها ونظمها في أسلوب كتابي عصري وعني بعرض فكرته كفكرة جامعة وصورة كاملة في مؤلفاته، ومن أنفع هذه المؤلفات هذا الكتاب الذي نقدم ترجمته بالعربية واسمه: (تجديد التصوف والسلوك) أسميناه بالعربية (بين التصوف والحياة) وهو كتاب يثبت في قوة

---

[1] – وقد نقله إلى العربية فضيلة الأستاذ واضح رشيد الحسني الندوي، وصدرت له عدة طبعات من القاهرة وبيروت.

ووضوح وأسلوب علمي أن الذي اعتاد المتأخرون أن يسموه بالتصوف، هو لب الإسلام وكمال الإيمان، وأنه لا يمكن لرجل ما أن ينال بركات الإسلام وثمراته الدينية والدنيوية والفردية والاجتماعية والقومية والسياسية بدون أن يتحقق بهذا الكيف، ويعني بإصلاح نفسه - قبل غيره - وتزكيتها وتحليتها بصفة الإحسان وفقه الباطن.

وقد نقل هذا الكتاب القيم الأستاذ محمد الرابع بن رشيد الحسني الندوي أستاذ دار العلوم ندوة العلماء، وبذل فيه جهده ومقداراً كبيراً من وقته، لأن التصوف قد أصبحت له لغة خاصة وتعبيرات خاصة في الهند يصعب نقلها والتعبير عنها في اللغة العربية على شدة اشتغاله بالدروس والإشراف على قسم الأدب العربي في دار العلوم ونشاطها الأدبي والصحافي.

وللمؤلف شكر القراء والمنتفعين بهذه العلوم الصحيحة النافعة وإعجابهم، وللمترجم تقديرهم واعترافهم ولكل من له نصيبٌ في هذا العمل دعاؤهم.

في ٤ ربيع الأول ١٣٨٠هـ. أبو الحسن علي الحسني الندوي

ترجمة الشيخ أشرف علي التهانوي

الشيخ العالم الفقيه: أشرف علي بن عبد الحق الحنفي التهانوي الواعظ المعروف بالفضل والأثر.

ولد بـ "تهانة" قرية من أعمال مظفرنكر عام ١٢٨٠هـ وقرأ المختصرات على مولانا فتح محمد التهانوي والمولوي منفعت علي الديوبندي، وقرأ أكثر كتب المنطق والحكمة وبعض الفقه والأصول على مولانا محمود حسن الديوبندي المحدث، وأكثر كتب الفقه والأصول وبعض الحديث على مولانا محمود، والفنون الرياضية والمواريث على السيد أحمد الدهلوي. والحديث والتفسير على مولانا يعقوب بن مملوك العلي النانوتوي، كلها في المدرسة العالية بديوبند.

ثم سافر إلى الحجاز فحج وزار وأخذ الطريقة عن الشيخ الكبير إمداد الله التهانوي المهاجر إلى مكة المباركة، وصحبه زماناً ثم رجع إلى الهند ودرس مدة طويلة في مدرسة (جامع العلوم) بكانبور مع اشتغاله بالأذكار والأشغال، حتى غلبت عليه الحالة فترك التدريس وسافر إلى أقطار الهند وراح إلى الحجاز مرة ثانية وصحب شيخه مدة، ثم عاد إلى الهند، وأقام بمواطنه في آخر صفر سنة ١٣١٥هـ، فلم يغادره إلا نادراً للتداوي أو الاضطرار، وصار مرجعاً في التربية والإرشاد وإصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق، تشد إليه الرحال ويقصده الراغبون في ذلك من أقاصي البلاد وأدانيها، وانتهت إليه الرياسة في تربية المريدين وإرشاد الطالبين، والاطلاع على غوائل النفوس ومداخل الشيطان، ومعالجة الأدواء الباطنة والأسقام النفسية، وهو ملتزم لمكانه، يقصد ولا يقصد، ويؤتى ولا يأتي، وللإقامة في زاويته والاستفادة من مجالسة قيود والتزامات، يحتملها الطالبون، لا يلتزم ضيافة القاصدين شأن الزوايا، بل

يقومون بذلك بأنفسهم، ويخص بعض الفضلاء وخاصة الزائرين بالضيافة، ومع ذلك يؤمه الطالبون من أنحاء بعيدة، ويتحملون نفقاتهم.

وكانت أوقاته مضبوطة منظمة، لا يخل بها ولا يستثني فيها إلا في حالات اضطرارية، وكان إذا انصرف من صلاة الصبح اشتغل بذات نفسه، عاكفاً على الكتابة والتأليف منفرداً عن الناس، لا يطمع فيه طامع إلى أن يتغدى ويقبل ويصلي الظهر، فإذا صلى الظهر جلس للناس يكتب الردود على الرسائل، ويقرأ بعضها للناس ويتحدث إليهم، ويؤنسهم بنكته ولطائفه، وكان حديثه نزهة للأذهان، وفاكهة للجلساء، بحيث لا يملون ولا يضيقون، ويكتب بعض الحجب والتعويذات، فإذا صلى العصر انفرد عن الناس واشتغل بشؤون بيته إلى أن يصلي العشاء، فلا يطمع فيه طامع.

وقد كان من كبار العلماء الربانيين الذين نفع الله بمواعظهم ومؤلفاتهم، وقد بلغ عدد مجالس وعظه التي دونت في الرسائل وجمعت في المجاميع إلى أربع مئة مجلس، وقد كان نفع كتبه ومجالس وعظه عظيماً في إصلاح العقيدة والعمل، واستفاد منها ألوف من المسلمين، ورفض عدد لا يحصيه إلا الله العادات والتقاليد الجاهلية والرسوم والبدع التي دخلت في حياة المسلمين وفي بيوتهم وأفراحهم وأحزانهم بسبب الاختلاط الطويل بالكفار وأهل البدع والأهواء، وقد كان له فضل كبير في تيسير الطريقة وتقريبها، وتنقيح الغايات من الوسائل، واللباب من القشور والزوائد.

كانت له اليد الطولى في المعارف الإلهية، ومهارة جيدة في التصنيف والتذكير، ورزق من حسن القبول ما لم يرزق غيره من العلماء والمشايخ في العصر الحاضر.

وله مصنفات كثيرة ممتعة ما بين صغير وكبير وجزء لطيف ومجلدات ضخمة، أحصاها بعض أصحابه فبلغت إلى نحو ثمان مئة، منها نحو اثني

عشر كتاباً بالعربية، منها أنوار الوجود في أطوار الشهود، والتجلي العظيم في أحسن تقويم، وسبق الغايات في نسق الآيات، وغيرها، ومن مصنفاته في غير العربية الإكسير في ترجمة التنوير، والتأديب لمن ليس له في العلم والأدب نصيب، وتحذير الإخوان عن تزوير الشيطان، والقول البديع في اشتراط المصر للتجميع، والقول الفاصل بين الحق والباطل، وتنشيط الطبع في إجراء القراءات السبع، وبيان القرآن في الترجمة والتفسير في ثلاثين جزءاً، والتكشف عن مهمات التصوف، وتربية السالك وتنجية الهالك، وحياة المسلمين وتعليم الدين، والبوادر والنوادر، وإصلاح الرسوم، ومجاميع كثيرة لمجالسه وكلامه ولمواعظه، وقد كان لكتابه (بهشتي زيور) الذي ألفه أصلاً لتعليم البنات وضمنه المسائل الفقهية التي تشتد إليها الحاجة رواج وذيوع قلما بلغهما كتاب آخر من الكتب الدينية في هذا العصر، وطبع مراراً كثيرة يصعب إحصاؤها.

وكان مشكلاً منور الشبيه، أبيض مشرب الحمرة ربعة من الرجال، حسن الثياب في غير إسراف وتجمل، حلو المنطق، لطيف العشرة، فيه دعابة مع مهابة ووقار وسكينة ورزانة، كثير المحفوظ، حسن الاستشهاد بالأبيات، كثير الإنشاد لأشعار المثنوي لمولانا جلال الدين الرومي في المواعظ والمجالس في محالها، شديد العناية كثير الحسبة على أداء الحقوق إلى أصحابها وإصلاح المعاملات مع الناس، لا يحتمل في ذلك تساهلاً وتغافلاً.

توفي إلى رحمة الله تعالى عام ١٣٦٢هـ في عمر يناهز عن الثمانين، ودفن في مسقط رأسه ((تهانه بهون))[1].

---

[1] - بتصرف من: الإعلان بمن في تاريخ الهند من الأعلام. للعلامة عبد الحي الحسني، الجزء الثالث. طبع دار ابن حزم ببيروت.

ترجمة المؤلف

هو الأستاذ عبد الباري الندوي كان من طليعة المتخرجين في دار العلوم لندوة العلماء لكهنؤ، ومن رواد الفلسفة الحديثة وكبار مترجميها في الهند ومن بيان مقاصد الإسلام ومناهجه في الاقتصاد والعلوم الإجتماعية في عصرنا هذا.

مولده ونشأته:

أبصر الأستاذ عبد الباري الندوي النورَ في مطلع القرن الحاضر عام ١٣٠٧هـ في قرية "كديا" من مدينة باره بنكي. ونشأ وترعرع في بيت عتيق في العلم والدين، ينتمي إلى أسرة كريمة عريقة في النسب.

كان متوقد الذكاء وذا بصيرة نافذة، وتوليد للأفكار والمعاني من كل ما يقع تحت سمعه، وبصره، يعرف الدين والدنيا، ويجيد الفهم، ويجيد القول، ويجيد الكتابة، وإن لم تنحل كتاباته عن التفلسف بعض الحين لاشتغاله بالموضوع زمناً طويلاً.

دراسته:

تلقى الأستاذ الندوي دراسته الإبتدائية من والده، ثم التحق بجامعة ندوة العلماء لكهنؤ الهند، حيث استفاد من كبار علماءها و أساتذتها كالشيخ محمد علي المونكيري (مؤسس الجامعة) وكالعلامة المؤرخ الشيخ عبد الحي الحسني (والد الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ومؤلف: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام).

وقرأ الكتب الدراسية الدينية وجانباً من التاريخ والعلوم الحديثة والقديمة على العلامة الباحث المؤرخ الشيخ شبلي النعماني، واستفاد منه استفادةً تامةً

وتأثر به تأثراً كبيراً، ولازمه إلى آخر عمره، وكذلك استفاد خلال دراسته في الجامعة من العلامة الشيخ السيد سليمان الندوي.

ثم بدأ السلسلة الدراسية الواسعة للعلوم والفلسفة الحديثة حتى بلغ فيها مبلغاً عظيماً، وخلال دراسة الفلسفة أعجب بشخصية بركلي ونقل كتابه:

Principle of Human knowledge

(مبادي العلم الإنساني) إلى اللغة الأردوية، وألف كتاباً في شخصية بركلي، علق فيه على أفكاره، وأبرز بعض النواحي الفلسفية.

ممارسته في مجال التدريس:

مارس الأستاذ الندوي في مجال التدريس في عدة جامعات هندية: ومنها أولاً في كلية «بونه» حيث درس بضعة شهور، ثم كلية أحمد آباد درس فيها اللغة الإنجليزية عدة سنوات، وألقى خلال إقامته في هذه الكلية محاضرةً قيمةً باللغة الأردوية بعنوان: الدين والعلوم العقلية. التي نالت إقبالاً عظيماً لدى الأوساط العلمية، وبذلك طارت شهرته ولمع اسمه وسما نجمه حتى وجّهت إليه الدعوة من الجامعة العثمانية بحيدر آباد التي كانت كبرى الجامعات في الهند يومئذ أن يتولى تدريس الفلسفة الحديثة فيها، فعكف الأستاذ على تدريس الفلسفة فيها عشرين سنة. وبعد ذلك أحيل إلى المعاش، وتفرغ للتأليف.

اتصاله بالشيخ التهانوي:

بعد التقاعد في الجامعة اتصل بالمصلح الكبير، المربي الجليل الشيخ أشرف علي التهانوي، وتأثر به روحياً، ولم تزد الأيام والتجارب إلا إعجاباً بشخصيته، ولازمه إلى أن توفي - رحمه الله - ثم عكف على تلخيص مؤلفاته، والاقتباس منها، ونظمها في أسلوب كتابي عصري، ومن أنفع تلك المؤلفات وأشهرها هذا الكتاب الذي يُقدَّم إلى القراء: «بين التصوف والحياة».

مؤلفاته:

وللأستاذ الندوي مؤلفات نفيسة، قد نالت كلها قبولاً بالغاً واستحساناً كبيراً لدى الأوساط الدينية والعلمية في الهند، ومنها نذكر هنا على سبيل المثال:

١- **مبادئ العلم الإنساني** (طبع سنة ١٩١٨م).

٢- **حياة بركلي** (طبع سنة ١٩١٩م).

٣- **علم الأخلاق** (طبع سنة ١٩٢٣م).

٤- **حديقة النفسيات** (طبع سنة ١٩٢٨م).

٥- **بين الدين والعقليات** (وقد نقله إلى العربية الأستاذ واضح رشيد الحسني الندوي، وصدرت له عدة طبعات في البلاد العربية).

٦- **الأخلاقيات** (طبع سنة ١٩٣٢م).

٧- **الطريق والتفكيرات** (طبع سنة ١٩٣٢م).

٨- **مقدمة ما بعد الطبيعيات** (طبع سنة ١٩٣٤م).

٩- **الفلسفة والنتائج** (طبع سنة ١٩٣٧م).

١٠- **الفهم الإنساني** (طبع سنة ١٩٣٨م).

١١- **علم النبات** (طبع سنة ١٩٣٨م).

١٢- **بين التصوف والحياة**. (طبع هذا الكتاب باللغة الأردية سنة ١٩٤٩، ثم نقله فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي إلى العربية، وقد نال الكتاب انتشاراً واسعاً في البلاد العربية حتى صدرت له طبعات عديدة منها.

١٣- **تجديد الدين الكامل** (طبع سنة ١٩٥٠م).

١٤- **تجديد التعليم والتبليغ** (طبع سنة ١٩٥١م).

١٥ـ **تجديد الاقتصاد** (طبع سنة ١٩٥٥م).

١٦ـ **تجديد السياسيات** (طبع سنة ١٩٥٥م).

١٧ـ **الدين والعلوم الطبيعية** (طبع سنة ١٩٧١م).

١٨ـ **نظام الصلاح والفلاح** (طبع سنة ١٩٦٤م).

١٩ـ **الدين والعلوم الطبيعية** (طبع سنة ١٩٧١م).

هذه الكتب كلها باللغة الأردوية، لم تترجم بعد إلا «بين التصوف والحياة» و «بين الدين والعقليات» مع أن جميع مؤلفات الأستاذ الندوي جديرة بأن تترجم بالعربية، كل كتاب منها في موضوعه فريد ومنفرد.

وفاته:

توفي ـ رحمه الله ـ عن خمسة وثمانين من عمره الحافل بالأعمال العلمية سنة ١٣٩٦هـ بلكهنؤ، وقد صلى عليه العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي بجمع عظيم من المسلمين، رحمهما الله رحمة واسعة[1].

---

[1] ـ بتصرف من كتاب المحقق: الإعلام بمن في الهند من الأعلام في القرن العشرين.

ترجمة المترجم

أبصر فضيلة الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي النورَ في بيت عتيق في العلم والدين، امتاز رجاله وأسلافه بعلوّ الهمة، وشدة المجاهدة والتمسك بالدين والصلابة فيه، والحرص على طلب العلوم الدينية، والاهتمام بالتصنيف والتأليف، والعكوف على نشر اللغة العربية وآدابها في الهند.

أشهرهم في الأولين في القرن الحادي عشر الهجري العارف الكبير، والمربي العظيم، السيد علم الله بن السيد فضيل الحسني النقشبندي (١٠٩٦هـ)، والسيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد (ت ١٢٤٦هـ) أكبر قائد حركة الدعوة إلى الله، والجهاد في سبيله في تاريخ الهند الإسلامي المجيد.

وأشهرهم في الآخرين مؤرخ الهند الكبير العلامة الطبيب عبد الحي الحسني (ت ١٣٤١هـ) صاحب: الإعلام بمن في الهند من الأعلام، والهند في العهد الإسلامي، والغناء في الإسلام، وابنه الذي ذاع صيته في الآفاق الأديب العربي الكبير، والداعية الإسلامي العظيم، العلامة الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمهما الله ـ.

ولد الأستاذ محمد الرابع الحسني الندوي عام ١٩٢٩م في قرية "تكية كلان" من أعمال مديرية (رائ بريلي) في ولاية أُترابرديش (الهند).

بدأ دراسته الابتدائية في البيت، فقرأ القرآن الكريم واللغة الأردية والإنكليزية قراءةً وكتابةً، والفارسية نثراً وشعراً على عادة أبناء البيوتات المسلمة المثقفة في الهند.

بدأ دراسة اللغة العربية في البيت، ثم تعلم العلوم الشرعية في مدارس إسلامية مختلفة، وأتمَّ دراسته العليا في دار العلوم التابعة لندوة العلماء بلكهنؤ، فأرسله

خاله العظيم الشيخ السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي إلى الحجاز في عام ١٣٧١هـ ليتصل برجال العلم والدين فيه، ويستفيد من مكتباته.

وبعد عودته من الحجاز عُيِّن أستاذاً لمادة الأدب العربي في دار العلوم، ثم عميداً لكلية اللغة العربية وللمعهد العالي للدعوة والفكر الإسلامي ـ التابعة لدار العلوم ـ.

بدأ الأستاذ الرابع الحسني الندوي يكتب بالعربية في الخامسة عشرة من عمره، وبرز في مدّة قصيرة ككاتب قدير وأديب بارع.

أصدر صحيفةً عربية نصف شهرية باسم (الرَّائد) نالت قبولاً بالغاً في الأوساط العلمية والدينية في الهند وخارجها في العالم العربي منذ أوّل يومها، ولم تزل تصدر إلى يومنا هذا تحت رئاسته وإشرافه من مؤسّسة الصحافة والنشر في ندوة العلماء بلكهنؤ.

وله عدة مؤلفات في الأدب والتعبير والنقد والتاريخ والثقافة الإسلامية، باللغتين العربية والأوردية، أشهرها بالعربية، هي (الأدب العربي بين عرض ونقد)[١] و(تاريخ الأدب العربي) و(منثورات من أدب العرب)[٢] و(تاريخ الجزيرة العربية)[٣] و(الأدب الإسلامي وصلته بالحياة)[٤].

منحت له الحكومة الهندية جائزة (بدمابهوشن) العالمية إشادةً بخدماته الجليلة في الأدب العربي عام ١٩٩١م.

---

[١]- سيصدر عن «دار الفارابي» بدمشق عام ٢٠٠٢ إن شاء الله تعالى.

[٢]- وقد صدرت له عدة طبعات من الهند وباكستان، طُبِعَ أخيراً في «دار إبن كثير» بدمشق عام١٩٩٩م.

[٣]- طُبِعَ مراراً في الهند وباكستان، وهو بالأردوية، لم يترجم بعد.

[٤]- طبع لأول مرة في رابطة الأدب الإسلامي العالمية بالهند، ثم في مؤسسة الرسالة ببيروت.

رافق الأستاذُ الرابع الندوي الشيخَ السيد أبا الحسن علي الحسني الندوي في معظم أسفاره ورحلاته في الشرق والغرب، وهو ابن أخته، وأشبه الناس منه.

ولا يزال له بصمات واضحة ونشاطات جمّة عظيمة في خدمة الإسلام واللغة العربية وآدابها.

وهو يتولى الآن الرئاسة والإدارة والعضوية لعدة مراكز إسلامية ومؤسسات علمية في الهند وخارجها، وهو رئيس **جامعة ندوة العلماء** لكهنؤ، ونائب رئيس **لرابطة الأدب الإسلامي العالمية** بالرياض (السعودية)، ورئيس لفرعها الشرقي في العالم الإسلامي (الهند وما جاورها)، وأمين **الأكاديمية البحوث العلمية الإسلامية** (المجمع الإسلامي العلمي) بلكهنؤ، وعضو **لمركز أكسفورد للدراسات الإسلامية** في جامعة أكسفورد (لندن)، والمستشار التعليمي في عدد من الجامعات الإسلامية في الهند وخارجها في البلاد الإسلامية والعربية.

أطال الله عمر أستاذنا الندوي، ومتّعه بالصحة، وضاعف عليه ثوب النعمة، إمتاعاً لخدمة الإسلام والمسلمين بفضائله وجمائله، وازدياداً وتزوّداً من آثاره ومآثره آمين.

بين التصوُّف والحياة

للعلامة الشيخ عبد الباري الندوي

(١٣٠٧-١٣٩٦هـ)

قدم له

العلامة أبو الحسن علي الحسني الندوي

نقله إلى العربية

الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي

اعتنى به

سيد عبد الماجد الغوري

دار الفـارابي

للمعـارف

الفصل الأول

بين التصوف والحياة

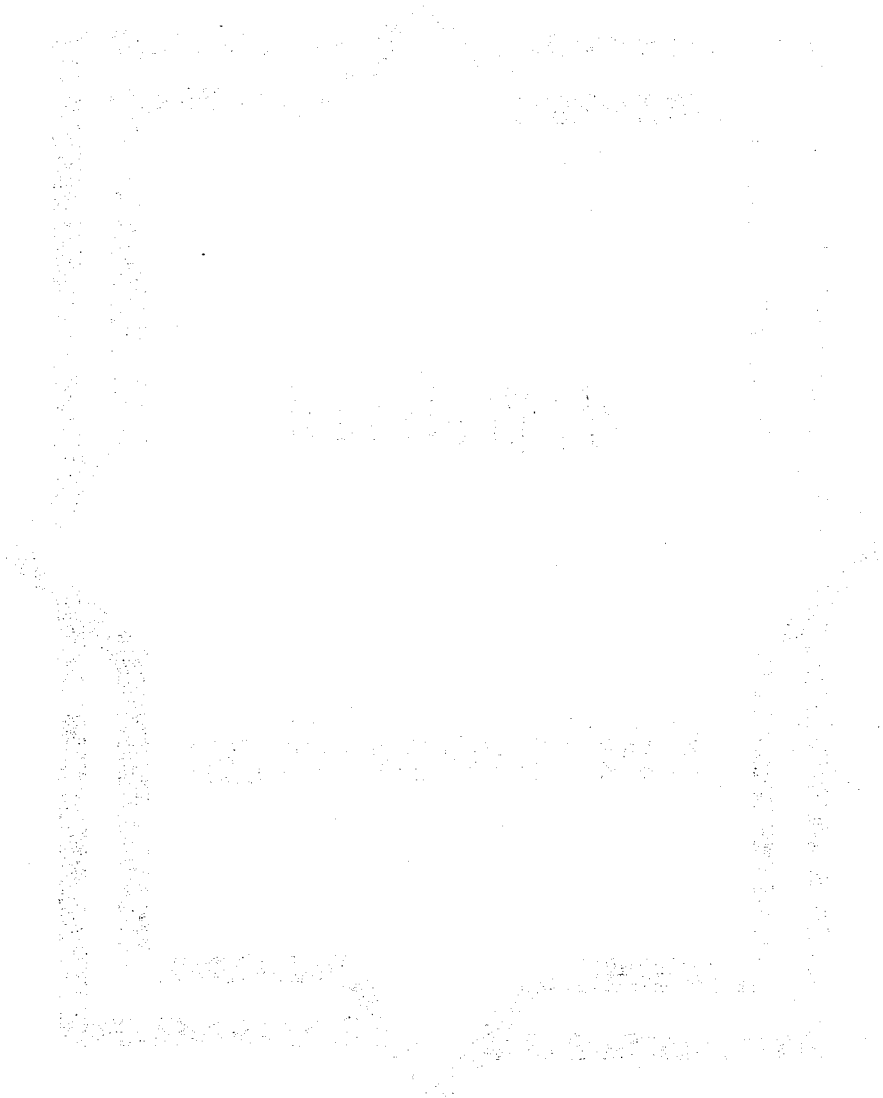

بين التصوف والحياة

تناقض:

إن من غرائب الأمور أن يعتقد كثير من الناس أن التصوف هو الكمال في الدين والدرجة التي تدعى بدرجة الإحسان وهي أعظم درجة من درجات الإسلام والإيمان، وتجد كثيراً من الناس يعتقدون أن المنزلة التي تحصل للمتصوفين والأولياء عند الله من حيث التقرب والدنو إليه لا تحصل لغيرهم حتى لكبار الفقهاء والمحدثين الذين يحملون العلوم الشرعية الظاهرة.

إن هؤلاء الصوفية وأولياء الله ليحملون في جميع أعمال حياتهم وأفعالها وحركاتها وسكناتها صلة إلهية خاصة يكونون معها كأنهم في المشاهدة الإلهية والحضور في كل زمان، وكأنهم متمتعون بلون ما من ألوان المكالمة والمناجاة مع الله، فبذلك لا يرون أحداً أعلى منزلة من الصوفية غير الرسولﷺ والصحابة ﷺ، وهذا الاعتقاد عن الأولياء للصوفية ليس خاصاً بعامة الناس فحسب، بل أن الخاصة من الناس والمحققين منهم أيضاً يسلّمونه ويعترفون به.

وفي جانب آخر نجد شبهات كبيرة وأفهاماً خاطئة تسربت إلى الناس عن طريق التصوف لا نحسبب أن مثلها عمت وانتشرت عن طريق نحلة من النحل الإسلامية وعلم من العلوم الإسلامية حتى أننا قلما نجد صورة من صور الكفر والشرك لم يعدها بعض الناس من صميم التصوف أو من التصوف بعينه ولذلك نجد أن كثيراً من الشخصيات الإسلامية الكبرى أنكرت التصوف ولغت عليه برمته أو حسبته الضلالة بعينها.

سر هذا التناقض:

والسر في هذا التناقض أن منشأ الكمال في شيء إنما هو في باطنه أكثر مما يكون في ظاهره، وفي قوته أكثر من مقداره وفي لبه أكثر من قشره، وفي روحه أكثر من جسمه، وفي مغزاه أكثر من شكله، وكلما كان الشيء أعرق في الباطن والغموض كان أشد تعرضاً للشبهات والضلالات وتطرقت إليه الأوهام ونسجت حوله الأساطير، ومما لا شك فيه أن الشبهات والضلالات التي عدت من صميم الدين وكمالاته صعب اقتلاع جرثومتها واستئصال جذورها، فلذلك نرى أن الضلالات التي دخلت في الإسلام عن طريق التصوف حتى ما يبلغ منها درجة الإشراك بالله والإلحاد في الدين قد تغلغلت في حياة المسلمين وأصبحوا يعدونها من صميم الدين وأصله: حتى أنه لم يعد من الإمكان إزالتها واستئصالها إلا بجهد وعسر.

لقد وقع العامة وعدد كبير من الخاصة نحو التصوف في شبهات عظيمة فمنهم من يعد التصوف كشوفاً وكرامات وتصرفات، ومنهم من ينظر إلى الأشغال الروحية والمراقبات والأحوال والكيوف الباطنية هو التصوف بعينه، ويؤمن بذلك، ومنهم من لا يعد التصوف إلا تقاليد وعادات خاصة، ومنهم من يراه رياضات ومجاهدات وزهادة في العلاقات الإجتماعية ومنهم من يعد التصوف الفلسفي أو التصوف المصطبغ بالصبغة الفلسفية من أفكار وحدة الوجود ووحدة الشهود ونظرياتهما هو التصوف الحق ومنهم من يرى التصوف مجموعة من الأسرار والمغيَّبات، وقد بلغ الأمر في ذلك إلى أن سمّاه رجال الغرب باسم (السرية) وكثيرٌ من المسلمين أيضاً جعلوه سراً أو رمزاً متنقلاً من صدر إلى صدر، أما الذين رأوا التصوف والطريقة والحقيقة والمعرفة ضداً للشريعة فأولئك هم الذين وقعوا في ضلالة أشد وخطأ أطم.

تنقيح التصوف من الأوهام والزوائد:

وقد وفق الله المصلح الكبير الشيخ أشرف علي التهانوي بالتمحيص في هذا الباب، ونقح مثل هذه الأخطاء المختلفة، فكان عمله ذلك عملاً تجديدياً في باب التصوف ولم يقتصر ـ رحمه الله ـ على هذا الجانب السلبي بل أضاف إلى ذلك الجانب الإيجابي وهو أنه وفق إلى عرض التصوف عرضاً صحيحاً إسلامياً حتى تحقق أن التصوف ليس إلا تعبيراً للشريعة الإسلامية وتفسيراً لها، لم يؤد الشيخ هذا العمل التجديدي نظرياً وعلمياً بل إنما أحيا التصوف عملياً وحققه بوسائل التعليم والتربية في غاية من التحقيق والاجتهاد وبعثه بعثاً جديداً.

حقيقة التصوف:

وخلاصة بحوثه أنك كما ترى (للإنسان الكامل) وجهين الظاهر والباطن أو القالب والقلب، كذلك ترى (للدين الكامل) وجهين (الشريعة) و(الطريقة) وكما أن الفقهاء يستنبطون في الشريعة أعمالاً وأحكاماً ظاهرة كذلك الصوفية يستنبطون ويستخرجون من طريقة التصوف أعمال القلب والباطن وأحكامهما.

يمكننا أن نشرح ذلك في عبارة أخرى فنقول: أن التصوف يحل من الباطن ذلك المكان الذي يحله من الظاهر (الفقه) فكما أن للصلاة والصيام وغيرهما من الأعمال والعبادات صورة ظاهرة توجد أحكامها ومسائلها في علم الفقه، كذلك الخضوع والخشية وحضور القلب، أو ذكر الله تعالى بالقلب الذي هو غاية الصلاة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1]. صورة باطنة توجد أحكامها وتفاصيلها في هذا العلم الذي يستحق أن يسمى: (فقه الباطن) وكما أن العزوف عن الطعام والشراب في وقت محدد يسمى صوماً في الأعمال الظاهرة كذلك باطنه يسمى التقوى الذي أشار إليه

---

[1] ـ والآية بكاملها: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]. ثم كان أن للأعمال الشرعية قالباً ومظهراً خارجياً لا تتحقق بغيره ولا تتجلى إلا فيه كذلك هذه الأعمال الشرعية لا تبلغ درجة الصحة ولا تخرج من الفساد ولا تحرز عند الله القبول ولا تأمن سخطه إلا إذا كانت مُتَّسمة بنيات صالحة ومتصفة بالإخلاص، فقد جاء في الحديث: «**إِنَّما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»[2]. حتى أن الإيمان والعقائد الصالحة التي يتوقف عليها نجاة الرجل وسلامته في الآخرة وتنحصر فيها صحة أعمال الرجل الظاهرة وإحراز كل ذلك للقبول عند الله ليسا إلا عملين قلبيين باطنيين، وبذلك تظهر أهمية هذا الفقه الباطني أو التصوف ومكانه من الشريعة الإسلامية.

يعلم الجميع أن أساس جميع العقائد والإيمانيات هو توحيد الرب تعالى وهو إثبات كلمة (لا إله إلا الله) بمعنى نفي الألوهية والربوبية عن جميع المخلوقات ونفي صدور النفع والضرر في صورة الفعل والتأثير عنها وإقرار كل ذلك وإثباته لله وحده ومما لا شك فيه أن الإنسان لا يخضع لأحد ولا يتخذه إلهه وربه ولا يعبده ويتضرع له إلا إذا انكشف له أنه هو النافع والضار، ومعنى كلمة لا إله إلا الله أننا نؤمن بأن النفع أو الضرر الذي يصيبنا في صور ظاهرة مختلفة وبطرق متنوعة من الموت والحياة والمرض والصحة أو الفقر والرفاهة والذلة والشرف ليس فيه الفاعل الحقيقي إلا الله جل وعلا، وليست هذه العقيدة غير عمل القلب والباطن، لكن كثيراً من العلماء المتقنين للعلوم والأحكام الظاهرة والعاملين بها يجعلون ـ مع الأسف ـ غير الله مصدراً للنفع والضرر ومبعثاً للفعل والتأثير بكل جدارة.

---

[1] – والآية بكاملها: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[سورة البقرة الآية: ٦٣]

[2] – رواه البخاري في بدء الوحي رقم الحديث(١)، ومسلم في كتاب الإمارة باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات...» رقم الحديث (١٩٠٧).

ويشاهدون هذا التأثير في غير الله، أليس نفي هذه المشاهدة الزائفة، ونفي هذه الأبهة المزيفة ومشاهدة المؤثر الحقيقي والفاعل الحقيقي في هذا الكون التي عبر عنها لسان الشريعة بالإحسان وهي التي يسميها الصوفية (التوحيد الافعالي) وتفسيره: أن تنشأ مع الله علاقة العبودية الخالصة بحيث تحصل فيها مشاهدة الله ورؤيته والإذعان بحضوره ومعيته في الحياة وفي جميع أعمالها أليس هذا التوحيد الحقيقي هو الدين نفسه والكمال في الدين أفلا يكون هذا العلم والإذعان وهذا اليقين والإيمان روح جميع العبادات والمعاملات في الحياة الدينية وأفلا يكون صيانة هذه الروح وحفظ هذا النبع أو الإيمان والعقيدة أفضل وألزم من جميع الأعمال الظاهرة الأخرى؟!.

التصوف هو الفقه الباطني:

إن التصوف أو العلم الباطني الذي بالغ فيه الناس مبالغة عظيمة وصوروه تصويراً شائها وشرحوه شرحاً طبعه بطابع الضلالة والبدعة ليست حقيقته إلا أنه قانونٌ لأعمال القلب والباطن، وعلم فقه الباطن لصلاحهما وفسادهما مثل علم الفقه والأحكام المقررة لأعمال الجسد وجوارحه، ونجد تفاصيل أحكام التصوف منصوصة فيها وتتبين أهمية أحكام التصوف وأفضليته من نصوص القرآن والحديث، التي تصرح بها أو تلمح إليها حيث قال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[1]. وجاء شرحه وإيضاحه في قول رسول الله ﷺ: «**أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلُحَتْ صَلُحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسُدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ**»[2].

---

[1] - سورة الشعراء، الآية: ٨٩.

[2] - وهو بعض الحديث انظر ما رواه البخاري في كتاب الإيمان: باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)و(٢٥١) ومسلم في كتاب المسافاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات رقم الحديث (١٥٩٩).

ومراد ذلك: أن صلاح أعمال الجسد الظاهرية وأفعاله وفساد أعمال الجسد الظاهرية وأفعاله إنما يتوقفان على الصلاح القلبي والباطني وفساده، وليس الغرض من التصوف أو الفقه الباطني إلا إصلاح هذا القلب وتزيينه وصيانته من الشر والطب له عند فساده ومرضه.

حينما علمنا هذه الحقيقة للتصوف والطريقة عرفنا أن التصوف بدلَ أن يكون مناقضاً للدين والشريعة ومضاداً لهما يحتل مكاناً يستحيل معه لمسلم ما أن يبلغ درجة المؤمن الحق بدون أن يتخذ من التصوف لحياته منهاجاً، أما إذا كان رجلٌ ما ينفر ذهنه ويشمئز هو من اسم التصوف ومصطلحه أو كان يأبى عن أن يعترف بالتصوف كعلم بعينه وفن بذاته، فلمَ لا ينفر ولا يشمئز من المصطلحات الدينية الأخرى من تفسير ومفسر وتجويد ومجود وحديث ومحدث وفقه وفقيه وكلام ومتكلم وغيرها مما تعرف بها علوم الدين المختلفة وفنونها جمعاء، فإن قال أن هذه المصطلحات مستقاة ومقتبسة من ألفاظ القرآن والحديث وعباراتهما فُيردُّ عليه بأن كلمة (الصوفي) ربما كانت في أصلها مقتبسة من أصحاب الصُفَّة بدل أن تكون مقتبسة من لابسي الصوف وإن لم يقبل هذا الرد أيضاً فلم لا يسمي هذا العلم بعلم الإحسان أو علم القرب، بدل أن يسميه التصوف مثل الآخرين كما فعل ذلك حديد من أكابر الصوفية.

ولقد قام الشيخ التهانوي الجليل ـ رحمه الله ـ نظراً إلى أهمية تجديد التصوف وضرورة تعليمه وإبانة حقيقته ـ بتأليف رسائل كبيرة وصغيرة مفردة لهذا الموضوع وغير مفردة وبمواعظه وملفوظاته[1]. وعرض في تأليفاته المختلفة لهذا الموضوع بإيجاز وبتفصيل وبعناوين مختلفة وتعابير منوعة في ذكر التصوف وشرحه شرحاً مبسوطاً فكتب في توطئة رسالة له اسمها (حقيقة التصوف).

---

[1] – الملفوظات نوع من كتب المتأخرين يجمعون فيها كلمات شيوخهم بفوائدهم المنثورة.

إن الأعمال التي أمرت الشريعة الإسلامية بإتيانها أو نهت عنها هي من نوعين، بعضها تتعلق بظاهر الجسد وبالحقائق المعروفة العامة مثل الشهادة باللسان والصلاة والصيام، والحج والزكاة وخدمة الأبوين وهي تسمى مأمورات، ومثل التكلم بكلمة الكفر والإتيان بأعمال الشرك والزنا والسرقة وأكل الربا والإرتشاء وهي تسمى منهيات، وأمرت بجوارها بأعمال تتعلق بالباطن وهي الإيمان والتصديق والعقائد الصالحة والصبر والشكر والتوكل والرضا بقضاء الله والتسليم والإخلاص له ومحبة الله ورسوله وما سواها من الأعمال الحسنة الأخرى وهي مأمورات وفضائل أيضاً، أما العقائد الباطلة وعدم الصبر والكفران والرياء والكبر والعجب وغيره فهي المناهي والرذائل التي نهت عنها الشريعة الإسلامية.

تجد في القرآن ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[1]. وتجد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ﴾[2]. وتجد ﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ﴾[3]. وكما تجد في موضع من القرآن ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[4] و﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[5] تجد كذلك في

---

[1] - سورة البقرة، الآية: ٤٣ و٨٣ و١١٠. وفي سورة النساء، الآية: ٧٧. وفي سورة الحج، الآية: ٧٨. وفي سورة النور، الآية: ٥٦. وفي سورة المجادلة، الآية: ١٣. وفي سورة المزمل، الآية: ٢٠.

[2] - والآية بكاملها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠].

[3] - والآية بكاملها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[سورة البقرة، الآية: ١٧٢].

[4] - سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

[5] - سورة المائدة، الآية: ٥٤.

موضع آخر: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[1] و﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[2]. وكما تجد في موضع: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾[3]. تجد في موضع آخر ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾[4]. وكما تقرأ لوماً وتقريعاً على تارك الصلاة ومانع الزكاة تقرأ كذلك ذماً وإنكاراً على صاحب الكبر والعجب، وكل ذلك يوجد في الأحاديث أيضاً فحينما نرى فيها أبواباً لبيان الصلاة والصيام وشرح أحكام البيع والشراء والزواج والطلاق، ترى أبواباً أيضاً في ذم الرياء وطلب السمعة والكبر وغيره.

لا يمكن لامرىء مسلم أن ينكر أن الأعمال الباطنية تعادل الأعمال الظاهرة بكونها أحكاماً إلهية أيمكن أن يقر الرجل في آية: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بأنها مكونة بفعل الأمر وصيغته ولا يقر بعد ذلك في كلمة (إصبروا) و(اشكروا) بنفس الفعل ونفس الصيغة؟! وهل يمكن أن يقول: أن ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[5]. يدل على شرعية الصوم ولا يدل ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[6] على أن المحبة مأمورٌ بها، بل لو حققنا النظر في هذا الباب لعلمنا أن الأعمال الظاهرة هي نفسها لم تفرض إلا لتخدم الإنسان في تزكية باطنة، ولعلمنا أن تزكية الباطن هي غاية في محلها وهي مستوجبة لنجاة الرجل في الآخرة وأن فساد الباطن وقذارته يستوجبان الهلاك في الآخرة فإن

---

[1] - والآية بكاملها: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[المائدة: ٥٤].

[2] - سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

[3] - سورة النساء، الآية: ١٤٢.

[4] - والآية بكاملها: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[النساء: ١٤٢].

[5] - سورة البقرة، الآية: ١٨٣.

[6] - سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

الله سبحانه قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[1]. وقال: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]. تدل الآية الأولى على أن تزكية الباطن مستوجبة للفلاح وتدل الآية الثانية على أن سلامة القلب إذا فقدت من إنسان لم ينفعه مال ولا بنون.

إن الإيمان والعقائد التي يتوقف عليها قبول الأعمال إنما هي من عمل القلب، ومما لا شك فيه أن الأعمال الإنسانية كلها هي وسيلة مجردة وليست كمال الدين وبذلك عرفنا أن الغاية الوحيدة للإنسان هي تزكية القلب وأن القلب في محل الملك بين رعيته وجنوده، وأن الجوارح في محل الجنود والعبيد، فإذا صلح الملك تبعته في صلاحه أتباعه وطاوعته «**أَلاَ وإنَّ في الجَسَدِ مُضغةً إذَا صَلُحت صَلُحَ الجسدُ كُلُّه وإذا فَسُدَتْ فَسُدَ الجَسَدُ كُلُّه أَلاَ وهيَ القلب**»[3]. تثبت صحة ذلك في كل حين وذلك بأن قلب الإنسان إذا انطوى على شيء غلب عليه واستعبد جوارحه لخدمته فجعل العين تنظر له والأذن تسمع له واليد تتناول ما يشتهيه، والقدم تريد المشي إلى ما يريده سواء كان ذلك الشيء شراً أو خيراً، وليس ذلك إلا لأن هوى القلب هو الذي يبعث هذه الجوارح على إتيان هذه الأعمال.

هؤلاء رجال الدنيا ينغمسون في أعمالهم إنغماساً لا يدعهم يسمعون حتى صوت الأذان الذي يدوي في الأرجاء، وكذلك الذين يستديمون في ذكر الله والتأمل فيه يغرقون في ذلك فلا ينقطعون عنه لحظة ولا يلفتهم شيء دونه، فهذا هو الاستغراق، حينا يكون للدنيا، وحينا يكون في أمر الدين.

---

[1] - سورة الشمس، الآية: ١٠.

[2] - سورة الشعراء، الآية: ٨٩.

[3] - قد سبق تخريج هذا الحديث على صفحة: ٤٩.

خطأ جسيم:

إن من الخطأ والالتباس العظيمين ما وقع فيه بعض كبار العلماء بأن حسبوا طرق التزكية السائدة اليوم هو التصوف بعينه، ولذلك دخل الإشراقيون على وجه العموم ورهبان البراهمة على وجه الخصوص في زمرة المتصوفة، وهذا الالتباس الخاطىء لم يدخل في عقول الناس إلا من الكلمة المعروفة الذائعة أن (الصوفي لا مذهب له) فتحرر التصوف بذلك من قيد الإسلام وجاز له أن يتحد إذا شاء مع كل عقيدة ودين غير الإسلام، قال أصحاب هذا الفكر الخاطىء أن التصوف هو أسمى من أن يتقيد بظواهر الأعمال، وأنه الزعم فاسد لا حقيقة له ولا نصيب له من الصحة، وقد استنكره شيخنا الشيخ أشرف علي التهانوي قائلاً: ليست كل تزكية تصوفاً، إنما التصوف هو التزكية التي تخضع لأحكام الشريعة الإسلامية وتحصل باتباعها والامتثال لها، وإنما هي التي يصلح بها للمرء أمر آخرته ويدخل صاحبها تلك الجنة التي وعد بها المتقون، أن الله تعالى قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾[1]. وذلك باتباع الشريعة الإسلامية لا بمخالفتها، أما الرياضات الروحية والمجاهدات البدنية الكثيرة التي يأتيها رهبان البراهمة وغيرهم فليست من التزكية والتصوف في شيء مهما قيل عنها ومهما سميت بأسماء التصوف، ولن تحمل تلك الأسماء والألقاب معنى ولا حقيقة ولا شأن لها بالتصوف، إنها ألفاظ مجردة، ومردودة عند الله غير مقبولة.

التزكية المرضية:

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نجعل للتزكية قسمين:

أحدهما: التزكية المرضية.

---

[1] - سورة الشمس، الآية: ١٠.

وآخرهما: التزكية المردودة.

وقد ضرب له الشيخ التهانوي مثالاً وقال:

نغسل المرآة القذرة بالماء الصافي الخالص فتصبح رائقة لماعة، فتعجب رائيها لكنها إن غسلت بالبول زال عنها القذارة والوسخ الملموسان وصفا مرآها بدون شك لكنها لن تتطهر ولن تعجب الناس ولن تروقهم بل إنما تكرهها النفوس وتتقذر منها، فلذلك لا يمكن لرجل ما أن يحرز رحمة الله وينال الفلاح يوم الآخرة، وحياته متعارضة مع الشريعة الإسلامية، إن التصوف في لفظه ومعناه هو نفس ذلك العلم الذي إذا عمل به رجل جلا قلبه وصفت نفسه وعمّت التزكية في قلبه فكانت أداةً صالحة لرفع درجاته عند ربه.

الحب وشرطه:

أما الحب الذي هو عنصر هام من عناصر التصوف والذي تجد مكتبة التصوف مليئة بذكره والحديث عنه فلا ريب أنه أسمى الخصائل القلبية وأكرم أحوال النفس لكنه لا يصح أيضاً ولا يُقبل عند الله إلا إذا كان تابعاً للسنة السنية وخاضعاً للشريعة السمحة.

ويُعدُّ هذا الحب من خير خصائل القلب وأهم فضائله، وأنه أيضاً لا ينشأ ولا يحصل إلا بعد الامتثال لأوامر الله واتباع رسوله، أما الحب الذي خلا من الخضوع للشريعة الإسلامية فلا قيمة له عند الله، ولن يقبل لديه أبداً لأن الله يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

أما جهلة الصوفية فيستندون دائماً إلى الجملة الشائعة (الصوفي لا مذهب له) ويشرحونها شرحاً لا يتفق إلا مع ميولهم ورغباتهم فحسب، ويظنون أن تزكية القلب وإن كانت غير خاعة للشريعة الإسلامية هي أرفع درجة من

---

[1] - سورة آل عمران، الآية: ٣١.

العبادات والأعمال الظاهرة مثل الصلاة والزكاة وغيرهما، وأن هذه الأعمال أحط منزلة وأقل قيمة من طرق التزكية السائدة المشهورة.

أما الإسلام بالعكس من ذلك فلا يعتبر من صفات القلب وخصائله ولا يستحسن ولا يقبل إلا تلك الخصائل التي تنشأ وتحصل من المواظبة على الصلاة والصيام والعبادات المشروعة الأخرى والامتثال للأحكام المأمور بها في الشريعة الإسلامية.

وترمز الآية الكريمة ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1]. إلى أن الخشوع الذي هو من صفات القلب والذي يأتي بالفلاح يوم الآخرة هو ذلك الذي يكون في الصلاة ويختص بها فكيف يمكن إذن للصوفي الذي لا يقيم الصلاة ولا يأتي بها أن يحرز هذا النوع من الخشوع ويكسب به فلاح الآخرة وسعادتها.

وقس على ذلك جميع العبادات مثل الزكاة والصدقات والحج والصيام وغيرها فإنها تشبه الصلاة في ذلك القانون فإنه لا تجدي هذه العبادات نفعاً أيضاً إلا إذا كانت مطبوعة بتلك الحالة القلبية التي ذكرها القرآن، أنها تلزم وتجب لصحة الصلاة وقبولها.

وخلاصة القول أن امتثال الشريعة الإسلامية واتباع الرسول عليه الصلاة والسلام هما أهم الأعمال وأوجبها، وأن الذي لا يخضع ولا يستسلم لها ولا يحافظ على إكمالها لا يمكنه أن يبلغ رضا الله ويحرز ثوابه وجنته ولا شبهة أن الجنة ورضا الله سبحانه وتعالى هما غايتان منشودتان وهدفان جليلان لكل مسلم، أفليس التصوف باطلاً إذا تحرر من الخضوع لأحكام الشريعة ومن السعي للعمل بها كاملة، وكما أن كرامات الأولياء لا تصح ولا تقبل إلا إذا

---

[1] - سورة المؤمنون، الآية: ٢.

كانت صادرة من رجل ورع تقي بار كذلك التصوف لا يصح ولا يقبل عند الله إلا إذا كان في رجل ورع تقي عامل بالشريعة خاضع لها، ولا بدع في ذلك فقد كان الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وهم سادة الأولياء وأئمة الأبرار يواظبون على جميع العبادات من صلاة وصوم وحج وزكاة وجهاد وتلاوة للقرآن، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر وغير ذلك من الأعمال الصالحة ويداومون عليها، ولذلك كانت قلوبهم صافية ونفوسهم زاكية لأنهم قاموا بهذه الأعمال كلها أحسن قيام، فرضي عنهم الله سبحانه وقال في كتابه عنهم: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾[1] فثبت أن التصوف ليس إلا تزكية للباطن مع الامتثال للشريعة الإسلامية والاستسلام لها كل الاستسلام.

حدوث مصطلح التصوف[2] وتدوينه كفن:

أما اسم التصوف فهو مثل أسماء أخرى لعلوم وفنون إسلامية شتى لا يختلف عنها في شيء، فكما أن لكل من علوم التفسير والحديث والفقه وغيره اسماً ولقباً كذلك لعلم التصوف اسم ولقب، كانت العلوم كلها غير مميزة في معالمها وغير محددة في أشكالها في عصر الرسول ﷺ وإنما ميزها وقرر حدودها ومعالمها ووضع أسماءها علماء الإسلام في عصر تلا عصر الرسول عليه الصلاة والسلام وذلك لأنهم حينما درسوا الشريعة الإسلامية في أنحائها المختلفة وخاضوا في أعماقها وجدوها تحتاج إلى تقسيمها وتوزيعها بين أجزاء مختلفة ليسهل أمر دراستها ويمكن الإحاطة بها إحاطة متزنة متينة وكانوا يبغون بذلك تأييد دينهم وتبليغه ففعلوا ذلك، ومن هنا تحددت هذه العلوم وتوزعت في هذه

---

[1]- سورة المائدة، الآية: ١١٩.

[2]- ترجع إلى مقدمة العلاّمة أبي الحسن الندوي للاطلاع على هذا المصطلح لهذا الكتاب، ص١٧-١٨.

الأقسام المعروفة وتسمت بأسمائها، كذلك كان التصوف أيضاً في ذلك الوقت في مرحلة بدائية وغير مميز ولا مبين لم تحدد معالمه ولم يسم باسم خاص بل كان داخلاً في علوم مختلفة متغلغلاً فيها تشتمل عليه النصوص القرآنية والأخبار النبوية، وكان الناس يستفيدون به حسب ما يحتاجون إليه وبهذه الاستفادة والاشتغال المتواصل به لم يزل رصيده يزداد وثروته تفيض بما أضاف إليه مشايخ الإسلام والربانيون من أحوالهم وكيفياتهم النابعة من مجاهداتهم ومراقباتهم وعبوديتهم الصادقة، حتى اقتضى الأمر أخيراً أن يحددوا معالمه ويجعلوه في علم بعينه ففعلوا ذلك وأسموه بكلمة (التصوف) وتزكية الباطن وقرروا له طريقة تعليم وتربية خاصة، وكان من رأيهم أنها خير طريق وأسرعها للبلوغ إلى غاية تزكية النفس وتربيتها.

وكما أن علماء الإسلام توزعوا في شتى الجماعات العلمية لاختصاصاتهم في العلوم الإسلامية كل يعلم بعلمه حتى وصل بعضهم إلى درجة الإمامة والنبوغ في الناحية التي اختص بها فعرف بذلك وأشير إليه بالبنان وخلد ذكره على صفحات التاريخ وأثنى عليه أقرانه ومن عرفوه معرفة جيدة حتى قال الإمام الشافعي وهو إمام في مذهبه الفقهي حينما عرف الإمام أبا حنيفة وفقهه في الدين: (النَّاسُ في الفقهِ عيالٌ على أبي حنيفة)[1].

---

[1] - وهناك أقوال العلماء في الإمام أبي حنيفة غير قول الإمام الشافعي هذا، كقول وكيع بن الجراح شيخ الإمام الشافعي: كان أبو حنيفة عظيم الأمانة، وكان يؤثر رضي الله تعالى على كل شيء، ولو أخذته السيوف في الله تعالى لاحتملها. وكقول الإمام أحمد بن حنبل فيه: إن أبا حنيفة من العلم والورع والزهد وإيثار الآخرة بمحل لا يدركه أحدٌ، ولقد ضرب بالسياط ليلي للمنصور فلم يفعل، فرحمة الله عليه ورضوانه. وكقول الإمام أبي يوسف فيه: كانوا يقولون: أبو حنيفة زينه الله بالفقه والعلم، والسخاء والبذل، وأخلاق القرآن التي كانت فيه.

=

وعد علماء الإسلام الإمام البخاري غاية في علم الحديث وحجة فيه، ولا يزال البخاري في مكانته عند المسلمين اليوم، أقول فكما نبغ في هذه العلوم واختص بها رجال وعدوا بذلك رجال الفن وأئمته كذلك نبغ في علوم الباطن رجال عظام قاموا بتزكية الباطن وتربية النفس الإنسانية، واتخذهم الناس قدوة في هذه الناحية وجعلوهم أئمتهم فيها وأولئك أمثال الشيخ عبد القادر الجيلاني[1] والشيخ بهاء الدين[2]، والشيخ معين الدين الجشتي[3]، والشيخ شهاب الدين السهروردي[4] رحمهم الله ومن قبلهم من أمثال الجنيد البغدادي[5] والشيخ شبلي[6] وغيرهما، ولقد وسمت مكانتهم وعلت منزلتهم

= وكقول الإمام سفيان الثوري فيه: ما مقلت عيناي مثل أبي حنيفة.

وكقول يحيى بن سعيد القطان (إمام الجرح والتعديل): إن أبا حنيفة ـ والله ـ لأعلم هذه الأمة بما جاء عن الله ورسوله.

[1] – هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله الجيلاني، مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد والمتصوفين، برع في أساليب الوعظ، توفي ببغداد عام ٥٦١هـ، ومن كتبه: الغنية لطالب طريق الحق، والفتح الرباني، والفيوضات الربانية.

[2] – هو الشيخ بهاء الدين زكريا، أحد كبار الصوفية لعصره وُلِدَ في مدينة، ملتان تتلمذ على الشيخ شهاب الدين السهروردي في بغداد، توفي عام ٦٦١هـ.

[3] – هو الشيخ خواجه معين الدين الجشتي، من أشهر الصوفيين في الهند، ومؤسس الطريقة الجشتية فيها، توفي عام ١٢٣٦م.

[4] – هو عمر بن محمد بن عبد الله بن عموية، أبو حفص شهاب الدين القرشي السهروردي، أحد فقهاء الشافعية، وكبار الصوفية، ولد في سهرورد، وتوفي في بغداد عام ٦٣٢هـ ومن كتبه: عوارف المعارف، وجذب القلوب إلى مواصلة المحبوب، ونخبة البيان في تفسير القرآن.

[5] – هو الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي، أحد أعلام الصوفية ومن العلماء بالدين، وتوفي ببغداد عام ٢٩٧هـ، هو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد، قال ابن الأثير في وصفه: إمام الدنيا في زمانه.

[6] – هو أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي، بغدادي المولد والمنشأ، صحب الجنيدَ ومن في =

في التصوف ونبغوا في ذلك نبوغاً تاماً، وإنما يجب أن تتبعهم في هذا الباب وأن نستنير بأعمالهم ونصائحهم ونتخذهم قدوة وأئمة في التصوف والتربية الباطنية.

إن الاتصال بمشيخة التصوف ليس شرطاً للاستقامة في الدنيا والفلاح في الآخرة بيد أن الغاية المطلوبة والمنزلة التي تدعى بالكمال الديني لا تحصل بدون الملازمة والمصاحبة للبارعين في الفن ونبغائه من الذين يترسمون خطى أئمتهم من رجال هذا الفن.

وكما أن العلوم الأخرى التي فرعها العلماء من الكتاب والسنة عرفت بأسماء خاصة كعلم الفقه وعلم الحديث بحيث إذا درس الطالب كتاب الهداية أو غيره من كتب الفقه قيل له أنه درس الفقه مع أنه إذا درس كتاباً في الحديث لم يقولوا أنه درس الفقه ولو أن الفقه بمعناه العام هو معرفة النفس بما لها وما عليها فمن هذه الناحية اشتمل الفقه على علوم كثيرة أمثال الحديث والتفسير والكلام فكذلك إذا سلك امرؤ ما في طريق دله عليه مشيخة المسلمين وهداه إليه المتخصصون في أعمال القلب والباطن وبذل في ذلك من وقته وسعيه، قيل عنه أنه تعلم التصوف وأخذه وأنه صوفي مع أن التصوف أعم من ذلك فإنه يشتمل على الصلاة والصيام وغيرهما من العبادات الأخرى أيضاً لكنه لا يسمّى تصوفاً إلا تلك الخطة الخاصة ولا يسمّى متصوفاً إلا العامل بها والسالك عليها.

مهمة التصوف في الحياة:

والغاية من هذا البحث هو شرح حقيقة التصَوف المصطلح أما عمله ومهمته في الحياة فهو تطهير الباطن من رذائله وتحليته بالفضائل والسجايا الصالحة وأما غايته فهي إيجاد الإنابة إلى الله سواءٌ كان هذا الإيجاد بطرق

= عصره من العلماء، وكان شيخ وقته حالاً وظرفاً وعلماً، مالكي المذهب، توفي ببغداد عام ٣٣٤هـ، (الرسالة القشيرية ص٤١٩. طبع دار الخير. دمشق).

أخرى غير التصوف مما لا يخرج من الشريعة.

والحاصل من ذلك أن الدين إنما هو محاولة للوصول إلى الفلاح الأخروي واكتساب رضا الرب سبحانه وتعالى، ولّما كانت كل ذرة لهذا الكون الذي صنعه الله ـ وهو الظاهر والباطن ـ مظهراً لربه من كلتا الناحيتين ناحية الظهور وناحية البطونة أو بلفظ آخر من الناحية الجسمية والناحية القلبية، تعلقت العلوم الدينية الظاهرة بظواهر الأعمال وأحكامها الشكلية أو بتصحيح الظاهر وتحليته، وتعلقت العلوم الدينية الباطنية أو علم التصوف بإصلاح الباطن وتحليته وحيث علمنا أن علاقة الكمال والأصالة هي بالكيفية أكثر مما هي بالظاهر علمنا أنه لا يمكن الوصول إلى الكمال ولا يمكن العثور على الحقيقة بدون العمل بطريقة التصوف وإيثار الحياة الصوفية واحتضانها.

أهمية اللُّباب:

أقول ـ ولا أبالي بسخط أهل الفسق والظواهر ـ أن اللباب هو اللباب أوّلاً وأخيراً لا يتغير ولن يتغير عن حقيقته مهما يقال عنه ومهما يعارضه المعارضون وأنه لا يوجد إلا في جوف القشور وفي دواخل المظاهر، فيجب أن يعلم المتصوف الذي لا يؤمن بغير اللباب أن القشر هو الذي يحمي اللباب والباطن ويصونه ولا يمكن أن يفصل أحدهما عن الآخر.

قال رسول الله ﷺ: «**اعبُدِ اللهَ كأنَّك تَرَاهُ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإنَّهُ يَرَاكَ**»[1].

فأخبرنا بضرورة الإحسان في العبادة، ومما لا شك فيه أن العمل لا يبلغ من الصحة والجودة مبلغاً عالياً إلا إذا خلا من كل نقيصة وقصور، خذ الخبز مثلاً أنه لا يبلغ درجة الجودة بحيث يسيغه آكله ويستطيبه طالبه إلا إذا خلصت مادته وأجيد

---

[1] – قد سبق تخريجه في صفحة: ١٨.

طبخه كذلك العبادة لا تصح ولا تحسن إلا إذا خلصت من النقيصة والقصور، ومما يخطئون فهمه ولا يدركون كنهه هو صور العبادات وأشكالها الظاهرة إذ يعدونها ويحسبونها هي العبادات نفسها وهي عندهم حركات سجود وقيام وركوع دون النفوذ إلى داخل هذه الحركات، ويكتفون بالظواهر التي رتبها وحددها الفقهاء، لاشك أن ما رتبوه صحيح معقول وفي محله من الصدق والصحة لكن ليس معنى ذلك أن نقصر هذه العبادات في صورها ومظاهرها، دون أن تتعدى إلى أكناهها وإلى معانٍ مضمونة فيها.

الشريعة بين فقهين:

لو درسنا الشريعة الإسلامية دراسة دقيقة لوجدنا أن هناك فقهاً آخر مع هذا الفقه الظاهري المعروف، وهو يدور حول لباب الشريعة ويبحث في صميمها ويقال له التصوف وهو لا يخرج عن أبواب الفقه الظاهري أيضاً، فلو بحثنا فيه من هذه الناحية لوجدناه محدداً مثل أبواب الفقه الظاهري الأخرى من صلاة وزكاة وغيرهما، وحيث أننا نقسم العبادات الظاهرة إلى أبواب وأقسام من صلاة وصيام وزكاة ونسميها أبواباً للفقه لأنها تتفرع منه فما الذي يدعو إلى أن نرى مستحيلاً جعل التصوف كذلك باباً منه كأبوابه الأخرى، ولقد أفرد كثيرٌ من العلماء أبواب الفقه العامة من الصلاة وغيرها بالبحث والذكر وجردوها من الفقه ولم يستدع ذلك فصل تلك الأبواب عن الفقه، فكذلك التوحيد والإخلاص أو الكبر والتواضع والعجب وغيرها من أخلاق محمودة أو مرذولة أفردت بالبحث وذكرت مجردة عن الفقه فكيف أصبحت خارجة من علم الفقه وأبوابه.

التوسع في الدراسات والإخلال بالعمل:

دع الفقه الظاهري وانظر في القرآن والحديث، أفلا تجد فيها أحكام الفقه الباطني وأوامره مع أحكام الفقه الظاهري وأوامره جنباً بجنب بل ألا تجده أكثر منه وأقوى في كثيرٍ من مواضعها، لكن المصيبة هي أن العلم هو نفسه قد أصبح غاية ومقصوداً لذاته لدى كثيرٍ من العلماء وفي مدارسهم ولذلك لا تهمهم ولا تشغل بالهم إلا الكتب وكل ما تحتوي عليه فيدور حولها شغفهم واهتمامهم، يجرون فيها الامتحانات ويمنحون السابقين فيها الجوائز ويعطون الفائزين فيها الشهادات ويرغبون المتعلمين في تركيز دراساتهم عليها، وقد انفتح للعلم الديني باب الجامعات أيضاً فبدأ المتعلمون يتخصصون في نواحيه المختلفة واتخذوه بذلك ذريعة إلى المنافع المادية فضاع العمل وضاع الإخلاص ولما تغير الشكل وتشوّه المظهر فما بقاء المعنى واللب إذن؟!.

قال الشيخ: إن الناس يهتمون بتحصيل العلم ويعتنون به دون العمل به ويجتهدون في أن يكملوا دراسة الكتب وما يتعلق بها من طرق تحصيل العلم ولا يتبعون ذلك بالعمل على أن معرفة شيء والوصول إلى مجرد علم لا يحمل فضلاً وكرامة كبيرة فإن الشيطان عالم كبير لكنه يهدي بعلمه إلى طرق الضلال ويجر أكثر الناس إلى معصية الله، إنه حوى علم التغيير وأحاط بعلوم الشريعة الأخرى ولكنه يستعين بهذه العلوم في إضلال الناس فلو لم يكن يعلمها لما عرف كيف يضل أولئك الناس الذين يحيطون بهذه العلوم ولكن الشيطان إذ لم يعمل بعلمه، ولن يأتمر بأوامر الله التي تستنبط من هذه العلوم لم ينفعه علمه ولم ينتفع بعلمه غيره كذلك وقد جاء في الحديث: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ القِيَامَةِ عَالِمٌ لَمْ يَنْفَعَهُ عِلْمُه**»[1]. ما معناه: أن العلم

---

[1] - رواه الطبراني في المعجم الصغير (١/ ١٨٢ - ١٨٣) وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٨٥) ورواه البيهقي في الشعب (١٧٧٨).

الذي لا يتلوه عمل يكون سبباً إلى دخول النار.

فالحاصل: أن العمل قد قلَّ اليوم وندر وأنه لا يوجد في أكثر الأحيان إلا صورة لا حقيقة فيها أو جسماً لا روح فيه وقد أصبح دأب الناس أن يرتجلوا العمل وبصورة غير مستقيمة رغم أنه يجب عليهم أن يحسنوه ويزينوه.

من معاني الإحسان:

خذ الصلوات مثلاً فإنها لم تبق إلا قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً وهي حركات خاصة فرضت في الصلاة والناس يزعمون إذا أتوا بهذه الحركات أنهم حقّقوا الواجب عليهم من صلاة حتى أن حملة العلم الديني أنفسهم قد وقعوا في هذا الخطأ، وذلك أمر جسيم يجب التفطن له، فقد جاء في القرآن ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾[1]. تشتمل الآية على مدح الصلاة مع الخشوع فكيف يجوز للناس أن يجردوا الصلاة عن الخشوع ويروها حكماً شرعياً ولا يروا الخشوع كذلك مع أنه يظهر من الآية أن الجانبين كليهما من صلاة صورية والخشوع فيها واجبان مهمان والخشوع يزين العبادة ويرفع درجتها وليست درجة الإحسان في التصوف إلا مستقاة من هذا الجانب العملي:

ونواحي الإحسان ثلاث ضرورته وحقيقته وطرق تحصيله

وقد علمنا سابقاً أن الإحسان يحصل من الخشوع وترمز آية ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2]. إلى أنه مقصود وغاية وأما ضرورته فتتجلى من قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ

---

[1] - سورة المؤمنون، الآية: ٢.

[2] - سورة المؤمنون، الآية: ٢.

﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾[1]. تشير الآية الكريمة مع ذكر الله إلى أهمية الخشوع فيه وضرورته، وذكر الله يتضمن جميع العبادات، والوعيد الذي يحصل من هذه الآية يترتب على انتفاء الخشوع وهو تشبيه أولئك الذين لا يوجد فيهم الخشوع باليهود والنصارى والتحذير من ذلك حتى لا تتفق أعمال المسلمين مع أعمال الكفار، ونتيجة كل ذلك كما ظهر من الآية.

هي قسوة القلب حيث قيل: ﴿فقست قلوبهم﴾ وهذه القسوة القلبية من أبغض الأشياء إلى الرجل المسلم.

إذ جاء في القرآن ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ ما معناه: إن القلب القاسي بعيد من الله قاص.

أحكام إصلاح الباطن:

وقصدنا من هذا التفصيل والتدقيق هو أن نقرر أن أحكام إصلاح الباطن وتزكيته مرتبة منسقة كذلك دوّنها فقهاء الباطن وهم شبيهون في ذلك بفقهاء العلم الظاهري الذين استنبطوا من القرآن والحديث الأحكام الشرعية المختلفة والأعمال الظاهرة المتنوعة وجعلوها علوماً مضبوطة مقررة إنما نريد أن نقرر هنا أن علوم الباطن هي كذلك جزء من الشريعة الإسلامية مثل العلوم الظاهرة بعينها وهي تنبع من صميم الشريعة كما أن العلوم الظاهرة تنبع من صميمها ولذلك لن يكون الرجل الذي يجهل الفقه الباطني ويكرهه رجلاً عادياً يبدي جهله لعلم ما ويكرهه بل إنما يكون رجلاً يحرم نفسه حقيقة الدين ولبابه ويمنع نفسه من الكمال الديني ودرجة الإحسان.

---

[1] - سورة الحديد، الآية: ١٦.

[2] - سورة الزمر، الآية: ٢٢.

الحاجة إلى التربية وإصلاح الباطن:

ولأجل ذلك يجب أن يدرس الناس كتب التصوف مثل كتاب: قوت القلوب لأبي طالب المكي[1]، وكتاب الأربعين للإمام الغزالي[2] والعوارف لشهاب الدين عمر السهروردي[3] كما يدرسون كتب الفقه الظاهري من «كنز الدقائق» و«الهداية» وغيرهما، ومن الظلم والجور العظيمين أن تنفق في تحصيل العلم الظاهر سنوات عديدة ولا تبذل لإصلاح الباطن عدة أشهر لقد كان واجباً أن نبذل ولو مدة قصيرة في إصلاح الباطن ومعرفة طريقه بأن يلتمس الطالب رجلاً صوفياص فاضلاً نزيهاً في أخلاقه وعوائده فيصحبه ويشاهد حياته مفصلة ويدرس سيرته، يراه في عبادته ويراه في غضبه ويراه في وداعته ويرى هل يؤثر فيه التملُّق والخديعة ويدرس جميع صفاته وأخلاقه حتى يتذكر هذه الأخلاق عندما تواجهه مناسباتها في حياته هو نفسه فيتمثلها ويتأسّى فيها.

إنك ترى كثيراً من الزعماء المسلمين سواءٌ كانوا قوميين أو سياسيين لم يحصلوا علم الدين بتاتاً وإن حصّله أحدهم فلم يتربّ على يد مربٍّ مصلحٍ فاضل ولذلك تجد هؤلاء الزعماء أنهم مع تظاهرهم بالعناية بالإسلام وأهله تجار الدنيا وباعة المادة، الدنيا لديهم كالسلعة يساوم فيها ويتاجر بها لكن

---

[1] - هو مكي بن أبي طالب حموش بن محمد بن مختار الأندلسي، أحد كبار المقرئين والعلماء بالتفسير والعربية. ولد في قيروان، وطاف في بعض بلاد المشرق، توفي بقرطبة عام ٤٣٧هـ. له كتب كثيرة في موضوعات مختلفة.

[2] - هو أبو حامد محمد الغزالي، أحد فلاسفة الإسلام وعلماءه، لقب بحجة الإسلام، وهو تلميذ إمام الحرمين أبي المعالي الجويني. توفي بطوس عام ٥٠٥هـ. من كتبه: إحياء علوم الدين، والمنقذ من الضلال، وتهافت الفلاسفة، والاقتصاد في الاعتقاد، ومقاصد الفلاسفة.

[3] - هو عمر بن محمد بن عبد الله بن عمويه، أبو حفص شهاب الدين القرشي السهروردي. قد سبقت ترجمته في صفحة: ٥٩.

بدون صراحة يكون ذلك مقنّعاً بغلاف الدين ويجري ذلك في مجالات مختلفة من علمية وغير علمية في الحياة.

لئن كان مجرد العلم يكفي لعلو مكانة الرجل وتقربه إلى الله ولإصلاح الناس وإكمال الدين لما كان للصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مكان سام ودرجة عالية في الإسلام ولما كانت لهم فضيلة بالنسبة إلى من جاء وآمن بعدهم من كبار علماء الأمة لكن شتان بينهما في علو الدرجات وسمو المكانة، أن فضل الصحابة وجلالة أقدارهم على من أتوا من بعدهم حقيقة لا شبهة فيها وأمر لا جدال فيه مهما بلغ المتأخرون من الفضل وغزارة العلم، والشهرة في الفقه والحديث، وإن كانوا أولياء الله وأقطاب الدين ليس الفرق بينهم إلا لأن أولئك الصحابة أفنوا نفوسهم في صحبة أعظم رجل وأكمل إنسان في الوجود، وهذا يظهر من تلقيهم واستهتارهم بالصحبة فقيل لهم صحابة الرسول ﷺ وهذا سر عظمتهم وسموهم الذي لا يضاهى.

ثم إن هؤلاء الزعماء حملوا ألوية مختلفة في اللون متعددة في الوضع وشكلوا جماعات مختلفة ودعوا إليها المسلمين باسم الإسلام وكان يجب على هؤلاء الزعماء أن لا ينسوا أن نعيقهم ودعواتهم بهذا الطريق لا تكون إلا كصدى في الجبال لا تجد لها أذناً صاغية ولا سمعاً واعياً ولن تكون إلا هراء لا روح فيه ويجب أن يعرفوا أنهم في حاجة إلى ترجيح جانب القلب والباطن واختيار طريق التصوف ولا غرو في ذلك إذ الآية التي يتلوها كل واحد منهم في بث حركته ودعوته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[1]. لا توحي إلا إلى هذه الحقيقة، يعني أن الرقي والتقدم المادي والسياسي والظاهري لا يتأتّى حسب قانون الكون والطبيعة أو سنة الله بدون تغيير الباطن

---

[1] - سورة الرعد، الآية: ١١.

وإصلاح النفس حيث ان كلمة: ﴿حتى يغيروا ما بانفسهم﴾ لا معنى لها إلا التحول الباطني والقلبي.

والماديون يؤمنون بهذا كذلك لكن بأسماء مختلفة وبطرق مغايرة لطريقتنا. إذ يعتقدون بأن الجنود المسلحة بأحدث طراز، المدربة بأقوى طرق إذا فسدت أخلاقها فلا تجديها أسلحتها ولا ينفعها تدريبها:

وليس بعامر بنيان قوم إذ أخلاقهم كانت خراباً

الدنيا لا تحصل كذلك لغير المتصوف

يجب أن يعرف المسلمون إذا كانت قلوبهم مهيأة لفهم ذلك أنه لا حظَّ لهم من الدنيا كذلك إذا لم يتمكن في أعماق نفوسهم التصوف الذي معناه الإيمان الخالص فضلاً عن الحظوة في الدين، ويوجد تفصيل ذلك في كتب الشيخ.

وفي الزمن الذي كان المسلمون فيه حاملين حقيقة الإيمان وكانوا أصحاب حظوة وفضيلة في الدين والدنيا معاً لم يكن لديهم في ذلك الزمن من أسباب المادة ووسائل التقدم الظاهري كبير شيء وإنما كان يكفيهم في الأحوال التي يحتاجون فيها إلى القوة والنصر إجتماع قلوبهم وسلامتها وصمودها في وجه الأعداء في الوقت الذي كانت قلوب الأعداء شعاعاً متفرقة حيث يقول القرآن: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[1].

تشير الآية إلى أن العقل يحمل أيضاً على إجتماع القلوب وإخلاص الباطن وهذا هو الذي ينفع ويجدي لا مجرد الوحدة الظاهرة والوفاق الشكلي.

---

[1] - سورة الحشر، الآية: ١٤.

لا صلاح بغير التصوف:

فالتصوف لا يمكن أن يصلح بغيره الأمر لأن أول شيء في طريق التصوف هو تعليم التواضع وعنوانه في التصوف (الفناء) يرى الناس أن هذه المرحلة من آخر مراحل التصوف لكنها بالعكس من ذلك أول مراحله، والفناء درجات، ولا يقدر أحد أن يسير في الطريق خطوة واحدة بدون اختيار (الفناء) مهما رتّل أوراداً وأذكاراً ومهما أطال ذلك. يقولون أن الجلوس في خلوات العبادة لا طائل تحته ولا فائدة منه وإنما يجب الظهور والخروج إلى العالم فأقول: أن الخلوات هي التي يتدرب فيها الرجل ليستطيع أن يخرج إلى الميدان، ومثل ذلك مثل المذياع يعمل يعمل في حجرة ينفث من فمه ما يثير به العالم كله ويزلزله، وأذكر بهذه المناسبة أن سيدنا سعد بن أبي وقاص كان قائداً في حرب[1] وكان يعاني من دمّل منعه من الحركة والعمل فاضطر إلى الجلوس في خيمته التي نصبها لنفسه لكنه مع كل ذلك كان يرشد المحاربين ويشرف عليهم من خيمته وهم في حومة القتال.

وحينما نجد في حياة الأنبياء عليهم السلام وبالأخص في حياة رسولنا عليه الصلاة والسلام أن الخلوة أو التحنث في غار حراء يتقدم على معركة بدر وأحد فأي مبرر لأتباعهم لتخطي هذه المرحلة والإعراض عنها، ذكر الشيخ في صدد حديثه حول المرحلة الفنائية من التصوف حادثة ميدانية كبرى وهي: حبس أبي محجن الثقفي[2] أثناء معركة[1] كانت تدور بين المسلمين والكفار

---

[1]- هي معركة القادسية.

[2]- هو عمرو بن حبيب أبو محجن الثقفي، أحد أبطال الشعراء في الجاهلية والإسلام، أسلم سنة ٩ هـ، وروى عدة أحاديث، وكان منهمكاً في شرب النبيذ، فحدّه عمرو بن الخطاب مراراً، ثم نفاه إلى جزيرة بالبحر، فهرب، ولحق بسعد بن أبي وقاص وهو =

عقاباً على أبيات قرضها في الخمر ورأى أبو محجن أن رستم قائد جيوش الكفار قد استولى على عدة محاربين من المسلمين وقتلهم فهاجت غيرته الإسلامية وثارت ولكن السلاسل منعته من الحراك ولم يتمالك حتى تضرع إلى زوج سعد قائد المسلمين طالباً إليها أن تفك أسره حتى يقضي لبانته ويشفي ما بنفسه من الغيرة الإسلامية وتعهد لها أنه حينما ينتهي من عمله يرجع إلى السلاسل وإن قتل في الحرب فلا بأس في ذلك لأنه مجرم يعاقب وأي عقاب أكبر من القتل قبلت زوجة القائد طلبه وأطلقت أساره فبرز في الميدان وقاتل قتالاً شديداً وهو مقنع الوجه خوفاً من أن يراه القائد ثم رجع إلى حبسه ولبس سلاسله وقيوده طائعاً راضياً، هذه القصة تدل على محافظة القائد الشديدة على تطبيق الأحكام الإسلامية حتى في الأحوال الخاصة من حرب وقتال كما أنها تدل على إيمان المسلمين وإيثارهم وحبهم لدينهم حتى ولو كانوا في العقاب والحبس ولا غرو في ذلك فإن أولئك قد كانوا طالبين لرضا ربهم إلى أقصى درجات الطلب ولم تكن تعوقهم في ذلك مصلحة ولا أثرة ما.

نكتة غريبة نادرة

يحدث الشيخ رداً على النظر الخاطىء في هذا الصدد فيقول:

=بالقادسية يحارب الفرس، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يحبسه، فحبسه سعد عنده، واشتد القتال في أحد أيام القادسية، فالتمس أبو محجن من امرأة سعد (سلمى) أن تحل قيده، وعاهدها أن يعود إلى القيد إن سلم، وانشد أبياتاً في ذلك، فخلَّت سبيله، فقاتل قتالاً عجيباً، ورجع بعد المعركة إلى قيده وسجنه، فحدثت سلمى سعداً بخبره، فأطلقه وقال له: «لن أحدّك أبداً» فترك النبيذ وقال: كنت آنف أن أتركه من أجل الحدِّ!. توفي بأذربيجان عام ٦٥٠م [الأعلام للزركلي ٥/ ٧٦].

(١)- في معركة القادسية نفسها.

يرى الناس أن الموت في القتال مستشهداً هي غاية المسلم المقاتل مع أن هذه الفكرة خاطئة لأن المطلوب من المسلم المقاتل أن يكون قاتلاً لا غير وأما أن يكون مقتولاً فهو لأنه يبذل أقصى جهده في سبيل أن يكون قاتلاً فما دام يجتهد لذلك فإذن إن نزل عليه الموت فلا بأس به.

إني أطلت الكلام في هذا الصدد لكني كنت مضطراً إلى ذلك لأهمية المبحث الذي شرعت فيه وهو إزالة شبهة كانت وقعت في أمر (تصوف الخلوة) بحيث كانوا يستهينون به ولم تكن استهانتهم هذه إلا لسفاهتهم وجهلهم فحاولت أن أصرِّح لأنصار فكرة الظهور في الميدان المتلاعبين في أمر الدين أصحاب الزعامة والسياسة أن البروز في الميدان وبذل المهجة في سبيل الله لا يصلح كذلك إلا بالتصوف فكان كل ذلك شرحاً لحقيقة كبيرة من التصوف الإسلامي.

سبب النفور من التصوف:

وبعدما أوضحنا حقيقة التصوف وأثبتنا أهميته الشديدة بأنه لباب الدين وكمال الإسلام وأنه إذا انتفى من حياة رجلٍ مسلم مع أنه مسلم فقد انتفت من حياته حسنة الدينا وابتعدت عنها ابتعاداً.

ولا ينفر من التصوف رجال الدنيا فحسب بل إنما ينفر منه بعض كبار رجال الدين أيضاً، إنهم يرون التصوف غير الدين، ويظنون طريقته مخالفة للشريعة الإسلامية، ثم يستنكرونه ويتوحشون منه، والسبب في ذلك هي صور خاصة ومظاهر مختلفة مما تظهر من حقائق الصوفية ومعارفهم وأفكارهم وأعمالهم ومجاهداتهم ومراقباتهم وأحوالهم وكيفياتهم وتلقينهم وتصرفاتهم وكشوفهم وكراماتهم وزهدهم في ملاذ الحياة وفي العلائق وبيعتهم ونسبتهم وطقوسهم وعوائدهم الكثيرة مما لا يجدونها في نصوص الكتاب والسنة وفي معانيهما عامة، فشاع بين الناس أن حقيقة التصوف وأصله ينبعثان من هذه البدع.

وأوضح الشيخ المجدد التهانوي حقيقة التصوف وأصله ورفع الستار عن هذه الحقيقة الكبرى بكلامه القوي بما تظهر به عبقريته في ذلك، فقال: إن التصوف عنوان للأحكام التي تعالج الباطن والقلب، كما تعالج أحكام الفقه الحياة الدينية الظاهرة، وأن أحكام التصوف منصوصة في القرآن والحديث مثل أحكام الفقه وبذلك لم يكن التصوف إلا التعليم. وثار الشيخ بعض الأحيان على هذا الإصلاح فقال: نحن لا نعرف الرهبانية ما هي؟ لسنا إلا طلبة علم ومعلمين لا غير، إنما نلقن العمل بالقرآن والحديث ويحصل منها الشيء الكثير لمن يحصل بل ويحصل منهما ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من أمثالنا، مع أنه إذا رآه الرجل الذي هام بالمقامات والكرامات والأحوال والكيفيات لم يجد فيه هتافاً وصيحات.. ولا الجذب والواردات ولا السكر والكيفيات ولا الكشوف والكرامات، إنما هو أسلوب بسيط لا غير، كسمك البحر يكون مالحاً ولا يحتاج إلى أن يضاف إليه الملح عند الطهي، وحينما يطبخ ويؤكل تظهر ملاحته، فهكذا عندنا يوجد الملح لكنه ليس للنضج بل إنه موجود في الداخل ولا يظهر إلا حينما يكمل الشيء ويجري في العمل.

الفصل الثاني

في

الأذكار والأشغال

والمجاهدات

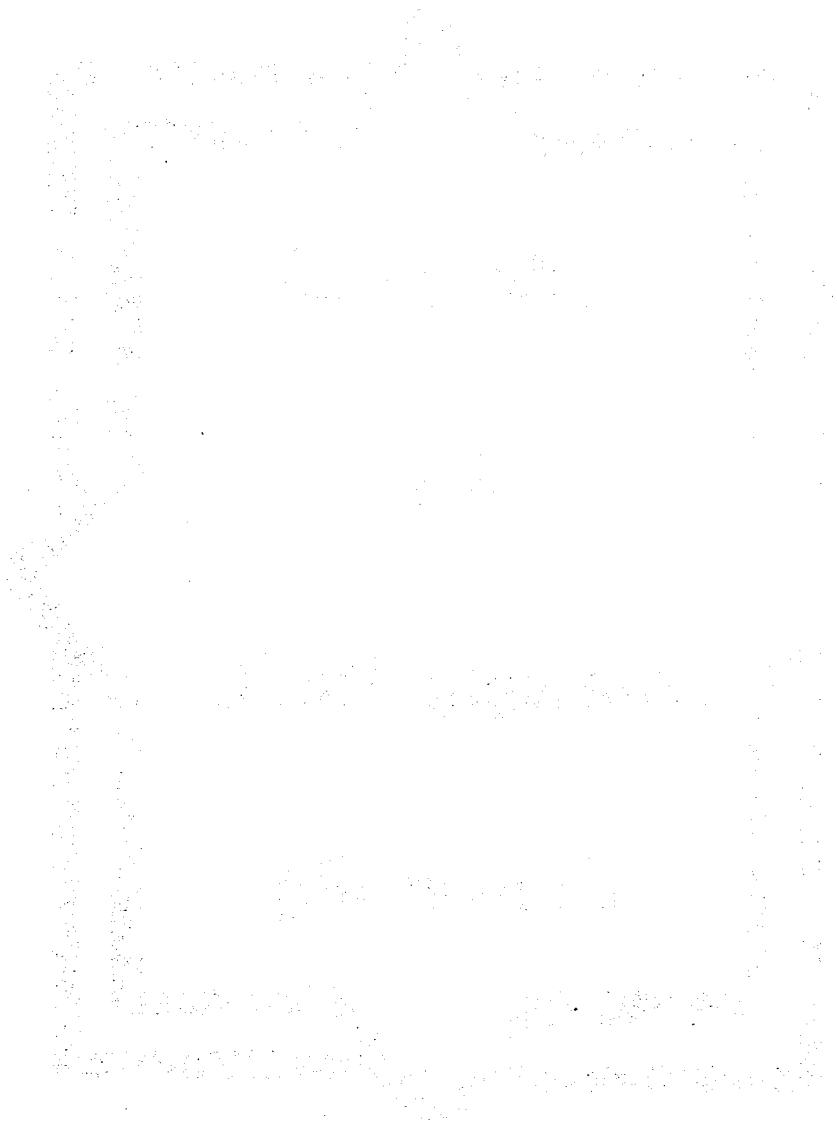

الأذكار والأشغال والمجاهدات

الغايات والوسائل

يرى الشيخ المجدد التهانوي أن أعمال التصوف من أذكار وأشغال ومجاهدات ومراقبات وغيرها التي تبدو كأنها لم تذكر في القرآن والحديث ولم تستنبط منهما، يرى الشيخ أنه وقع أنصار التصوف ومعارضون في صددها في خطأ مشترك أن ظنوا هذه الأعمال من غايات التصوف وأهدافه مع أنها في حقيقة الأمر وسائل ومقدمات وآثار وثمرات وليست من أهداف التصوف بتاتاً فلا يصح أن تدعى أعمالاً مبتدعة في الشريعة الإسلامية، لأن البدعة ليست إلا إحداثاً في الدين بحيث يضاف إلى الدين ما ليس منه ويعد من غاياته، أما أ يحدث أمر ما في سبيل الدين كوسيلة جديدة من وسائل الدين فتكون عوناً في تحصيل غاياته والبلوغ إلى أهدافه ويجرب ذلك كما تجرب أدوية جديدة يرى أنها قد تنع في العلاج أو كما تختار وسائل جديدة مبتكرة نافعة في الطب أو في الدين نفسه حيث تفتح المدارس وتنشأ المكتبات وتطبع الكتب على الأحجار والحروف الرصاصية وتقرر مناهج مختلفة للتدريس والتعليم وتمنح الشهادات فلا يكون ابتداعاً بل يكون إحداثاً وتجديداً ينفع الدين ولا يضيف إليه ما ليس منه ولن يسمى ذلك بدعة ولن يلتمس في الكتاب والسنة ليكون وجوده في أي واحد منهما مبرراً لكونه غير محظور.

ومثال ذلك الخشوع في الصلاة، فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[1]. وحضور القلب في الصلاة فقد ورد في الأثر: «**لا صلاة**

---

[1] - سورة المؤمنون، الآية: ٢.

إلاّ بِحُضُورِ الْقَلْبِ»[1]. فإنهما مقصودان ومأمور بهما، كما يدل على ذلك النصّان من الكتاب والسنة، وبعد ذلك إذا علمنا بالتجربة أن طريقة خاصة أو وسيلة من الوسائل من ذكر أو شغل أو مراقبة وغيرها تعين في الوصول إلى هذين المقصودين ولم يرد في الشرع عن اختيار هذه الطريقة والوسيلة ولم تذكر كراهة فيها، فإذن لن يكون اختيارها والعمل بها ولو مقتبسة من غير المسلمين بل ومن أعداء الدين إلا مثل استخدام البندقية والرشاشات وما إليها في الحرب، على أن استعمالها مقتبس من غيرنا مكان السيوف والرماح التي كنا نستخدمها في القرون الماضية.

إنه يوجد لدى الصوفية ذكر خاص ويسمى (ذكر النفس) وقد عمّ هذا الذكر فيهم وسئل الشيخ التهانوي عن هذا الذكر فرد بما يلي:

أنه من أشغال التصوف ويحصل به الانقطاع وتبعد به الوساوس وللذكر طرق متنوعة يجب أن يختار منها كل واحد منا ما تناسبه وتطمئن إليها نفسه، أما اجتماع القلب فليس هدفاً ولا غاية بذاته لكنه من أسباب الوصول إلى المطلوب، والذي لا شك فيه أن الأسباب لها تأثير قوي في الغايات ولذلك وضع الشيوخ للغايات مقدمات وتمهيدات وأعظموا هذه المقدمات عملياً مثلما أعظموا الغايات.

وأكبر دليل على كون هذه العمال مقدمات وتمهيدات دون أن تكون غايات هو أنه لا يلزم ولا يجب اختيار رأي واحد منها والعمل بها دون غيرها، قال الشيخ مشيراً إلى ذلك: إما أمر اختيار أي واحد منها فللطالب أن يختار منها ما تناسبه وتلائمه ويهدأ إليها باله ويجتمع بها خاطره وكون جميع الخاطر وانقطاعه إلى جهة واحدة، إنما هو من الأحوال المطلوبة والنافعة، إذ

---

[1]- لم أعثر على هذا الحديث.

علمته تجريبياً وفنياً لم يكن قلبي في أول الأمر يطمئن إلى ذلك حتى وجدت فيه نصاً ودليلاً شرعياً، فقد أفاد الحديث بأنه إذا حضرت الصلاة وحضر الطعام والإنسان يشعر بالجوع فليقدم الرجل الطعام على الصلاة القائمة، والسر في ذلك أنه إذا صلى قبل تناول الطعام فلا يؤدي صلاته إلا بتستت من خاطره ووسواس في قلبه وبدون إجتماع لباله أما أنه إذا أتى بكل ذلك بالعكس فتكمل صلاته بطمأنينة وانقطاع وتجرد وإخلاص وأنه إذا تناول الطعام قبل الصلاة فلا يتناول إلا مستعجلاً مشتت البال متفرق الخاطر لأن خاطره طيلة تناوله لطعامه يكون متجهاً إلى الصلاة، ذكر ذلك الإمام أبو حنيفة بطريقة طريفة حيث قال: لأن يكون أكلي كله صلاة خيرٌ من أن تكون صلاتي كلها أكلاً. وكانت طريقة الشيخ إمداد الله في هذا الصدد هي أنه إذا سمع أحداً يريد الهجرة إلى مكة المكرمة ويتفرس الشيخ فيه أنه لن يكون خاطره مجتمعاً في مكة المكرمة كما كان مجتمعاً في الهند لم يكن يأذن له بالهجرة إلى مكة المكرمة، ويقول له: لأن يكون قلبك في مكة وجسمك في الهند خيرٌ لك من أن يكون قلبك في الهند وجسمك في مكة.

سبحان الله ما أعمق هؤلاء الصوفية المحققين نظراً، وأصدقهم بصيرة إن نظراتهم لتنفذ إلى ما في لباب الكتاب والسنة وإلى أعماقهما.

فجميع الأشغال التي يختارها الصوفية إنما هي لجمع الخاطر وإخلاص البال وليست مطلوبة ولا غاية ولذلك توسع في اقتباسها الصوفية وتوسعوا إلى حد أنهم أخذوا بعضها من اليوك مثل حبس النفس إذ هو من أعمال اليوك، لأنهم وجدوا ذلك مؤثراً ونافعاً لجمع القلب وهو ليس من شعار أهل اليوك فاقتبسوه منهم ولا ضير في ذلك وليس بمنهي عن أن يتشبه الرجل في مذل هذا مع هؤلاء الذين لا يعترفون بالدين الإسلامي، لأن العمل الذي لا يعد شعاراً

لفرقة أو ديانة ما لا بأس في اختياره وأخذه كوسيلة من الوسائل لا كغاية من الغايات، والشريعة الإسلامية لا تنهى عن ذلك ولما كان حبس النفس وسيلة من الوسائل لنفي الوساوس والخطرات المشتتة كتدابير طبية يعالج بها الطبيب، صح إذن اختياره بحيث كان ذلك اختياراً لوسيلة دون شعيرة.

والحجة في ذلك ما وقع يوم الخندق إذ كان رسول اللهﷺ يريد أن يمنع المدينة المنورة ويحوطها بسياج من المناعة والحماية، فأخبره سيدنا سلمان الفارسي بأن الفرس يحفرون الخنادق حول بلدانهم ليحموها من غارات العدو فاستحسن رسول اللهﷺ هذا الرأي وأمر بحفر الخندق حول المدينة وعاون بنفسه صحابته روان الله عليهم أجمعين في حفر الخندق فلما لم يكن حفر الخندق شعاراً للفرس بل إنما كان تدبيراً ووسيلة لحربهم أذن النبيﷺ باختياره ولم ينه عنه.

إكثار الذكر:

أما الذكر الذي يلح الصوفية في الحض على إكثاره وإدمانه حتى الشيخ التهانوي هو نفسه كتب عن ذلك في كتابه (قصد السبيل) أن التصوف درجتان، والدرجة العليا منهما هي لتي يكون صاحبها مؤمناً بالذكر مستديماً له، مع العمل بالطاعات المستحبة التي تتعلق بالظاهر وقد وردت نصوص عديدة في القرآن والحديث تحض على إدامة الذكر وإدمانه فقد ورد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾[1]. كما ورد ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾[2]. لا تدل الآية على إكثار الذكر فحسب بل على إدامته أيضاً ولا يوجد للرجل إلا ثلاث هيئات:

---

[1] - سورة الأحزاب، الآية: ٤١.

[2] - سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

إما أن يكون قائماً وإما قاعداً وإما يكون مضطجعاً، فإذا لم يفته الذكر في هذه الهيئات الثلاث فكأنه ذكر الله في جميع الأحوال، نائماً ومستيقظاً ويستدل من اصطلاح إدامة الذكر أن يقوم صاحب الذكر بالذكر واقفاً وقاعداً ونائماً ومستيقظاً.

والذكر القلبي يمكن أن يستنبط من هذه الآية لأن المرء يشتغل في قيامه وقعوده واضطجاعه بشؤون أخرى، مما لا يجتمع معها إلا ذكر القلب وبالأخص حينما يكون المرء مضطجعاً كما لا يخفى أن النوم كامن في كلمة (على جنوبهم)، وقد نصت آية: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1]. على اتصال ذكر القلب بالتجارة والمعاملات لأنها لا يمكن أن يصحبها إلا ذكر القلب.

وإني أرى أن الذكر الذي ثبت في الكتاب والسنة، ليس إلا ذكر القلب لأن كلمة الذكر إنما يراد بها في معناها اللغوي وصول الفكر والذهن إلى أمر قد انقضى في الزمان الغابر واستعادته إلى الذاكرة، أما أن تذكر أمراً ما، فمعناه أن ترسل فكرك وذهنك إليه وتتصل به اتصالاً ذهنياً، وحينما يريد المرء أن يذكر أمراً منسيّاً فمعناه أنه يوجّه ذهنه أو قلبه إليه ويلتفت بهما إليه، وفي كل هذه الأحوال يجب عليه أن يعبر عن كل ذلك بلسانه.

ويرمز ذلك إلى أن الذكر ليس إلا تذكر أمر ما بالقلب أو الالتفات بالقلب إليه بغير أن يظهر ذلك باللسان، غير أن تأديته والتعبير عنه باللسان وسيلة وعلامة للالتفات من القلب ولذلك إذا ذكرنا صديقاً مات أو قريباً توفي بدأت تفد إلينا ذكرياته الماضية من أواصره وعلاقاته، ويلتفت قلبنا إلى هذه الأحوال المغمورة، فإن الأذكار المأثورة التي تذكّر بالنعم الإلهية وبالمشيئة الربانية والتي وردت لأحوال القومة والقعدة والنوم واليقظة ولمناسبات التزاور والمقابلات ولأحوال الهم والارتياح والمرض والصحة، وللعيادة والرثاء والمآدب

---

[1] - سورة النور، الآية: ٣٧.

ومناسبات الوداع، وللركوب والسفر وغير ذلك لم تؤثر ولم تعلم بها إلا لأنها تجدد ذكر العلاقة الوثيقة التي نشأت بين العبد وربه، مثل الذكر الذي ورد بعد الطعام: «**الحَمْدُ للهِ الَّذي أَطْعَمَنَا وَسَقَانا وَجَعَلَنَا مِنَ المُسْلِمِيْنَ**»[1]. وما يقال عند اللباس: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِيْ كَسَانِيْ مَا أُوارِيْ بِهِ عَوْرَتِيْ، وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِيْ حَيَاتِيْ**»[2]. فحقيقة هذه الأذكار هي أن تعلم وتستحضر في نفوسنا أنه لا يطعمنا ولا يسقينا ولا يكسونا ولا يرزقنا إلا الله، أما الوسائل والذرائع التي نعالجها للوصول إلى هذه الأغراض في ظاهر الأمر فليست إلا تدابير ظاهرة لا علاقة لها بصميم الأمر ولبابه.

كتب طالب إلى الشيخ التهانوي يشكو إليه فقد ميله وأنسه بالذكر الذي تعود طلاب التصوف معالجته وكتب أن فضل الله مع ذلك لم يتركه بل إنما يتسنّى له في جميع شؤون الحياة أن يتذكر قدرة الله من فعله وحكمته وإرادته، ويستحضر كل ذلك في ذهنه مهما كانت طريقة ذلك الاستحضار والتذكر ويزيد انتفاعه قدر تذكره لمشاهدة الله، فرد الشيخ التهانوي على هذا الطالب بما يلي: هل ترى ذلك نعمة ليست لها قيمة كبيرة، إن الله قد رزقك ما يعد غاية وهدفاً في هذا الصدد، والذي ليست الأذكار والأشغال كلها التي تعودناها إلا مقدمات وتمهيدات له فإذا حصلت لك الغاية فطلبك للمقدمات ليس إلا كما يرزق رجل طعاماً مطبوخاً معداً فيقول إنه لن يرضى إلا بعدما يطبخه ويعدّه بنفسه.

---

[1] - رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري ﷺ، في أبواب الدعوات، باب ما يقال إذا فرغ من الطعام، رقم الحديث (٣٢٨٣) وأبو داود في كتاب الأطعمة باب ما يقول الرجل إذا طعم (٣٨٥٠).

[2] - رواه الترمذي في أبواب الدعوات، رقم الحديث (٣٥٦٠) وقال: حديث غريب، وابن ماجة في كتاب اللباس، باب ما يقول الرجل إذا لبس ثوباً جديداً رقم الحديث (٣٥٥٧) والحاكم (٤/ ١٩٣) والبيهقي في الآداب، رقم الحديث٠ (٦٤١).

وقد جعل الشيخ التهانوي شغل الباطن بإدامة الذكر واجباً للوصول إلى الرتبة العليا في التصوف، والمراد منه هو التفات القلب والذكر الباطني، حيث يستقر ذكر الله في القلب، فيكون رضا الله وعتابه ومحبته وجلاله وعقابه وثوابه نصب عينه في أحوال الحياة كلها، من حركات وسكنات، وبعد ذلك يجب على المرء أن لا يقع في المعاصي وأن لا يتعمد ذنباً سواءٌ كان صغيراً أو كبيراً إلا لغفلة بشرية أو عند النسيان، وأوضح الشيخ هذه الحقيقة في موعظة له تسمّى بأكبر العمال، عدّ الذكر فيها من أكبر الأعمال يقول فيها: (إن الذحكر حقّ الذكر، هو ما يحمل على الاجتناب من جميع المعاصي ويحض على الإتيان بجميع الأعمال الحسنة).

(يظن الناس بعد ترديدهم لكلمة «الله» مئة ألف مرة أنهم أتوا بالذكر مع أنهم لم يأتوا بحقيقة الذكر بل إنما أتوا بصورة الذكر وبأثر من آثاره، لأنهم لو كانوا أتوا بحقيقة الذكر لم تخل حياتهم من الأعمال الحسنة الأخرى، بل ونجد أن كثيراً من الذين يرددون كلمة «الله» مئة ألف مرة لا توجد فيهم الأعمال الأخرى بتاتاً).

وعن ذلك وقع كثيرٌ من الناس حتى عامة الصوفية وبعض المحققين منهم في خطأ كبير، إذ ظنوا أن الذكر باللسان لفظاً أو الذكر القلبي المصطلح فيهم هو الذكر المأمور به حقيقة، ويقولون في ذلك إنه عمل القلب.

لذلك يجب علينا أن نفهم حقيقة الذكر ونمعن النظر فيما يقول الشيخ فإنه يتحدث عن ذلك في موعظته نفسها فيقول:

حقيقة الذكر:

أضرب لكم مثلاً فافهموا، لعلكم سمعتم أن بعض الأشراف كذلك يميلون إلى بعض الجرائم مثل السرقة وما إليها فإنهم يسرقون لأن نفسهم

ترغب إلى السرقة ولا يكون ذلك لأن السرقة مهنتهم، بل لأنهم في حاجة إليها، والحاجة شر حالة للإنسان، فهي قد تضطر الرجل إلى أسوأ خلق وأقبح عمل وهذه طائفة من الناس فاعرفها.

أما طائفة أخرى فهي لا تقترف السرقة وإن كانت في حاجة إليها بل ولو كانت في حالة عدم وإملاق ولا تقصّر في دفع ما عليها من الضرائب والأتاوات وإن اضطرت إلى بيع عقاراتها ومواشيها حتى ولو دهمتها مصيبة الفاقة والجوع.

لمَ هذا الاختلاف الهائل بين الطائفتين؟! ولمَ تأتي أولاهما بجريمة السرقة والنهب، والأخرى لا تأتي بها بل وتدفع ما عليها من ضرائب وأتاوات كذلك؟! مع أن كلتيهما في بلية واحدة من فاقة وحاجة وعدم، وكلتاهما سواء؟!.

ليس السبب في ذلك إلا أن واحدة منهما تذكرت شيئاً والأخرى لم تتذكره، يعني الخزي والعار الذي يلحق الرجل بعدما يعاقب ويحشر إلى الحبس على جريمته، فاعرفوا أن حقيقة الذكر هي هذا يعني تذكر شيء. أما مجرد معرفة شيء فلا يعد تذكراً، لأن المعرفة كانت حاصلة للطائفة الأولى، وكانت تعرف أن اقتراف الجريمة إنما يتلوه العقاب، لكنها لم تستحضر ذلك في ذهنها ولم تلق إليه بالاً فلم تتمكن من الامتناع من الإثم بل إنما امتنعت منه الطائفة الأخرى التي تذكرت وأوسعت الأمر بالتفكير والاستحضار، ولذلك لم تجرؤ على اقتراف الجريمة.

خطأ كبير:

نفى الشيخ ودحض خطأً كبيراً وقع في فهم بعض الناس وهو أنهم يحسبون ذكر الجنة والنار غير داخل في باب التصوف فضلاً عن أن يروه في درجة الذكر الحقيقي، يقولون: كيف يسعهم أن يصرفوا عنايتهم عن الذات

الإلهية إلى الجنة والنار، يقولون ذلك لأنه خفي عليهم أن ذكر الجنة والنار هو عين العبادة ولقد كان الأنبياء عليهم السلام كذلك غير ساهين ولا غافلين عن ذلك مع أنهم لانقطاعهم إلى الدعوة والعمل ربما يكونون معذورين إذا سهوا عن هذا الذكر، يتحدث الشيخ عن ذلك فيقول:

(وقد يقول رجلٌ أن معنى ذلك أن ذكر الجنة والنار وذكر الله هما عمل واحد مع أن هذا ذكر الجنة والنار وذلك ذكر الله وهما في الحقيقة مختلفان فكيف يصح أن نجعلهما واحداً لكني أرد عليه أن ذكر ثواب الله هو ذكر الله، كما أن الناس يعتقدون ويفهمون أن ذكر القانون هو ذكر ما يليه من الحبس والعقاب إذا خولف).

ذكر الله درجات:

ومما لا شك فيه أن لذكر الله درجات مثل ما يكون في الحياة الإجتماعية، مع أن بعض الناس إنما يمنعهم من اقتراف الجريمة أن يذكروا الحاكم فحسب وهم لا يحتاجون في ذلك إلى أن يذكروا الحبس والعقاب إذا خالفوا أمر الحاكم، ومنهم من لا يقترفون الجريمة ولو قيل لهم أنهم غير مأخوذين إذا أتوا بالجريمة لما بينهم وبين الحاكم من الأواصر والعلاقات التي تمنع من العقاب.

فبعضهم يمتنع عن الجريمة لأنه يخاف سخط الحاكم وبعضهم يمتنع لأن الحياء والخجل يصده عن ذلك، ومنهم من ليس أمره في هذا الصدد أمر الحياء والخجل، بل إنما يمنعه عن الجريمة شيء آخر لا نستطيع أن نسميه باسم وهي صلة خاصة لطيفة عالية:

كذاك الوداد المحض لا يرتجى له ثواب ولا يخشى عليه عقاب

وإن سميناها باسم لسميناها بالعلاقة الذاتية، على كل حال فإن التدرج لا بد منه في درجات الذكر، ويجب إذن أن نرى ما هي الدرجة التي حللناها من العلاقة حتى نختار ما يلائم هذه الدرجة وينفق معها من الذكر فنعالجه.

شهادة من القرآن على كون درجات الذكر مختلفة:

وأستدل في ذلك بآيات من القرآن، وبهذا الاستدلال سنحل أيضاً عقدة وقعت عند المفسرين، يقول عن اختلاف الدرجات أن الله تعالى خص الذكر في بعض المواضع بذاته حيث قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1]. ووصله في مواضع أخرى بأسمائه الحسنى حيث قال: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾[2].

يقول المفسرون عن هذه الآية: إن كلمة الإسم مقسم، أما أنا فأقول إنه لا داعي هناك إلى أن يقال عنها أنها زائدة بل إنما هو الاختلاف في العنوان وعلى قدر درجات الذاكرين.

ويقول الشيخ جلال الدين الرومي[3] متحدثاً عن أهمية الاختلاف في الدرجات: (يا هذا إنك لم تسكر من مدامة معرفة الذات ومحبتها فقد اقتنعت من هو يعني الذات بكلمة هو يعني الاسم).

وفيه إشارة إلى أن درجة من درجات الذكر هي أعظم من درجة الذكر اللفظي الاسمي، ويخبر في موضع آخر بأنّ الذكر الاسمي كذلك ذو قيمة ملحوظة فالرجل إذا حرم الأول فعليه أن يغتنم الثاني ويعظمه[4].

---

[1] - والآية بكاملها: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[سورة العنكبوت الآية: ٤٥].

[2] - سورة المزمل، الآية: ٨.

[3] - هو محمد بن محمد بن الحسين أحمد بن البلخي، المعروف بجلال الدين الرومي، عالم بفقه الحنفية وأنواع العلوم، ومن كبار الصوفية، وصاحب الطريقة المولوية المنسوبة إليه، ولد في بلخ وانتقل مع أبيه إلى بغداد، وتوفي بقونية عام ٦٧٢هـ، وله مثنوي مشهور بالفارسية ترجم بجميع لغات العالم الراقية.

[4] - درجة الجمع الكاملة هي أن يجمع الرجل الدرجات كلها في مواضعها، كما أثر عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - ومن تبعهم من الكاملين الوكلاء.

(أما الذكر اللساني فليس مما لا قيمة له ولو كان بدون أن يتضامن معه القلب وأنه من الخطأ أن يقال أن التسبيح لا تأثير له إذا كان باللسان فحسب، لأن القلب يدور فيه خواطر الحمار والبعير، أقول كلا إن التسبيح يحمل تأثيراً لا ينكر وكيف لا يكون فيه تأثير وقوة أو لا يحمل اسم الله تأثيراً مع أن أسماء الحلاوى والحوامض يتحلّب لها فم الإنسان وتجعل نفسه شحيحة توّاقة)[1].

---

[1] - قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: الذكر يكون بالقلب، ويكون باللسان، والأفضل منه: ما كان بالقلب واللسان جميعاً، فإن اقتصر على أحدهما، فالقلب أفضل، ثم لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يظن به الرياء، بل يذكر بها، ويقصد به وجه الله، وقد أجمع العلماء على جواز الذكر بالقلب واللسان: للمحدث والجنب والحائض والنفساء، وذلك في التسبيح والتحميد والتكبير والدعاء والصلاة على رسول اللهﷺ. وذكر الشعراني في كتابه: الميزان أن الذكر باللسان مشروع للأكابر والأصاغر ومن قال أن الذكر اللسان ربما يتوهّم البعض أن فيه رياء، يقول الفضيل بن عياض: إن ترك العمل لأجل الناس رياء ولو فتح الإنسان عليه باب ملاحظة الناس والاحتراز من تطرق ظنونهم الباطلة لانسد عليه أكثر أبواب الخير وضيع على نفسه شيئاً عظيماً من مهمات الدين، وليس هذا طريق العارفين: (الفتوحات الربانية على الأذكار النووية ص١٠٦). وقال الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ اعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الذكر أفضل الأعمال ولكن له أيضاً قشور ثلاثة، بعضها أقرب للب من بعض، وله لب وراء القشور الثلاثة، وإنما فضل القشور لكونها طريقاً إليه، فالقشر الأعلى منه: ذكر اللسان فقط. والثاني: ذكر القلب، إذا كان القلب يحتاج إلى موافقته حتى يحضر مع الذكر ولو ترك وطبعه لاسترسل في أودية الأفكار. والثالث: أن يستمكن الذكر من القلب، ويستولي عليه بحيث يحتاج إلى تكلف في صرفه عنه إلى غيره، كما احتيج في الثاني إلى تكلف في قراره معه، ودوامه عليه. والرابع: وهو اللباب: أن يستمكن المذكور من القلب وينمحي الذكر ويخفى، وهو اللباب المطلوب، وذلك بأن لا يلتفت إلى الذكر، ولا إلى القلب، بل يستغرق المذكور جملته، ومهما ظهر له في أثناء ذلك = =

الذكر القلبي اصطلح عليه الصوفية:

ثم يتحدث الشيخ عن الذكر القلبي الذي اصطلح عليه الصوفية فيقول:

(أحب أن أقول في كلمتي الأخرى أن الذكر القلبي المحض الذي يقترح به الصوفية على تلامذتهم خير شيء مع أنه لا يستمر ولا يدوم لزمن طويل لأن الذاكر يظن في نفسه أنه مشتغل بالذكر مع أن قلبه يتلفت هنا وهناك ولذلك أقترح أنا أن يشتغل الذاكر بالذكر اللساني مع توجه القلب واشتغاله وأن يستخدم لسانه وقلبه في الذكر معاً فإنه إذا انقطع عنه الذكر القلبي ولو لمدة قصيرة لاينقطع عنه ذكره باللسان وبذلك لا يذهب عمله سدى بل يبقى له الذكر ولو باللسان).

وبالأخص حينما علمنا أن كل عمل بُدىء بنية خالصة، تتظهر بركاته وتستمر أنواره ولو لم تستمر النية ولو ذهبت العناية بالعمل، أما ما يفقده من النورانية في ذكرنا فسببه أننا لا نحاول لتحصيل النور ولا نعتني به لأننا لو كنا حاولناه لوجدناه، لذلك يصح أن يقال في جواب من قال: هل ينفع هذا التسبيح؟! (نعم ينفع هذا التسبيح إذا قصد حصول الأثر).

درجات الذكر:

وملخص القول: أن أولى درجات الذكر هي أن يذكر اسم الله جل وعلا، والثانية هي: أن يذكر ذات الله من طريق اسم الله والثالثة هي أن ترفع واسطة الاسم ويصبح الذاكر في قدرة يمكنه معها أن يذكر ذات الله مباشرة

=التفات إلى الذكر، فذلك حجاب شاغل وهذه الحالة التي يعبر عنها العارفون بالغناء. فهذه ثمرة لباب الذكر، وإنما مبدؤها ذكر اللسان ثم ذكر القلب تكلفاً، ثم ذكر القلب طبعاً، ثم استيلاء المذكور وانمحاء الذكر (كتارب الأربعين في أصول الدين، ص٥٢).

بدون واسطة ومثل ذلك تكون آصرة المودة الشديدة حيث إذا قيل للرجل معها إفعل ما شئت فاتك لن تدخل النار لا يفعل إلا الخير، حتى إنه إذا قيل له افعل ما شئت فإنك لن تدخل إلا النار فلا يترك الخير إذن كذلك ولا يضعف عن ذلك ولا يلين في جده وعمله للخير فقد حدث لشيخ ذاكر أنه سمع نداءاً يقول: افعل ما شئت فإنك ستموت كافراً، فقلق الشيخ واغتم غير أنه لم يترك ذكره وصلاته بل ذهب إلى أستاذه وأخبره بذلك فقال له أستاذه استمر في عملك ولا تقلق فإن ذلك من شتائم المحبة.

لون من المحبة:

كان والدي ـ رحمه الله ـ لا يداعب الأطفال بل كلما كانت تغمره المحبة بهم كان يفتل آذانهم فيبكون بذلك وكانت النساء يقلن له: ما أغرب محبتك بهم، لا تلاعبهم ولا تداعبهم، وإنما تُبكيهم لكنه كان لا يجد المتعة إلا في هذا، وأنا كذلك مغرم بممازحة الأطفال حتى أني قد أغضبهم، لكني أتمتع بدلالهم، فافهم، ولا محل للتشبيه أن الله يُقلق أحياناً بعض عباده ولا يفعل بهم ذلك إلا لأنه يحبهم، وبكاء عباده هؤلاء وعويلهم محبب لديه. إنه يحب أن يستبشر بعضهم فيضحكهم ويحب أن يبكي بعضهم فيبكيهم.

لعلك قد علمت مما فصلناه وأوضحناه أن ذكر الجنة والنار والمثوبة والعذاب ليس إلا كذكر الله نفسه وإن ذكر الله درجات ومن هذه الدرجات درجة حقيقة الذكر، ويتضح ذلك من المثال الذي ضربناه من أن بعض الناس لا يجرؤون على السرقة ولو كانوا شديدي الحاجة إليها شديدي الطلب لها، ولا يتثاقلون في دفع الضرائب التي هي عليهم لأنهم يذكرون شيئاً وهو العقاب والحبس وما إلى ذلك، فهكذا الذكر الذي يمنع من معصية الله ويحمل على الاستسلام والخضوع، فالذي يكون كهذا نسميه بذكر الله، فكل من ذكر الجنة

أو النار فمنعه هذا الذكر من معصية الله فكأنما ذكر الله هو ذاته، ومن ردد «الله الله» فمنعه هذا الذكر من المعصية كان له ذلك كذكر الله هو ذاته، ومن قام بمراقبته لذات الله فمنعته مراقبته من المعاصي كان له ذلك كذكر الله هو ذاته، أما الذكر الذي لا يمنعه كل هذا من معصية الله فلن يكون عمله ذكر الله في حقيقة الأمر بل يكون صورة له ومظهراً فحسب، فيجب على الطالب أن يسأل شيخاً فاضلاً عما يناسبه من الأذكار، ومن الناس من يمنعهم من المعصية غرام مالي فيكون لهم الغرام المالي ذكراً، وهذا حقيقة لعمل الذكر وأنه أساس طريق التصوف كله بل أساس الشريعة أيضاً.

الذكر أساس الشريعة:

وإليكم آياتٌ من القرآن هي حجة لكلامنا هذا.

قال الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[1]. فدلت الآية على أن المقصود من الصلاة هو الذكر.

وقال: ﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾[2]. ﴿۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾[3] و﴿فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ﴾[4]. فجاءت هذه الآيات بمناسبة الحج ودلت على ان الذكر مأمور به في جميع الأعمال، وهذه أمثلة للأعمال الظاهرة، أما إذا فكرنا في الأعمال الباطنة وجدنا فيها الذكر كذلك، قال الله تعالى:

---

(1) - والآية بكاملها: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[طه: ١٤].

(2) - سورة البقرة، الآية: ١٩٨.

(3) - سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.

(4) - سورة الحج، الآية: ٣٦.

﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1]. ترمز الآية إلى أن مصدر الخوف والخشية هو ذكر الله[2].

---

[1] - سورة الأنفال، الآية: ٢.

[2] - وقد وردت أحاديث كثيرة تفيد أهمية الذكر، نذكر هنا بعضاً منها:

١- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا هلمُّوا إلى حاجتكم فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم، وهو أعلم بهم: ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدوك ويمجدونك. قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك قال: فيقول كيف لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادةً، وأشد لك تمجيداً، وأكثر لك تسبيحاً. قال: فيقول: فما يسألوني؟ قال: يقولون: يسألونك الجنة، قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يا ربِّ ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً، وأشدَّ لها طلباً، وأعظم فيها رَغبَةً. قال: فممَّ يتعوذون؟ قال: يتعوذون من النار، قال: فيقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله ما رأوها. قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لو رأوها كانوا أشد منها فراراً، وأشد لها مخافةً، قال: فيقول: أشهدكم أني قد غفرت لهم، قال: يقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة، قال: هُمُ القوم لا يشقى بهم جليسُهُمْ».

رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله، رقم الحديث (٦٤٠٨) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل مجالس الذكر، رقم الحديث (٢٦٨٩)].

٢- عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملأ ذكرتهُ في ملأ خير منهم، وإن تقرَّب إلي شبراً تقرَّبت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً».

[رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، رقم الحديث(٧٤٠٥) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب الحث على ذكر الله تعالى رقم الحديث (٢٦٧٥) والترمذي في الدعوات، باب في حسن الظن بالله عز وجل، رقم =

=الحديث(٣٦٠٣) وابن ماجة في الأدب، باب فضل العمل، رقم الحديث(٣٨٢٢) وأحمد (٣/ ١٣٨)].

٣- عن أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم، إذا هو نام ثلاث عقد يضرب على كل عُقْدَة: عليك ليلٌ طويلٌ فارقد، فإن استيقظ فذكر الله تعالى انحلَّت عُقدة، فإن توضّأ انحلَّت عُقْدَة، فإن صلّى انحلت عُقدة كُلُّهَا فأصبح نشيطاً طَيِّبَ النَّفس، وإلا أصبح خبيث النَّفس كسلانَ».

[رواه مالك (١/ ١٧٦) والبخاري في كتاب التهجد: باب عقد الشيطان على قافية الرأس (١١٤٢) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب الحث على صلاة الليل، رقم الحديث (٧٧٦) وأبو داود (١٣٦٠) والنسائي (٣/ ٢٠٣) وابن ماجة (١٣٢٩)].

٤- وعن عبد الله بن بسر ﷺ، أنّ رجلاً قال: يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني بشيءٍ أتشبّث به؟ قال: «لا يزال لسانك رَطْباً من ذكر الله تعالى».

[رواه الترمذي (٣٣٧٥) وابن ماجة (٣٧٩٣) وابن حبان في صحيحه (٨١١) والحاكم (١/ ٤٩٥)].

٥- وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما، أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرَّحمة، ونزلت عليهم السَّكينة، وذكرهم الله فيمن عنده».

[رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء، باب فضل الإجتماع على تلاوة القرآن، وعلى الذكر رقم الحديث (٢٧٠٠)، والترمذي (٢٩٤٥) وابن ماجة (٢٢٥)].

٦- وعن أنس بن مالك ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا». قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حِلَقُ الذِّكْرِ». [رواه الترمذي وقال: حديث غريب (٣٥١٠)].

٧- عن أبي هريرة ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، من أسعدُ الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: «لقد ظننت يا أبا هريرة: أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أوّل منك لما رأيت من حرصك على الحديث. أسعدُ النَّاس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو نفسه».

[رواه البخاري في كتاب العلم، باب الحرص على الحديث (٩٩)].

٨- عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلّى الفجرَ في جماعة، ثم قعد يذكر الله حتى تطلع الشمس، ثم صلّى ركعتين كانت له كأجر حجَّةٍ وعُمْرَةً».
=

كل ما سقناه في هذا الصدد إلى الآن كان في باب المراتب والدرجات، أما إذا تأملنا في باب الأحوال لوجدنا عمل الذكر وتأثيره كذلك، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾[1].

والطمأنينة قسمان:

أحدهما: هي الدرجة التي تجمع التصديق والإسلام.

وثانيهما: هي الحالة التي يمكن أن نعبر عنها بالسكينة والأنس.

ولما جعل الله في الاية ذكره سبباً للطمأنينة على وجه الإطلاق دخل في ذلك كلا القسمين، وإذا لم تستدل بالعموم فتجد المشاهدة هي نفسها دليلاً لذلك لأن راحة القلب لا تحصل في حقيقة الأمر إلا بذكر الله.

وما أتينا بالتدقيق والتحقيق في هذا الصدد إلا ليتضح الفرق بين حقيقة الذكر وصورته وذلك من فوائد الشيخ المجدد العلمية وكان ذلك من الواجب علينا لأنه من أهم المسائل وربما كنا أطلنا الحديث حول هذا الموضوع، لكنه لم يكن منه بد لأن الشيوخ الجهلاء قد ألحوا على الذكر الإسمي والصوري حتى خفيت في ذلك الحقيقة، فعلى كل قد تبين مما تكلمنا فيه أن الذكر الحقيقي هو ما يستحضر فيه الذاكر من يذكره إما مباشرة وإما بواسطة الجنة أو النار أو غيرهما فقد قلت فيما سبق ما معناه: أن الذكر والتذكر هو أن يلتفت القلب والذهن إلى من تحضر ذكرياته أو من تذهب إليه الخواطر.

ورمز هذا الالتفات إلى الله وعلامة ذكره الحقيقي واستحضار ذات الله، هو

=قال: قال رسول الله ﷺ: «تامَّة تامَّة تامَّة».

[رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب (٥٨٦)].

[1] - سورة الرعد الآية: ٢٨.

أن يتجنب صاحبه من أن يتعمّد معصية، ومن أن يقصّر عن طاعته، ولا بد من ذلك، لأنه لا يمكن أن تكون ذات الله وصفاته، رضاه وسخطه، عذابه وثوابه بمرأى منه ومشهد ثم لا نكترث لها، ولا نبالي بها، ويسمى هذا الذكر الحقيقي في حديث الرسول ﷺ باسم «الإحسان» وهو اسم منصوص عليه في التصوف الإسلامي لدى المحققين، وهو «**اعْبُدُ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١). فمما لا خفاء فيه أنه إذا حصل ذكر الله هذا بحيث لا يزال الرجل في حضرة الله سبحانه وتعالى وبين يديه فلا أقل من أن يكون عذاب الله وثوابه ورضاه وعقابه بمشهد ومرأى منه فكيف يمكن إذن أن تصدر من العبد معصية أو يجترىء هو على اقتراف إثم إلا أن تقع منه هفوات صغيرة وزلات يسيرة.

كيف يحصل ذكر الله:

الآية التي استند إليها الشيخ في موعظته المسماة بأكبر الأعمال تتضمن جزأين: أولهما: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾(٢).

وثانيهما: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾(٣).

أما الجزء الثاني فيرمز إلى أنه يجب على الذاكر إذا حصل له الذكر الحقيقي أن يضع أمام بصره أن جميع أعماله وأفعاله لا تخرج أبداً من علم الله، وأن الله يراها ويعلمها ﴿فإنه يراك﴾ وأيسر طريق لتحصيل ذكر الله الحقيقي أن يراقب الذاكر ويعتقد في مراقبته أن الله خبيرٌ بصيرٌ بكل ما في الوجود سواءٌ كان مكشوفاً أم كان وراء سدود وستور.

---

(١) - قد سبق تخريجه في صفحة: ١٨.

(٢) - سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٣) - سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

وقال الشيخ في الجزء الأخير من موعظته:

(أكشف لكم في هذا الصدد عن طريقة تحصيل ذكر الله وهي أن يضع الرجل أمام عينيه أن الله خبيرٌ بأعماله كلها وبذلك يسهل له تحصيل ذكر الله وتتم أعماله إذ ليس القصور الذي يساور أعمالنا إلا لأننا نعمل بدون نية ولا إرادة ولا تفكير فإذا بدأنا العمل بحيث قدمنا قبله النية والتفكير والثقة بأن الله يعلم كل ما نعمل والطريقة التي بها نعمل فلا يكون إذن إلا أن نأتي بأعمال حسنة جميلة، وإذا قويت وتركزت هذه المراقبة تيسر لصاحبها أن يتجنب المعاصي، ومن المعلوم أن حقيقة ذكر الله ليست هي أن يكون الذكر باللسان فحسب، بل إنما هو شيء آخر وهو ما يحصل بالمراقبة العلمية على وجه المثال وسواء كانت المراقبة بأن الله يعرف أعمالنا كلها فإذا قصرنا فيها لآخذنا على التقصير، أم كانت بأن المحبوب خبير بعبادتنا فإذا قصرنا فيها سخط علينا وما إلى ذلك من أمثاله).

وخلاصة القول: أن الذكر الحقيقي إذا حصل من التصوف الحقيقي فلا بد إذن أن تصبح حياة المسلم كلها بتفاصيلها ذكر الله واستحضاراً للخواطر التي تدور حول ذاته الجليلة وحول قدرته وجلاله مهما كانت صورة ذلك أو مظهر ذلك، ومهما كانت درجته وسواء كان هذا الذكر لطلب ثوابه أو التجنب عن عقابه أم كان لطلب رضاه والخوف من سخطه وعقابه أم كان يدور حول ذاته هو لا غير.

أما ما يهتم به الصوفية من الذكر باللسان فغايتهم فيه كذلك أن يستقر ذكر الله في قلوبهم، فإن لم يحصل هذا فلا أقل من أن يتحرز اللسان عن فضول القول وهجر الكلام ويزاول ذكر الله، ثم إنه إذا لم يتضامن القلب مع اللسان في الذكر فمن المأمول أن المران الذي يحصل من طريق الصوفية في توجيه القلب وحمله على العناية، إنما يتكفل هذا المران بأن تحصيل نفحات من القلب توافق اللسان وتجاريه في الأوان الذي يشتغل فيه الإنسان بشؤونه الدنيوية، وقد نشاهد هذه

الحقيقة في حياتنا العامة أننا إذا رددنا اسم واحد منا في قيامنا وقعودنا باستمرار فلا بد من أن تحضر أطيافه وخواطره حيناً إلى حين حينما يجري اسمه على لساننا ولذلك كان الشيخ التهانوي ـ رحمه الله ـ يعتقد أهمية الذكر اللساني وفائدته وكان يفضله على الذكر القلبي المعروف لدى الصوفية الذي هو معرض في أكثر الأحيان لأن يقع فيه الذهول والغفلة والغيبوبة الصامتة.

ذكر القلب أفضل أم ذكر اللسان:

سئل أحد العلماء ما هو الأفضل: الذكر القلبي أم الذكر اللساني[1]؟ فقال:

---

[1] – قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ: الذكر يكون بالقلب، ويكون باللسان، والأفضل منه: ما كان بالقلب واللسان جميعاً، فإن اقتصر على أحدهما، فالقلب أفضل، ثم لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفاً من أن يظن به الرياء، بل يذكر بها، ويقصد به وجه الله، وقد أجمع العلماء على جواز الذكر بالقلب واللسان: للمحدث والجنب والحائض والنفساء، وذلك في التسبيح والتحميد والتكبير والدعاء والصلاة على رسول اللهﷺ. وذكر الشعراني في كتابه: الميزان أن الذكر باللسان مشروع للأكابر والأصاغر ومن قال أن الذكر اللسان ربما يتوهّم البعض أن فيه رياء، يقول الفضيل بن عياض: إن ترك العمل لأجل الناس رياء ولو فتح الإنسان عليه باب ملاحظة الناس والاحتراز من تطرق ظنونهم الباطلة لانسد عليه أكثر أبواب الخير وضيع على نفسه شيئاً عظيماً من مهمات الدين، وليس هذا طريق العارفين: (الفتوحات الربانية على الأذكار النووية ص١٠٦).

وقال الإمام الغزالي ـ رحمه الله ـ اعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر أن الذكر أفضل الأعمال ولكن له أيضاً قشور ثلاثة، بعضها أقرب للب من بعض، وله لب وراء القشور الثلاثة، وإنما فضل القشور لكونها طريقاً إليه، فالقشر الأعلى منه: ذكر اللسان فقط. والثاني: ذكر القلب، إذا كان القلب يحتاج إلى موافقته حتى يحضر مع الذكر ولو ترك وطبعه لاسترسل في أودية الأفكار. والثالث: أن يستمكن الذكر من القلب، ويستولي عليه بحيث يحتاج إلى تكلف في صرفه عنه إلى غيره، كما احتيج في الثاني إلى تكلف في قراره معه، ودوامه عليه. والرابع: وهو اللباب: أن يستمكن المذكور من القلب وينمحي الذكر ويخفى، وهو اللباب المطلوب، وذلك بأن لا يلتفت إلى الذكر، ولا إلى =

إن للذكر أحكاماً مختلفة، بعضها خاص باللفظ، وهي التي نجد فيها الذكر اللساني أفضل. وبعضها خاص بالقلب، وهو الذكر الذي لا يؤدى باللسان وإنما يكون الذكر بمجرد القلب يجري فيه دائماً وهذا هو الذكر القلبي وفيه الأجر كذلك، لكنه معرض للغيبوبة والذهول، أما إذا كان الذكر باللسان فلا بد أن يحرك القلب ليساهم معه بجهد يسير وفي ذلك استمرار الحضور مع الله.

والمقصود من الذكر القلبي في هذا المحل ذكر الصوفية المعروف المصطلح عليه الذي يدعى بجريان[1] القلب وهو يحصل بالتمرين وطريقته أن يعتني الرجل بالقلب ويلتفت إليه ثم يتصور أن ضربات القلب وخفقانه يوافق نطق كلمة الله أو كلمة لا إله إلا الله، فيتمرن بذلك لمدة يسيرة يلتفت فيها إلى القلب التفاتاً يسيراً لكنه لا يستمر في الأحوال التي ينصرف فيها الذهن إلى نواح أخرى، وسأل طالب عن ذلك في كتاب له إلى الشيخ ضمنه بما يأتي:

(يجري لي الذكر القلبي في أكثر الأحيان حتى أنه يجري حين اشتغالي بشؤوني. لكنه ينقطع عني حين ينصرف ذهني وأنا أحاول أن يجري لي في جميع الأحوال حتى في هذا الوقت).

فأجاب عليه الشيخ بما يلي: (لن يبقى هذا الذكر كما تريد، لأن القلب لا يلتفت في نفس الوقت إلى جهتين، أما امتناعه فليس يحمل ضرراً كذلك، ولا بأس بالاكتفاء بالذكر القلبي إذا لم يمكن الذكر اللساني، وإن لم يكن ذلك

=القلب، بل يستغرق المذكور جملته، ومهما ظهر له في أثناء ذلك التفات إلى الذكر، فذلك حجاب شاغل وهذه الحالة التي يعبر عنها العارفون بالغناء. فهذه ثمرة لباب الذكر، وإنما مبدؤها ذكر اللسان ثم ذكر القلب تكلفاً، ثم ذكر القلب طبعاً، ثم استيلاء المذكور وانمحاء الذكر (كتارب الأربعين في أصول الدين ص٥٢).

[1] - هو ما يحصل من إكثار الذكر والاشتغال به، فيشعر الذاكر أن قلبه - وأن توقف اللسان واشتغل الإنسان - مشغول بالذكر ويسمع له روي ضعيف وضربات مستمرة.

كذلك، فلا بد من الذكر اللساني، وليس لصاحب الذكر أن يقتصر على الذكر القلبي ولو جرَّ ذلك إلى قلة في الذكر القلبي).

هذا هو الذكر القلبي المصطلح فإن مداره هو التخيل بأن صوتاً (كذا) يصدر من ضربة قلبية (كذا) وخفقة (كذا) وإذا اقتحمت فيه تخيلات أخرى فلا يبقي ذلك غير الذكر اللساني فإنه يبقى في مثل هذه الحالة كذلك.

(جاء رجل إلى الشيخ ولي الله الدهلوي وقال له: يا سيدي إن قلبي جرى، فقال له: إن خفقان القلب ليس بجريانه، إنه ليس إلا أن يدوم ويستمر ذكر الله في القلب. وكثيراً ما يقول الناس أن فلاناً من الشيوخ ترتعد فرائصه ويضطرب لحمه فهو شيخ كامل والذين لا يتصفون بهذه الأحوال فلا يقولون عنهم إلا أنهم (صالحون) غير أنهم ليست عندهم الكمالات الباطنية مع أن الحقيقة هي أن الكمالات الباطنية أشياء خفية لا علاقة لها بارتعاد الفرائص ولا اضطراب لحم الرجل)[1].

خطأ جسيم في باب الذكر:

وقع كثيرٌ من الناس في خطأ جسيم في باب الذكر إذ حسبوا أن مجرد هذا الذكر يكفي لإصلاح جميع الأعمال والأخلاق وهم أشد خطأ حينما يحتجون لزعمهم هذا بأنه قيل: «**أَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[2].

---

[1] - الرفيق في سوء الطريق ص٧٣.

[2] - رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: «و يحذركم الله نفسه» [سورة آل عمران، الآية: ٢٨...]، رقم الحديث، (٧٤٠٥) ومسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب الحث على ذكر الله تعالى، رقم الحديث (٢٦٧٥) والترمذي في الدعوات، باب في حسن الظن بالله عز وجل، رقم الحديث(٣٦٠٣) وابن ماجة في الأدب، باب فضل العمل، رقم الحديث، (٣٨٢٢) وأحمد (٣/ ١٣٨).

فيظنون أن هذا يدل على أن العبد يتقرب إلى الله بالذكر فإذا تقرب إلى ربه فكيف يمكنه أن يعصيه أو يأبى أوامر ربه، فإذن لا حاجة له إلى وسائل أخرى لإصلاحه.

(وهذا خطأ فاحش لأن وسائل الإصلاح داخلة في كلمة «ذكرني» فلا يثبت ذكر الله بدون معالجة الأمراض ومداواتها إقرأ: الحصن الحصين. تجد فيه: بل كل مطيع لله ذاكر. فمعنى الذكر التذكر، والتذكر يأتي من طرق مختلفة، لا أن ينطق اسم شيء ويردده فقط! أفيعد ذكراً أن لا يكاتب ولا يراسل ولا يكلم ولا يزور ولا يمتثل الأوامر؟! كلا، إنه ليس من الذكر في شيء. أما الذكر الذي لا يصحبه الإصلاح فليس إلا مثل هذا).

وعمّت هذه الفكرة الخاطئة حتى في المشايخ العظام، فإنهم إذا أخذوا البيعة ولقنوا عدة أذكار فكأنهم انتهوا من عملهم، فلا صد لفساد الأعمال والأخلاق، ولا عتاب ولا استجواب، ولا مداواة ولا تدبير، بل وإذا عرض الطالب على شيخ من هؤلاء المشايخ مرضه وطلب منه علاجه يقترح عليه ذكراً أو ورداً، أما الشيخ المجدد فمختلف عن هؤلاء في هذه الناحية، إذ يقترح بتغيير جليل في كيان التصوف السائد، ولذا نعد ذلك مجهوداً كبيراً، له قيمة كبيرة، فقد جعل المؤاخذة والمداواة في الأعمال والأخلاق في الدرجة الأولى بالنسبة إلى الأذكار المعروفة والأعمال والأوراد السائدة.

وجعل هذه الأذكار وما إليها في الدرجة الثانية، بل والثالثة، فلم يكن الحديث عنها يتي في مجلسه إلا نادراً، أما النقد على الأعمال والأخلاق فقد كان كثيراً في مجلسه.

(سأل طالب عن ورد يكون سهلاً، أو خطة يكون العمل بها ميسوراً، ويمكن معهما للطالب أن يتقدم في الطاعات ويتجنب المعاصي، فرد عليه

الشيخ بقوله: أن الطاعات والمعاصي إنما هي أمور اختيارية تحتاج إلى إرادة الطالب وعزمه وجهده، ولا تحتاج هي إلى ورد ما وليست الخطة فيها إلا تلك التي تكون في الأمور التي حصل للرجل فيها الاختيار وهي أن يستعمل الرجل في هذه الأمور قدرته واختياره ولا شيء غير هذا).

وقال في مناسبة من المناسبات:

(إن مجرد الورد لا يكفي أبداً، أحلف بالله أن شيوخ الأوراد المجردة لا يوجد لديهم الإصلاح، والإصلاح لا يأتي إلا باختيار طرق الإصلاح).

فخلاصة القول: إن حقيقة الذكر يعني ذكر أحد بالقلب. وانتفاء الغفلة عند ذلك هي الهدف الأصيل للشريعة، بل إنها أعلى درجات العبادة والطاعة، وهي درجة الإحسان، ويؤدى هذا الذكر بتخيل المذكور واستحضار ذاته في المخيلة بحيث يصبح الحال كأن الذاكر بين يديه يرى هذا ذلك، ويرى ذلك هذا، إن حياة المسلم كلها عبودية، ومعنى الإسلام هو الاستسلام والخضوع التام والطاعة المطلقة، وهذان أمران تجدهما روح تجديد التصوف عند الشيخ المجدد، وهما العناية بالطاعة وإدامة الذكر، أو التجنب الصارم من الغفلة والمعصية.

أما التصوف يعني الذي دوّنه الشيخ كمنهاج لطريق كمال العبودية الخالصة والذي سماه قصد السبيل إلى المولى الجليل فقد ذكر فيه بعض التفصيل.

طريق الطاعة والذكر ملخصاً:

(وميزان كل هذا، وخلاصة الطريق إلى الله هما أمران: الطاعة والذكر، أما الطاعة فتزول بالمعصية، وأما الذكر فيختل بالغفلة، ولذلك يجب على المرء أن يرى من واجبه إدامة الذكر والطاعة وتجنب المعصية والغفلة).

أربع طبقات للسالكين:

أما الأشغال والمراقبات والأحوال والوجدانيات والكشوف والكرامات والبيعة والنسبة وغير ذلك فقد أوضح حقائقها في كتابه (قصد السبيل) ويمكن تقدير ذلك بأن جعل فيه أولئك الذين يقصدونه أربع طبقات، الأولى للعامة المشتغلين، والثانية للعامة المتفرغين، والثالثة للعلماء المشتغلين، والرابعة للعلماء المتفرغين، ثم نهى العامة المشتغلين عن ممارسة (الأشغال) برمتها وقال: (فيها أخطار متنوعة لا يحتملها الرجل العامي)، ولم يترك العالم المشتغل أيضاً بل فرض عليه قيداً وهو:

(أنه إذا كان بعيداً عن الشيخ فعليه أن لا يمارس الأشغال).

(والذي يبدو من الحكمة في الجهر أن الوساوس والخطرات قلما تلم عند ذلك لأن الصوت في الوقت الذي يتردد إلى الآذان يسهل للقلب أن يلتفت إليه وهذا النفع إنما يحصل عند الجهر الخفيف أيضاً).

(وليس الضرب قربة من القربات بل فيه حكمة طبية وهي أن الحركة العنيفة تنشىء الحرارة، والحرارة تولد الرقة واللين، واللين يفضي إلى التأثر، والتأثر يساعد في الطاعة والحب الذين هما من الغايات، فالضرب لكونه سبباً للغاية، غاية بدون مباشرة، والإكثار في الضرب قد يفضي إلى خفقان القلب، ولذلك يجب أن لا يتعدى صاحبه القصد في ذلك).

(كان ذلك تحقيقاً علمياً فيه ما يحتاج إلى الشرح والإيضاح. هو أن كثيراً من كتب هذا الفن تحوي مع هذا الذكر على الإرشاد إلى هزّ الرقبة يميناً وشمالاً، فعليهم أن يعرفوا أن طبائع القدماء وأذهانهم كانت قوية تستطيع أن تحتمل كل ذلك بل أنها لم تكن تقبل التأثير والتغيير بدون ذلك لقوة طبائعهم ولجفوتها، ولذلك كانوا يفتقرون إلى ذلك، أما الآن فقد طرأ الضعف، وأصبح القلب يتأثر

بأدنى جهد وأقل محاولة للأشغال، فلا يحسن للطالب أن يأتي به، لأنه إن أتى به فيكون من انحراف عقله وذهنه على خطر).

والمراقبة التي اقترحها الشيخ ـ رحمه الله ـ للعالم المتفرغ في ذلك المنهاج هي مراقبةالموت، وهي أن يتمثل الطالب الوقائع التي تقع بعد الموت من حساب وكتاب وغيرهما، ويتصورها كأنها تواجهه وتعرض له، والحكمة في ذلك والغاية فيه: أن ينشأ حب الله بإكثار الذكر، وينشأ البغض للدنيا وما والاها من طريق هذه المراقبة، أما هذان يعني البغض والحب فيساعدانه في الفلاح والنجاح.

(يكفي للرجل التزام التقوى، وهذا الذكر وهذه المراقبة، وإن واظب عليها لقي في الآخرة جزاءاً كريماً وليس الوعد بالثمرات إلا في الآخرة ويُلقي الله في قلب الرجل علوماً غريبة ومعارف قلبية وواردات عجيبة ووجدانيات مختلفة من شوق وذوق وحب وأنس ومهابة، ويبين له أسراره وأحكامه كيف يمكنه تقوية الصلة والرابطة وتحسينها بين الله وبينه وما إلى ذلك مما يتضاءل أمام متعتها ملك الدنيا وتسمى هذه الشؤون أحوالاً وتسمى كشفاً إلهياً لا يشق غباره في اللذة والمتعة ولن تجد تأثيراً في التقرب مثله).

إنما يكفي إكثار الذكر وإدامته الذي نص عليه مع الاعتناء بالتقوى والاهتمام بالطاعات، غير أن بعض الناس لا يتمكنون من إحراز حضور القلب والانصراف بالكلية إلى الله ولو أدمنوا الذكر لمدة طويلة فيجوز لهؤلاء أن يعالجوا شغلاً من الأشغال يسمى عند الصوفية المتأخرين بشغل (الخد) يوافقهم ويلائمهم وأذكر لكم على وجه المثال شغل الخد الذي يسمع فيه أصوات ممتعة مريحة.

(بل وتصدر في بعض الأحيان أصوات لذيذة مطربة تسبي القلوب وقد تفضي بالشاغل إلى الغيبوبة والالتفات إلى جهة واحدة، تزول الخواطر الأخرى لأجل الالتفات إلى الشيء المحسوس الممتع طبعاً، وبذلك يتعود الذهن على العناية بناحية واحدة وبشيء واحد).

ولما لم يكن الشغل غاية ومقصوداً بالذات ورأوا أن الطالب قد تعوّد، يصرفون هذه الملكة إلى المقصود الحقيقي الذي لم يكن له ميسوراً من قبل أن ينصرف إليه لأنه وراء إدراك حواسه كما نبه في صدد ذلك على مغالطة كبيرة يقع فيها الطالب وهو ظنه أن الصوت الذي يسمعه عند ذلك الشغل هو من صفة الله، كلا إنه ليس من صفته حيث أخطأ بعض الناس في فهم هذه الحقيقة، بل إنه ليس صفة من صفات أي خلق من خلائق عالم الغيب، أنه ليس إلا ريحاً ينفذ إلى دماغ الرجل وينحبس فيه فيتقلقل فيه، أما الآثار والنتائج والظاهر التي ليست إلا وليد الأذهان ينظر إليها الصوفية الجهلة والإشراقية بعين الإكبار ويزعمون أنه قد تفتحت لهم أبوب الغيب فيُبجِّلونها بل ويؤلهونها!!.

(وكما أن مصدر مثل هذا الصوت هو الدماغ ترى كذلك أن الأنوار والأضواء المختلفة التي تظهر وتصدر من أذكار وأشغال مختلفة ليست في أعم الأحوال إلا صوراً تولدت في الذهن والدماغ، ولذلك تجد الرجل الذي لا علاقة له بالشغل أنه إن أغمض عينيه بهذه الطريقة أمكنه مشاهدة الألوان والأشكال فعلى السالك أن لا يغترّ بأمثال ذلك ولا يعيرها التفاتة، بل وإن انكشفت له بعض الأشياء من عالم الغيب كما قد يقع في بعض الأحيان عند الانقطاع والاستغراق، فعليه أن لا يلتفت إليه ولا يستلذ به، سواء كانت تلك الكشوف من عالم الناسوت، أم من عالم الملكوت فإنها جميعاً غير مقصودة ولا مطلوبة، وقد قال الشيخ المرشد الحاج إمداد الله[1] ـ رحمه الله ـ أن الحجاب النوراني أشد من الحجاب الظلماني أنه يجب على الطالب نفيه والقضاء عليه بقوة التوحيد.

---

[1] – هو الشيخ العارف بالله إمداد الله بن محمد أمين العمري التهانوي المهاجر إلى مكة المكرمة، كان من الأولياء السالكين العارفين، ولد ب «نانوته» (في الهند) وتوفي في مكة المكرمة عام ١٣١٧هـ. كان منقطع النظير في علو الهمة، وإجلاله للعلم والعلماء وتعظيم للشريعة والسنة النبوية، نفع الله به خلقاً كثيراً، أجلهم الشيخ رشيد الكنكوهي، والشيخ قاسم النانوتوي، والشيخ يعقوب، والشيخ أشرف علي التهانوي.

ولما كانت الأشغال والمراقبات غير داخلة في غايات التصوف وكانت مجرد وسائل وأسباب وجب أنه إذا ظهر ضررها أو فسادها أن يتخلى عنها الخاصة فضلاً عن العامة. ومما لا يلائم أكثر الخاصة من الأشغال شغل الرابطة وتصور الشيخ، ومن المراقبات مراقبة وحدة الوجود، بل وهذه تضرهم، ولذلك أصبحت متروكة كما قال الله تعالى في الخمر والميسر لما كانا حلالين: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[1].

مبدآن أساسيان لتجديد التصوف:

أما أساس تصوف شيخنا ـ رحمه الله ـ الذي يعد بحق تجديداً وإصلاحاً عظيماً في التصوف هو مبدأ أنه يجب التجنب فيهما في جميع الأوقات عن أمرين:

أحدهما: الغفلة وعلاجها هو الذكر كما سبق.

وثانيهما: المعصية ويرى عامة أهل الدين وأصحاب العلم الظاهري أن المعاصي هي الكبائر من الذنوب وما تقترفه جوارح الرجل، أما صغائر الذنوب وما يخص القلب والباطن منها فلا يكترثون لها كثيراً، ومما لا ريب فيه أن مقام المتصوف هو درجة الإحسان والشهود، أنه يتصور الذات الإلهي ويجده مشاهداً موجوداً في كل مكان وكل زمان ولذلك يحاول تجنب المعاصي كلها سواء كانت صغيرة أو كبيرة، صدرت من القلب أو اقترفها اللسان أو اجترحتها الرجل.

(الغفلة تجرف النورانية والإشراق من القلب، والمعصية تضيف إلى ذلك بأن تزيده في السقوط عن التقرب والقبول عند الله، فلا شك أن هذه خسارة كبيرة).

ولأجل ذلك ألحّ الشيخ على العناية الفائقة في ذلك.

---

[1] - سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(أنه يجب على المرء أنه إذا بدرت منه هفوة أو معصية سواء كانت قولية أم فعلية بسبب من غفلته أو خُبت من نفسه فعليه أن يستغفر ربه بكل ضراعة ويندم على فعله ويتوب إلى الله، بيد أن بعض المعاصي أعظم ضرراً وأكبر خطراً، فيجب على الطالب في صددها أن يكثر حذره واحتياطه فيها وتجد من هذه المعاصي الرياء والاستكبار، ويتولد منها أحياناً الفخر سواء كان هذا الفخر على فضيلة دنيوية أو فضيلة دينية، وتجد من هذه المعاصي الغيبة والوشاية والنقد والطعن والاعتراض، وكثيراً ما يرزأ الهجر من الكلام وفضوله صاحبه ويسلب شيئاً كثيراً من نور قلبه، ولذلك يحسن لطالب الحق أن يجتنب إكثار مخالطة الناس، والتآلف معهم، إلا إذا مست الحاجة إلى ذلك، ومن هذه المعاصي التفات الرجل إلى موضع لا يجوز له الالتفات إليه برغبة أو شهوة، سواء كان هذا الالتفات بالنظر أو بخاطر يخطر بالقلب، ومن هذه المعاصي تجاوز الحد المشروع في الغضب أو إتيانه بالغضب في غير موضعه أو تعرضه لأحد بغلظة أو قسوة).

وإذا تصفحت أحوال الصوفية الذين يجعلون الأشغال والمراقبات الفارغة التي ليس وراءها شيء غاية وحقيقة للتصوف، وإذا استعرضت أحوال العلماء الذين لا يرون الذنوب والمعاصي إلا الأعمال الكبيرة الظاهرة والمقلدين، ثم إذا رجعت إلى العبارات السابقة في هذا الكتاب اتضح لك إذن أن أنصار التصوف ومنكريه، كلا الفريقين في جهل عن التصوف وفي ضلال عن الشريعة.

النسبة الباطنية:

التي أسرها وأخفاها أهلها إلى أن خفيت حتى من أنظارهم أبيّن لك حقيقتها وأماراتها أنها ليست سوى كمال الذكر والطاعة.

(أمران هما من علائم حصول النية الباطنية، أحدهما: أن يصبح الذكر

والاستحضار ملكة راسخة لا تماورها غيبوبة ولا يحتاج صاحبه معها إلى التكلف والجهد، وثانيهما أن ترغب النفس إلى أحكام الشرع من عبادة ومعاملة، ومن قول وعمل وخلق، رغبتها إلى المرغوبات واللذائذ الطبعية المحسوسة وتعرض عن المناهي الشرعية كلها، وتكرهها كراهة طبعية، شأنها مع المكروهات الطبعية المحسوسة، وأن يخلو القلب عن حرص الدنيا والرغبة إليها، إلا أن يصبح القرآن خلق الرجل، أما الوساوس العابرة أو الكسل العارض الذين لا يتلوهما عمل أو فعل فلا يخالفان تلك الرغبة والأعراض).

كما أن مجرد ملكة التذكر لا تعد جزءاً أصيلاً للنسبة لأن هذه الملكة قد تجتمع مع هذه المعصية فليس الأمر الحقيقي إذن إلا طاعة الله ورضاه، ولا عبرة للرضا كذلك، إلا إذا كان حاصلاً من الجانبين، وهو أن لا نرضى عن الله نحن فحسب، بل ويرضى الله عنا كذلك. ولا وسيلة لذلك كما يظهر إلا أن يطاع أمر الله ويمتثل أحكامه، يقول الشيخ:

(يظن الناس اليوم أن ملكة التذكر هي النسبة وهي قد تأتي من الذاكر فحسب، وقد تجتمع مع المعصية أيضاً، بيد أن النسبة المطلوبة ليست إلا عنواناً للعلاقة التي تتبادل بين الجانبين فتكون علاقة العبد بالله طاعته وذكره وتكون علاقة الله بالعبد رضاه عنه وهذه هي النسبة المطلوبة).

وكتب عن حقيقة النسبة في رده على استفسار أرسله إليه طالب:

كلمة النسبة تتضمن معنى المناسبة والعلاقة، مع أن معناها المصطلح هو صلة خاصة بين العبد وبين الله في مظهر الطاعة والذكر، وصلة خاصة بين الله والعبد في مظهر القبولية الحاصلة له منه ورضاه عنه، مثلما يكون بين المحب المطيع والمحبوب الشاكر، ولما ثبتت هذه الحقيقة ظهر أن الفاسق والكافر لن يكونا من أصحاب السنة، ويزعم بعض الناس أن النسبة كيفيات مخصوصة

وهي تنتج من الرياضة والمجاهدة، وليس هذا إلا اصطلاح من لم يتعمق في العلم ولم يعرف حقيقة الأمر.

وشاع بين الناس أن النسبة قد تُسلب وتنتزع من صاحبها وأن الشيخ الفلاني غضب على الشيخ الفلاني فانتزع نسبته! ذكر الشيخ ذلك وقال:

تذكرت أمراً مفيداً، وهو أنه شاع بين الناس أن الولي الفلاني انتزع نسبة فلان من الأولياء، ذكر الشيخ الكبير مولانا رشيد أحمد الكنكوهي[1] ـ رحمه الله ـ ذلك فقال: إن النسبة عنوان للتقرب إلى الله، وليس في مستطاع أحد أن ينتزعها، وكيف يمكن هذا، وكيف يستطيع رجل أن ينتزع ما منحه الله وأكرم عبده به؟ وليست حقيقته إلا أن يؤثر شيخ بتصرفه الباطني في باطن رجل آخر فتضمحل كيفيته الباطنة وتضعف، وينتج من هذا العمل العناء والخمود مكان النشاط بيد أن صاحبه يقدر على مقاومة ذلك، أما إذا لم يقاوم فقد يؤثر الاختلال في العمل في النسبة الباطنية.

لا يصح خدمة الخلق بدون تصحيح الرابطة بالرب:

وفي الحديث عن هذه النسبة للشيخ نصيحة غالية تكبر على علماء الدين ومديري المدارس الدينية، فضلاً عن الزعماء والصحافيين الذين يخوضون في معركة السياسة والزعامة والإصلاح العام قبل أن يتهيأوا لها خلقاً وباطناً ويعدوا لها عدتها الروحية، وملخصها أنه لا يجوز أن يخرج الرجل في ميدان السياسة والإجتماع حتى يُحكِم النسبة ويقوي العلاقة بالله، بل ولا يجوز له أن يمارس أعمال الدرس والتدريس، والوعظ والإرشاد، والتأليف والتصنيف وأمثالها من أعمال دينية حتى يؤكد صلته مع الله تعالى، ولو كان متفرغاً وعالماً معترفاً به، وهناك ناحية خاصة من نواحي هذا المنهاج، وهي أن الرجل

---

[1] - وقد سبقت ترجمته في صفحة(٢٥).

ما دام لم تحصل له قوة ورسوخ في نسبته الباطنية لا تجوز له ممارسة الإفادة والتعليم الظاهرين ولا الإقبال على الإفادة الباطنية، فليس له أن يخطب في جماهير الناس ولا أن يعلم الطلاب، ولا يجلس لمداواة الناس إذا كان طبيباً، ولا أن يكتب تعويذات وأحجبة، بل إن عليه أن يبقى في خموله، إلا أن يضطر إلى شيء من ذلك، أما إذا أكمل مراحل تحصيل النسبة وإحرازها، فلا بأس له أن يقوم بالمواعظ والتأليفات، ولا حرج في ذلك، لأن خدمة علم الدين هي من أفضل العبادات، كما أنه يجوز له إذا حصل له السماح من شيخه بالتربية الباطنية والتلقين وأخذ البيعة، أن يمارس كل ذلك أيضاً، فينفع بذلك عباد الله، غير أنه إذا لم يأذن له شيخه بذلك فلا يجترىء عليه أبداً.

أما ما يسميه الناس بالسياسات وخدمة الشعب والمجتمع فإلى القارىء مثال عن ذلك:

(انتخب الناس رجلاً من مريدي الشيخ - رحمه الله - ممن حصل له السماح بأخذ البيعة والتربية لعضوية البلدية، لكنه توحش منها وامتعض امتعاضاً شديداً، ثم استقر رأيهم على أن يراجع شيخه في هذه القضية فقال الشيخ: ما دامت الصلة لم تَقْوَ مع الخالق فالاتصال بالخلق يضر ضرراً شديداً إذا لم يكن عن ضرورة شديدة، أما الفائدة المرجوة من خدمة الخلق وأداء حقهم عن هذا الطريق فإنها لا تحصل كذلك حتى ترسخ النسبة مع الخالق وما دام لم ترسخ نسبته مع الخالق فلن يقوم بحق الخالق، ولا بحق الخلق، وليست هذه تجربتي ولا تجربة رجل واحد، بل هي تجربة ألوف من أهل البصائر. وقد ترك هذا التعلق بالخلق من يفوقنا في التمكن والرسوخ والهمة والعزيمة مثل إبراهيم بن أدهم البلخي[1]، والسلطان الشجاع الكرمانيُ ، أما

---

[1]- هو إبراهيم بن أدهم بن منصور التميمي البلخي أبو إسحق، زاهد مشهور، كان =

الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم، فليس لنا أن نقيس أنفسنا بهم.

بيد أنه قد عم هذا البلاء في عصرنا هذا، فشتان ما بين اليزيدين في الوغى، تقليداً لزعماء السياسة ورجال القيادة وأصحاب السياسة اللادينية، وشاع في الناس فأصبح الرجل يفكر في إصلاح غيره من الخلق جميعاً قبل إصلاح أصحابه وعشيرته، وقد تولى بعض رجال الدين مؤسسات ومنظمات كبيرة تعود عليهم منها مسؤولية كبيرة كمسؤولية الراعي في رعيته، وأخذوا على عاتقهم أمانة لا يمكنهم أن يوفروا من أوقاتهم ما يستطيعون فيه فهم تفاصيلها وحقيقتها فضلاً عن أن يتمكنوا من إحسان أدائها وإلقاء حقوقها، ولم نسترسل في هذا الموضوع الشائك، ولم نذكر تجاربنا إلا لأجل أن نصرح بأن كل ما نرى في أمورنا الإجتماعية من فساد وخلل وفوضى ليس سببها إلا أن حقوق الخلق لا تؤدى بدقة وكمال، والدقة والكمال لن يحصلا إلا إذا سبقت هذه الأعمال كلها العلاقة الخالصة الصادقة الوثيقة بالخالق، وصحبها الحذر من المحاسبة والاستجواب يوم القيامة، والتفكير فيه أيضاً، ولم يقبل الرجل المسؤوليات والمناصب لطلب الجاه والمال كما عم في هذا العصر.

المجاهدة:

كان البحث في أن الأشغال والمراقبات وغيرها ليست من غايات التصوف، بل هي من وسائله، وتشبهها في ذلك المجاهدات وقطع العلاقات أيضاً، فهي

=والده من كبار الأغنياء في مدينة «بلخ» ورحل إلى بغداد، وطاف في العراق والشام والحجاز، واستفاد من علماء هذه البلاد، أخباره كثيرة، وفيها اضطراب واختلاف في نسبته وسكنه ومتوفاه، ولعل الراجح أنه مات عام ١٦١ هـ في «سوفنن» (حصن من بلاد الروم) ودُفِنَ فيها.

(١)- لم أعثر على ترجمته.

ليست إلا طرقاً للسعي والجهد في سبيل الأعمال المقصودة والطاعات الحقيقية، أو في طلب قربات الله ورضاه، وليست مقصودة بذاتها، أما حقيقة المجاهدة فهي التدريب على إنكار الذات ومخالفة النفس، ليمكن التغلب على الشهوات وعلى ميل النفس إلى الرغائب من نعمة الجسد ووفرة المال واكتساب الجاه، وقد عبر عنه القرآن بالجهاد بالأنفس والأموال، ووعد بالهداية والرشد على هذه المجاهدة ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾[1]. ونجد عند الشيخ تقرير حقيقة هذه المجاهدة وتجديدها بقوله:

مطالب النفس اثنتان، أحدهما الحقوق، وآخرهما الحظوظ، أما الحقوق فلا يقوى الجسم إلا بها، وليست الحياة بدونها، وأما الحظوظ فهي فاضلة عليها وتأتي بعدها، فغاية المجاهدة هي أن تبقى الحقوق وتفنى الحظوظ.

وكما أفرط الناس في جانب ترفيه النفس حيث يقصرون حياتهم كلها على هذا الجانب من امتاع النفس واقتناص الملذات فكذلك أفرط غيرهم ممن كانوا على عكسهم في التقصير في الاستجابة لمطالب النفس الحقيقية التي لا يمكن أن تستقيم الحياة بدونها، فإنهم يحرمون النفس حقوقها والكفاف من قوتها، كاليوك والإشراقيين، وحسبوا أن المجاهدة هي أن تبخس حقوق النفس وتمحق مطالبها جمعاء، ويحسبون ذلك طريقاً إلى نجاة الروح وفلاحها.

فأصبح الصوفية يزعمون أيضاً أن رضا الله لا يحصل إلا بمخالفة النفس، وكلما كانت هذه المخالفة أشد كان رضا الله أعظم وأقوى، ولو كانت هذه المخالفة لا تتفق مع الشريعة الإسلامية، حتى أنه قد يبدو لبعضهم فيحرِّمون على أنفسهم اللحم فلا يأكلونه، ويمتنعون عن البارد من الماء فلا يشربونه، ومنهم من يجتنب الفراش الوثير فلا يضطجع فيه، وغلت طائفة ممن حرمت

---

[1] - سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

نعمة الإسلام، فتجاوزت إلى حد أنهم قد يجففون جوارحهم ويميتونها، وقد شاهدت كافراً كان أشعل النار حول نفسه وجلس في وسطها. فهذه كلها أعمال ما أحرى بها أن تنسب إلى الجهالة العمياء، ولا تجد الاعتدال والقصد إلا في أولئك الذين جاهدوا مجاهدة في تقويم النفس وإصلاحها محتفظين بالأوامر الشرعية، فلا يتعدون حدود الإباحة، ولا يباشرون هذه المجاهدة إلا بصفتها علاجاً ومداواة وأنها أسباب ووسائل لا يمكن أن تحل محل العبادات، ولا يتخذونها ذريعة إلى التقرب إلى الله، ولا يدع أحدهم طعاماً إلا إذا رأى فيه ضرراً طبياً وما أشبه ذلك، وإذا تركوه فلا يعدون تركهم له شيئاً من التحنث، وأما إذا تركوه ظانين أن تركه عبادة ونسك، ورجوا في هذا العمل جزاء ومثوبة، فقد أذنبوا لأنهم أضافوا بذلك إلى الشريعة الإسلامية حكماً لم يكن فيها من قبل، وهذا في هذا العمل جزاء ومثوبة، فقد أذنبوا لأنهم أضافوا بذلك إلى الشريعة الإسلامية حكماً لم يكن فيها من قبل، وهذا هو السر في فساد البدعة وقبحها فهؤلاء إذا هجروا شيئاً لا يهجرونه إلا للوقاية من مرض أو للاحتراز من ضرر مادي، أما أولئك الناس فلا يتركونه إلا لأنهم يحسبون هذا العمل عبادة وذريعة إلى التقرب إلى الله ووسيلة من وسائل المثوبة.

فعلى كل إن منح الجسد قسطه من الراحة وحظه من الترفيه، وبهجة النفس وتأدية ما لها من حقوق لا يسع أحداً إنكاره، ولذلك وضعت الشريعة الغراء لكل شيء حداً ينتهي إليه، فقد كان سيدنا أبو الدرداء يطيل السهر بالليل، فنهاه سلمان الفارسي عن ذلك حتى بلغ ذلك سيدنا رسول الله ﷺ فقال: صدق سلمان وقال: «**إنَّ لِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقّاً**»[1].

---

[1] - والحديث بطوله عن أبي جحيفة وهو وهب بن عبد الله ﷺ قال: آخى النبي ﷺ بين سلمان، وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أمَّ الدَّرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا. فجاء أبو الدرداء فصنع له =

أسفاً لهؤلاء المتصوفة المتعسفين الجهلة فقد زيَّفوا التصوف وأفسدوه وجعلوه مخيفاً موحشاً، يقترحون الاعتكاف الصوفي ويشيرون بتطليق الأزواج، وينصحون بالتبتل عنهن، وإقصاء الأهل والأولاد، وكان تؤخذ أربعون حبة حمص، فلا يتناول الأحبة منها كل يوم، وقالوا: إن الولاية والوصول إلى الله لا يتأتى بغير هذا، أما أنا فأقول بكل صراحة أن الولاية والوصول يحصلان حتى على البسط الناعمة، والوسائل اللينة، وفي الإمارة ومع لذائذ الأطمة، لكن يشترط أن يكون الطالب خارج البيت، وفي خدمة شيخ كامل.

وقال: إن السالك لا يحتاج إلى كساء غليظ وثوب مرقع بل تحصل له المشيخة إذا أراد في الخلع الفاخرة والملابس الناعمة، وفي الملوكية كذلك، لكن بشرط أن يكون طلبها بطريقها.

صدق من قال: إن طريقة الشيخ للتصوف طريقة ملكية فإنه لا يطلب رياضة ولا يفرض مجاهدة ولا يوجب قطع العلائق ولا ينصح بحجر الملذات والمباحات، بل يسمح بكل ذلك وبراحة شاملة لينشأ حب الله في القلب، وتنشط النفس للعبادة، ولكن ينهى عن الاقتراب إلى الذنب وينصح بمراقبة النفس وتفقدها كل وقت، ويفرض تقليل الطعام والمنام، وقد ترك المحققون الحث على هذه المجاهدات الشاقة، فإن النفوس واهنة ضعيفة في هذا العصر،

=طعاماً، فقال له: كُلْ، قال: إني صائم، فقال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقومُ، فقال له: نم. فنام ثم ذهب يقوم فقال له: نم، فلما كان آخر الليل قال سلمان: قُم الآن، فصليا: فقال له سلمان: إن لربِّك عليك حقّاً، ولنفسك عليك حقّاً، ولأهلكَ عليك حقّاً، فأعط كل ذي حقٍّ حقَّه، فأتى النبيﷺ فذكر ذلك له، فقال له النبيﷺ: «صدق سلمان».

[رواه البخاري في كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، رقم الحديث (١٩٦٨) و(٦١٣٩) وأخرجه الترمذي في الزهد، باب في إعطاء حقوق النفس و الرب و الضيف و الأهل، رقم الحديث(٢٤١٣) وابن حبان (٣٢٠) والبيهقي (٤/ ٢٧٦)].

وأما قلة الكلام وقلة المقابلات والزيارات فلا بد منهما، لكن بالقدر الذي لا يشق على النفس ولا يرهقها ولا يسلب أنسها وانبساطها، بل إن طريقة الشيخ هذه ليست تصوفاً ملكياً فحسب، بل إنها شارع ملكي يمكن لكل واحد أن يسلكه إذا أراد بدون ضرر ولا خطر، فهو لا يستعصي على أحد أيّاً من كان، سواء كان عالماً أم عامياً، مشتغلاً أم متفرغاً حراً، صحيحاً أم سقيماً، قويّاً أم ضعيفاً، يملك ثروة فائضة أو لم يكن يملك كفاف يومه من الطعام، وهذا هو الذي يمكن لنا أن نقول عنه أنه معنى القول المأثور: «**إِنَّ الدِّيْنَ يُسْرٌ**»[1].

لأنه لا يدفع الإنسان إلى مالا يسعه وما لا يستطيعه، ولا يقتصر تحققه على استقلال بلد أو على حكومة إلهية.

معالجة الشدة والعناء بدون الحاجة إليها لن تسمى مجاهدة:

وليس من المجاهدة أن تحرم النفس حقوقها الواجبة لها، وأن تدفعها إلى التكلف ومعالجة الشدة والعناء دون مبرر لذلك، بل يجب أن تريحها إذا لم يكن هناك داع للقسوة عليها وإتعابها، ويقول الشيخ في صدد ذلك:

يوجد عند الصوفية وسيلتان للوصول إلى الغاية، إحداهما قاسية شديدة، وأخراهما ملائمة للنفس، فما الذي يمنع من اختيار السهل الملائم؟! ويصدر منه، قال رجلٌ وكيف يمكننا أن نستغني عن المجاهدة ولو لقدر يسير؟! فرد عليه الشيخ قائلاً أن المجاهدة ليس معناها تكلف الشدة ومعالجة العناء فإنك إن وجدت بئراً بجوارك وأخرى على بعد مئة ميل أفتفضل أن تجلب الماء من تلك البئر البعيدة

---

[1] - الحديث بكامله عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيﷺ قال: إن الدين يُسر، ولن يشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالْغَدْوة والرَّوحة وبشيء من الدُّلْجَة.
[رواه البخاري في كتاب الإيمان: باب الدين يسر رقم الحديث(٣٩)و(٦٤٦٣) والبيهقي (٣/ ١٨) وابن حبان (٣٥١)].

متخطياً هـذه البئر القريبة حينما تحتاج إلى الماء، لا والله، فعليك أن تعرف أن المجاهدات والرياضات ليست بغايات بذواتها، بل هي وسائل للوصول إلى الأمر المطلوب والغرض المنشود، وأنها طرق إليه وليس المقصود إلا الوصول إلى الغاية، فلا يجب هجر المتع والملذات فيها، بل إنما يجب تقليلها والزهد فيها.

حقيقة الزهد:

تحدث أحد العلماء في أمر الزهد وقال: إن للزهد فضيلة كبيرة، فقال الشيخ أنه ليس من الزهد أن يترك واحد متعه وملذاته، بل إنما هو أن يقلل منها، وأن لا ينغمس فيها، فليقصر فكره وهمه عليها، ويفكر فيها ليل نهارلا، وما يحسن أن يطبخه من الأطعمة وما يحسن أن يبتاعه من الحاجيات والكماليات، ويتكلم في مثل هذه الأغراض دائماً ويقول: أن الأرز من موضع كذا أطيب وألذ من الأرز الذي يكون في موضع كذا، فيجب أن يشتري هذا ولا يشتري ذلك، وأن القشطة التي توجد في حانوت كذا أطيب وألذ من التي توجد في حانوت كذا. فلا يقطع نهارهه وليله إلا في الكلام في مثل هذا، والمناقشات حوله وحول الأقمشة والثياب الفاخرة، والأطعمة الشهية من كل نوع. فهذا هو الذي ينافي الزهد ولا يجتمع معه أبداً، غير أن هذه الملذات إذا حصلت بدون العناية والاهتمام بها، فلن تكون إذن إلا نعيماً من الله الغفور الرحيم يجب الشكر عليها.

أما المجاهدات الأربع المخصوصة فهي الإقلال من الأكل، والإقلال من النوم، والإقلال من الكلام، والزهد في مخالطة الناس، وليست الأهمية في كل واحدة من ذلك إلا للإقلال والزهد، لكنه بقدر الحاجة والضرورة إلى ذلك وإلا:

فليس الإقلال من الأكل زهداً، وليست غاية منشودة، لأننا إذا زهدنا في شيء لم نستطع أن نزيد في خزائن الله شيئاً، مع أنه يجب أن لا يأكل الرجل

إلى أن يتخم أو يتألم من بطنه، أما الشيخ إمداد الله رحمه الله فكان من رأيه أن يمتع الرجل نفسه ويلبي رغبته، ثم يستخدمها في أعمال الخير ويجهدها. وحقّاً إذا عرف الرجل أنه قد أعد له طعام شهي فإن نفسه تنشط لإكمال العمل وإتقانه، وتسرُّ لتدرك هذا الطعام الشهي، فلا بد للنفس من حافز، فقد قال الشيخ إمداد الله[1] ـ رحمه الله ـ للشيخ أشرف علي ـ رحمه الله ـ: يا أشرف علي إذا شربت الماء بارداً فإن كل شعرة من أشعار بدنك ستشاركك في أداء كلمات الحمد والثناء على الله، أما إذا شربت الماء ساخناً حميماً فمن الأغلب أن تحمد اللهه بلسانك بدون أن يشاركك في ذلك قلبك.

والمقصود عند حضرة الشيخ من الإقلال في هذه الشؤون الأربعة هو القصد فيها والاعتدال، بحيث يجب على صاحبه أن لا يبالغ فيها لئلا تنشأ الغفلة والقسوة والكسل وأن لا يتهاون فيها فتنحرف الصحة وتختل القوة وتفسدان. ورأس مال هذا الطريق وجماع الأمر، هو إجتماع القلب وانقطاعه إلى جهة واحدة، ولذلك يجب صيانة القلب من القلق وانقطاعه إلى جهة واحدة، ولذلك يجب صيانة القلب من القلق والاضطراب ومن أسباب ذلك هو الإخلال بالصحة بسبب الإسراف والإفراط والتفريط والفوضى.

لذلك تجد صيانة الصحة والمحافظة عليها من أوجب الأمور، وذلك بترفيه الدماغ والقلب وتقويتهما بمداومة تغذيتهما ومداواتهما، فلا يحسن الزهد في الغذاء حتى يسري الزوهن ويتولد اليبس في الدماغ، كما يجب أيضاً أن لا يفرط الرجل في تناول الغذاء فتختل قوة الهضم، فإذن من اللائق به أن لا يتناول طعاماً إلا إذا كانت عنده شهية صادقة، كما عليه أن ينصرف عنه وفي النفس رغبة إلى لقمة أو لقمتين، ويجب عليه أيضاً أن يسلك مثل ذلك

---

[1] – وقد سبقت ترجمته في صفحة: ١٠١ .

الاعتدال في النوم فلا يفرط فيه لئلا يكسل ولا يقصر فيه كذلك لئلا يطرأ على قواه الجفاف والتخدير.

وكما أن مخالطة الناس والصداقة معهم على طريق المبالغة عدّت ضرراً من الإضرار، كذلك عدت المعاداة معهم بدون حاجة إليها ضرراً ومفسدة من المفاسد، والسبب في ذلك هو: أن الأصدقاء يهجمون على الرجل فيضيعون من وقته ويشغلونه فيما لا يعنيه وأما الأعداء فيؤذونه ويضطرونه إلى العناء والمتاعب، أما التشوش والاضطراب والقلق إذا حدث بدون هذا كله، أو إذا كان يحدث من العمل بما أمرت به الشريعة الإسلامية، ومثاله أنه يأبى أن يقبل هدية من رجل مراب، فيعاديه هذا الرجل لهذا السبب، فلن تكون معاداة هذا الرجل ضارة له، ولذلك يجب عليه أن لا يكترث لذلك، وأن يتوكل على الله، ويديم إليه نظره، فلا بد إذن من حصول نصره له، وإن أصابته شدة أو بلوى فلا يهن ولا يضعف، بل يعدها صادرة في سبيل حكمة إلهية ويرضى بها، فإذا فعل ذلك فلا بد من أن يحرز القرب الإلهي، لأن ذلك من موجبات القرب الإلهي، ويجب في هذا الصدد أن لا ينسى الرجل أمراً هامّاً وهو:

إن النهامة بالمال، والاهتمام بجمعه وادخاره، أو بذل المال المذخور على وجه الإسراف والتبذير، لن تكون عاقبتهما إلا تشوش البال وانزعاج الخاطر، أما الحريص فلن يزال في حرصه والهم في ذلك، وأما المتبذّر فيقع في ضنك الحال والضائقة المالية بعدما ينفد ما لديه من المال أو يشرف ويتطلع إلى مال غيره.

المجاهدة بدون قصد:

تحدث الشيخ ـ رحمه الله ـ عن المجاهدة حديثاً مفيداً حيث قال: إن المجاهدة ليست مخالفة النفس ومعارضتها، سواء كانت المخالفة بقصد أم بغير قصد، وسواء كانت بطرق صوفية رائجة، أم بغير ذلك، بل إن جميع

الحوادث والأحوال التي تقع خلاف ما نهوى ونريد في هذه الدنيا بدون أن نتعلمها أو نريدها، ثم يلحقنا عقب ذلك هم وألم على وجه طبعي هي نفسها مجاهدات، بل أعظم المجاهدات.

قال العارفون من رجال الطرق أن الحزن والألم هما من أعلى مراتب المجاهدة لأنه يحصل منهما تواضع في النفس وانكسار فيها، وذلكما من علائم العبدية.

يقول أبو علي الدقاق عليه رحمة الله: إن صاحب الحزن يقطع من طريق الله تعالى ما لا يقطعه من لا يلحقه الحزن طيلة سنوات.

المجاهدة لا تستأصل الرذائل:

وفي المجاهدة أمرٌ غريب هام هو أنك لا يمكن لك أن تؤمل من مخالفة النفس أنك تستطيع فيها استئصال شأفة الرذائل ولن يسعك فيها إلا أن تحول اتجاهها.

إن الرياضة لا تستطيع أن تستأصل أصول الأخلاق الذميمة بل إنما هي تهذبها وتقومها، وذلك بأنه تتحول آثار اصولها فتتغير إذن مظهر مكانة أخلاقها. ومثاله: أن طبيعة رجل إذا كانت متركبة من الغضب والبخل لم يمكن لهذين الخلقين أن يزولا عنه زوالاً لا يبقى معه لهما أثرٌ فيه، بل إنما الذي يمكن هو أن يتهذبا ويستقيما، وذلك بأنهما كانا في السابق يظهران ويعملان بصورة غير مستقيمة، فكان البخل في مناسبات البر، وكان الغضب على الصالحين، أما الآن: فأصبح البخل يظهر في مناسبات الإنفاق المحظور، ويحل الغضب على الذين سخط الله عليهم وأبغضهم، وعلى النفس أيضاً.

وبهذا الطريق يمكن تحويل أسباب الابتعاد والشر إلى أسباب الاقتراب والخير. فثبت إذن أن تغير الأخلاق ممكن، كما أنه ثبت أيضاً أن أصولها لا تزال راسخة لا تنفك، كما جاء في الأثر الشريف:

«إِذَا سَمِعْتُمْ بِرَجُلٍ زَالَ عن جِبِلَتِهِ[1] فَلاَ تُصَدِّقُوهُ»[2].

غير أن المظاهر والآثار ممكنة التغير، ولأجل ذلك أمروا بالمجاهدة والرياضة.

ليست مطالبة كبت الميول والاشتهاء، إلا كما يطالب بكبت الجوع حتى يستطيع صاحبه أن يتقي الأكل المحرّم.

سأل رجلٌ أنه كيف يمكن التحرر من تأثير الهوى النفساني، فرد عليه الشيخ وقال: معنى ذلك أن تتوب غداً عن غذاء من الأغذية المحرمة، وتدعو الله أن يعفيك من الجوع.

تنبيه هام:

ونبه على أنه ليس معناه أن الل تعالى ملزم بأن يعطي بعد المجاهدة والرياضة، بل ليس هذا اللزوم والتقييد إلا خاصّاً بناحية العبد دون ناحية الرب.

إن الحياة الروحية تحصل بالرياضة والمجاهدة بدون ريب، وهما مما يجب على االعبد أن يجتهد فيه، والله سبحانه وتعالى ليس بمقيد بذلك، وهو قادرٌ أن يمنح النعمة الباطنية، ويرزق الحياة الروحية كيف يشاء، فضلاً منه ونعمة، متعال جليل، يفعل ما يريد وما يشاء، فمن الذي يستطيع أن يخطر بباله تحديد كيفية عمله وطريقه، وتعينهما أنهما كذا أو كذا؟!.

---

[1]- جبلَّته، أي: خلْقَته.

[2]- لم أجد الحديث بهذه الألفاظ، وإنما وجدتُ ما رواه أحمد في مسنده ،رقم الحديث [٢٧٥٦٧] عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال، بينما نحن عند رسول اللهﷺ نتذاكر ما يكون، إذ قال رسول اللهﷺ: «إذا سمعْتُم بجَبَل زَالَ عن مكانه فصدِّقوا، وإذا سمِعْتُم برَجُلٍ تغيَّر عَنْ خُلُقِه فلا تُصدِّقُوا به، وإنَّه يَصيرُ إلى ما جُبِلَ عليه».

ويجب أن نفهم بهذه المناسبة أن الرياضة قد تسبق ويعقبها الوصول إلى الله، ويسمى سلوكاً، وقد يقع بالعكس حيث يحصل الوصول إلى الله أولاً، ثم يتكون الشغف بالعبادة والرياضة، ويسمى هذا جذباً، وذلك بأن يأنس قلب الرجل بادىء ذي بدء بالله تعالى عن طرق مصاحبة شيخ كامل، أو لاستماع رواية لولي من الأولياء، أو لغير سبب ظاهر مكشوف، ويوجد عنده جنان، ثم يقبل إلى السلوك فيجتاز مراحله إلى الإكمال.

السلوك والرياضة المفضلان:

والمراد منه: أن تحصل درجات التوبة والصبر والشكر والخوف والرجاء والزهد والتوكل والتوحيد والحب والشوق والإخلاص والصدق، وما إلى ذلك واحدة تلو الأخرى برياضات ومجاهدات متفرقة متنوعة، وأن تكبح وتصد الرذائل المختلفة من شهوة وغضب، وحقد وحسد، وبخل وحرص، وإعجاب بالنفس، ورياء واستكبار، ومحبة للدنيا، وغرام بالجاه، وزلة من اللسان، وانتقادات به، وغيرها بمساعدة المجاهدات وأنواع المعالجات، كما لا يخفى أن هذا الطريق طويل شديد الطول، وبالأخص في هذا العصر، الذي تقاصرت فيه الهمم وازدحمت الشواغل، وأنه من أجلّ أعمال الشيخ عليه الرحمة التجديدية.

إن الرجل ليواجه في هذا العلاج المفصل ثلاث محن باستمرار، وهي الحسرة التي تكون على الماضي والشبهات التي تقلق وتزعج في الحاضر، والخوف الذي يساور في أمر المستقبل، ولما رأى المحققون المجددون (ومرشد الشيخ وهو أكملهم في هذا الصدد) بل من الأصح أن الله تعالى لما بصّرهم بإلهام منه إليهم، أن المرء يستطيع في كثيرٍ من الأحيان أن يصل إلى ربه قبل أن يصل إلى شيخه في هذه الطريق، ورأوا أنه قد وهنت قوى الناس في هذا

العصر، وتقاصرت هممهم أيضاً، فلما رأوا ذلك بدأوا طريقاً أخرى وهي أن الماضي والمستقبل وما إلى ذلك، ليس كله إلا حجاباً عن الحق، وأن الله قد خلق الإنسان لمشاهدته لا للتفكير في الماضي والمستقبل، ولنعم ما قال الشيخ الرومي: إنما الماضي والمستقبل كلاهما حجاب عن الله، والتوبة تطالب بالنظر إلى الماضي، والعزيمة تطالب بالنظر إلى المستقبل، والضرورة ليست إلا في حد الضرورة فيجب على المرء إذا احتاج إلى التوبة أن يستعرض الماضي، ويتوب حق التوبة، ولا يستعيد ذكريات الماضي وشؤونه في القلب، ويعتمد على الله، ويحتم على نفسه أن لن يأتي بمثل هذه الذنوب فيما يأتيه من الزمن، ثم يدعها ولا يتمادى فيها.

وعمل آخر فوق كل هذا، وهو ذكر في الحديث الشريف بكلمة: «**احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ**»[1]. فوجب أن يداوم المرء على هذا العمل، يعني الذكر والتفكير والعمل في أوانه، فهذا هو الذكر أيضاً، فعلى كل يجب أن تعلم أن القرب منشود، وأنه يجب على المرء أن يلتزم طريقه التي اختيرت له، ويشتغل بالأعمال الاختيارية في أوانه ووقته، بعد تصحيح العقائد سواءٌ كانت تلك الأعمال الاختيارية ظاهرية مثل الصلاة والزكاة، أم كانت باطنية كالخوف والرجاء والشكر والصبر وغير ذلك، فيشتغل بها، وأما ما كان من أسباب

---

(١) - والحديث بكامله: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبيﷺ، يوماً فقال: «يا غلام إنِّي أُعَلِّمكَ كلمات: احْفَظ اللهَ يَحفَظْكَ، احْفَظ اللهَ تَجدهُ تُجَاهَكَ، إذا سألتَ فاسْأَل اللهَ، وَإذَا استعنتَ فَاسْتَعِنْ بالله، واعلَمْ: أنَّ الأُمَّةَ لَو اجْتَمعَتْ علَى أَنْ يَنْفَعُوْكَ بشَيْء، لَمْ يَنْفَعُوْكَ إلاَّ بشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَإن اجْتَمَعُوا عَلَى أن يَضُرُّوْكَ بِشَيْءٍ، لَم يَضُرُّوكَ إلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيكَ، رفعتِ الأَقلامُ، وجَفَّتِ الصُّحفُ».
[رواه الترمذي في أبواب الزهد، باب حديث حنظلة ...، رقم الحديث (٢٥١٦). وقال: حديث حسن صحيح. وأحمد (١/ ٢٩٣ و٣٠٧)].

الإبعاد والإقصاء مثل المعاصي الظاهرة والباطنة فيتجنبها، وأنه في غير حاجة إلى العناية، بأن تنشأ فيه ملكة في أسباب التقرب، ولا يحتاج كذلك إلى قطع مادة أسباب الإقصاء والفصل.

فالشؤون التي كان حصل له الخيار وقصر فيها، يجب عليه في صددها أن يراها ضرراً عظيماً ويحاول إصلاحها ولا يلقي بالاً على مالا يقدر عليه ولا يستطيعه، ولا يلتفت إلى وجوده أو عدمه، وليس له أن يتعب نفسه كثيراً في الإصلاح، مثلاً إذا وقع منه خلل في أمر هام، فعليه أن يقصيه أو يتلافاه أو إذا أتى بمنكر، فعليه أن يستغفر الله منه، ثم ينصرف إلى شأنه، ولا يتمادى في ذلك الأمر الوحيد، متأسفاً بأنه أتى بهذا العمل، فلماذا أتى به وكيف؟ أو أنه لمَ لم يأت بذلك العمل؟ فهذه كلها مغالاة وتعسف، ورد عنه النهي في الكتاب والسنة إذ قيل: ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾[1]. وقيل: «**من شاقَّ شاقَّ الله عليه وسددوا وقاربوا واستقيموا**».

ويقول العارف الشيرازي[2] في بيت من شعره: أن العالم يستعصي على المشددين على أنفسهم.

وهذه المغالاة والتعسف يؤثران، وبالأخص على القوي والنهم لأنه قد يعمل في نفس صاحبه اليأس، ويقصي السالك من عمله، وقد يبلغ التأثير منه إلى النفس، أو الإيمان، أما النفس فيصل إليها عن طريق الصحة، فهي تختل، وإما بالإيمان فذلك بأن الرجل كان طالباً له متوخياً، لكنه لم

---

[1] - سورة النساء، الآية: ١٧٠.

[2] - هو الشيخ سعدي الشيرازي: أحد كبار شعراء الفارسية، ولد في شيراز وتعلم في بغداد كان من مريدي الشيخ عبد القادر الجيلاني، توفي عام ١٢٩١م ومن دواوينه: البستان وغلستان. وقد ترجما باللغات العالمية.

يبلغ بعد جهود كثيرة إلى النجاح الذي يحسبه نجاحاً وإلى الظفر فيه، أو كان على الأقل تأخر وأبطأ وصوله إليه، فبذلك تنشأ في نفسه الشكاوى من الله، وتفضي إلى أحوال الكراهة والسخط بأنه قد أتعب نفسه وشدد عليها في المجاهدة أيّاماً طويلة، لكن الوعود التي كانت في آية ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾[1]. لم تتحق له.

وهنا علة ثانية يجدها الرجل، وهي أنه يحسب عمله وسعيه بليغاً وعظيماً، ويترقب عليه الثمرات وينتظره، ويظن كفة عمله راجحة على كفة عطاي االله سبحانه، فيكون من نتيجة ذلك أنه يرى نفسه فائزة أبداً، ولذلك لا ينفك واقعاً في الكفران، ولو نجح في ظنه، ثم زال عنه النجاح، إذ كان من دأب هذه الدنيا أن لا تزال تختلف التغيرات إلى الناس في حياتهم، فلو حدث هذا بدأ صاحبه إذن يتضايق ويتعنّى! فعلى كل حال إنما يطّرد هذا وأمثاله في حياة الناس ولا ينقطع وإذ ذاك تتذمر نفسه وتقول ويقول الآخرون: لا خير في هذا الطريق، طريق الله، فلا راحة فيها ولا سعادة، إنما هي كلها شقاء وعذاب.

لوجود هذه المفاسد والأخطار، كان الشيخ ـ رحمه الله ـ يؤكد حيناً إلى حين، على أنه يجب أن يبتعد الرجل من المغالاة والمبالغة والتدقيق والتقعير.

فلو ألم به أمر محمود فلا يرينَّه كمالاً، ولا يتمنّى بقاءه ولا يتحسر على فواته، وهكذا إذا مسته وسوسة، فلا يتعب نفسه في طرها، وأنه يجب عليه أن يعكف على الذكر ببساطة ولا يقلق ولا يضجر إذا لم تنكبت، ولم تزل عنه، والمراد منه أن يعمل ويشتغل بالذكر للتقرب إلى الله، لا لطرد الوساوس

---

[1] - سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

فيتوخى رضا الله، ويتجنب سخطه، وأن هذا الرضا وهذا السخط، إنما يقتصران على الامتثال للأوامر والامتناع عن النواهي، إذا فاته العمل أداّه قضاءاً، وإن ارتكب إثماً أناب إلى ربه، واستغفر الله، ولا يعد نفسه من الخواص، حتى ينكمش ويتوحش من حالته التي تخص عامة الناس، ولا ينتظر في الدنيا نتائج سارة ولا في الآخرة مراتب رفيعة، وأن عليه أن يكثر دعاء الله تعالى أن يوفقه في الدنيا للحسنات ويدخله في الآخرة الجنات، وينقذه من النار ويحفظه منها، وهذا هو السلوك.

شبهة:

قد يلتبس الأمر على رجل ما أنه إذا لم يكن الميل إلى الوسوسة وإلى العصيان شراً وضرراً - إلا إذا تجاوز ذلك إلى الاقتراف والعمل - فما هي الحاجة إلى المجاهدة إذن؟!.

فالجواب عليه أن المجاهدة ليست بواجبة بدون شك، لكن فائدتها هي أنها تفرج من الشدة والعسر في جهد الرجل لصرف نفسه عن العصيان، وتيسر التغلب على النفس، ويمكن ذلك بغيرها أيضاً، لكن بعسر وشدة. هذا موضع النفع في المجاهدة، لا لتموت الرغبة وتزول عنه، ومثاله أن الفرس ينفر مع وداعته وهدوء طباعه، ويسكن ويهدأ إذا راضه صاحبه فالفرس مجبول على الوداعة إذا كان هجيناً، أما غيره فإن تسكينه يحتاج إلى صعوبة.

فاتضحت على وجه التفصيل حقيقة المجاهدات والرياضات وضرورتهما، وتبينت مفاسدهما وأخطارهما التي اتخذها الصوفية المسلمون الجهلة غايات أصيلة مضاهاة للإشراقيين واليوك واتخذوا التصوف الإسلامي غايات بعينها خاضعين لأولئك القوم.

نتيجة المجاهدة الحقيقية ليست أحوالاً:

وما هي حقيقة ودرجة الواردات والأحوال والإلقاء والتصرفات والكشوف والكرامات والوجد واللذات التي زعم الناس أنها نتيجة حقيقية لهذه المجاهدات والرياضات؟ إنما الحقيقة في ذلك هي أن المجاهدات كما عرفت، ليست مقصودة في ذاتها، فكذلك نتائجها ليست مقصودة بذاتها، وليس من اللازم أن يحصل ذلك بعد المجاهدات، ويكون نتيجة لها. وحقيقة المجاهدة والرياضة هي أنها تدبير أو علاج، أما ثمراتها فهي مثل الصحة والغاية من الصحة هي أن تصل إلى أهدافك من الحياة أو أن تحققها بنشاط ويسر، ومثاله هو الفلفل إذ ليس طعاماً، لكنه يوفر في الطعام لذة. قال: إن الناس في هذه الأيام يتتبعون الأحوال والكيفيات التي هي في حقيقة الأمر مقصودة بذاتها، مع أنها ممتعة لذيذة، وهي كالفلفل الذي ليس بمقصود في الطعام، لكنه لذيذ. وقد أصبح الناس اليوم يطلبون الأحوال ويحلونها محل الغايات، وليس مثالهم في ذلك إلا كالذي يأكل إداماً اتخذه من الفلفل فحسب. إني أضرب لذلك مثلاً بروبية فإنها تحوي مئة فلس، ولم تكن جميلة لامعة وتروج في السوق، أما قطعة القصدير فمهما كانت لامعة أو متوقدة فلن تروج في السوق، فالأحوال واللذات ليس مثلها إلا كمثل الرصاص والقصدير أمام الفضة، وما أشبهها، فهي لن تروج في سوق الآخرة.

إن واردات الغيب أو الذوق والشوق ليست بثمرة حقيقية، بل إنما هي من وسائل التربية، وهي لبعض الناس على صورة الغيب، والطريقة الأخرى للتربية من دون المواجيد هي المضي بالعزيمة والهمة.

حقيقة التصوف في جملتين:

هذه الواردات والكيفيات في الحقيقة انفعالات، أما الغاية في الطريقة فهي الأفعال لا الانفعال، وقد ذكر حضرة الشيخ هذه الحقيقة لعالم من العلماء، لكنه لم يقدرها حق قدرها.

إن الذين جبلوا على التأثر والانفعال كثيراً ما تحصل لهم الأحوال طبيعياً حتى ينتهي بالبغض من هذا التأثر والانفعال إلى الاغفاءات والاستغراق، ويرى الناس عامة: أن الاستغراق شيء عظيم، ويظنون أن ليس من الكمال إلا أن يستتر العقل ويغفى الرجل يا ناس أيُذكر الله للانتباه والصحو أم للاغفاءة والذهول؟!.

يقول سيدي عبيد الله الاحرار[1] - رحمه الله -: إن التقرب لا يحصل كثيراً في الاستغراق لأنه قلما يمكن معه العمل، والعمل هو مدار القرب، وأن الرجل ينخدع بهذه الأحوال فيراها روحانية وإن لم تكن هذه الأحوال في أكثر الأحيان إلا نفسانية فحسب، ولا يقدر على معرفتها والوقوف على حقيقتها إلا الكاملون.

وأما الكاملون الذين هم أصحاب استعداد وصلاحية حقّاً، إنما لا تعاورهم الكيوف النفسانية السافلة، غير الكيوف الروحانية التي تطرأ على الروح، فإنها تعاور الكاملين ولا يعرفها العامة، والفرق بينهما كالفرق بين حلاوة السكر المصفى وبين السكر الصافي، رووا أن بعض الفقراء المنبوذين ذهبوا إلى رجل في مسخرة، فلما حضرهم الغداء وكان مشتملاً على البنية، فأكلوها، ولكن دون رغبة إليها، وقال كبيرهم: ما هذا الذي هو مثل البصاق، لم تؤثر في نفسه حلاوتها، ولم يكن قد شم رائحتها، والسبب في

---

[1] - هو محمد بن شهاب الدين، ناصر الدين عبيد الله الأحرار، وُلد في (شاش) عام (٨٠٦هـ) صحب أعلامَ الصوفية لعصره، و كانت له أحوال سامية، لم أعثر على تاريخ وفاته.

ذلك أنه لم يجد حلاوة إلا في السكر غير المصفى، فمن الحقيقة أن السالكين الذين يرتجون الكيوف والأحوال هم كالقرويين المغرمين بالسكر قبل تصفيته، وأقول: إلزموا العمل واتركوا الرغبة في الكيوف، وإذن ستجدون من الكيوف التي ستحصل لكم مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فالأصل: أن الكيفيات النفسانية، فإنها تعرض لبعض وتغيب عن بعض.

أما هذه الأحوال فهي من لذائذ الطريق، وفائدتها: أنها تقطع الرحلة بمتعة ولذة، لكنها لا تخلو من الأخطار أيضاً، لأن كثيراً من قاصري الهمم ينقطعون عن المضي في طريقهم وينصرفون إلى هذه الأهواء، والسبب في ذلك أن الناس كثيراً ما يحلون الكيفيات محل الغايات والأهداف، ويحسبون أنهم من المتقربين والمقبولين، لأنهم إن لم يكونوا كذلك، لم تعرض لهم هذه الأحوال، والحقيقة أنها تعرض لهم وللكفار على السواء.

كان المجدد المجتهد في هذا العلم الشيخ إمداد الله ـ رحمة الله عليه ـ يقول: إن الأنوار والكيفيات حجب نورانية، والحجب النورانية أشد ممن الحجب الظلامية، ويجب فيها على السالك أن يتجنبها ويبتعد عنها، ولا يلتفت إليها، لأن الذي يريد زيارة الملك لا يعرِّج على بيوت الكناسين وعلى دور التجار بل يتوجه رأساً إلى مجلس الملك، فإن الحجب الظلامية كبيوت الكناسين، والحجب النورانية كمنازل أصحاب المهنة العامة فعلى السالك أن لا يعرّج عليها، وأن يمضي في طريقه دون وقوف. فالمقصود وراء وراء ذلك كله.

حقيقة الكشوف والكرامات:

وبعد أن علمت حقيقة الأحوال والكيفيات والأصل فيها، فعليك أن تعلم حقيقة الكشوف والكرامات والتصرفات والإلقاء.

قال: إن الناس يعدُّون الكشف من أجل الكمالات مع أنه لا قيمة له في التقرب إلى الله، وتتفق طبائع بعض الناس مع الكشف دون غيرهم، كما أن عيون بعض الناس نافذة بعيدة النظر، في الوقت الذي لا يبصر الآخرون إلا الشيء القريب، وقال مشيراً بيده إلى فسقية المسجد، هبوا أن امرءاً لا يجاوز بصره هذه الفسقية، مع أن بصر رجل آخر غيره يجاوزها إلى الشارع في الخارج! أبهذا يعد الرجل الذي يبلغ نظره إلى الشارع من المتقربين إلى الله؟ كلا بل إنما هذا نوع من البصر لا علاقة له بالتقربات، فإن بعض الناس لا تتفق طبائعهم مع الكشوف، فإنهم مهما مارسوا المجاهدات وباشروا الرياضات فلن يحصلوا على الكشف في عمرهم ولو مرة واحدة، والأصل في ذلك كله هو العبدية، فأحلف بالله أنه مهما حصل لامرىء ما ألوف الكشوف، أو أكثر من ذلك، فإنه إذا رجع إلى وجدانه لشعر أنه لم يكسب في التقدم حتى قدراً يسيراً، غير أنه إذا سبح الله ثلاث مرات ثم رجع إلى وجدانه لأحس أنه قد تقدم في التقرب إلى الله، فليختبر هذا من شاء من أهل الذوق وأصحاب الوجدان.

كيف يكون الكشف من علائم التقرب والولاية إذا لم يشترط فيه كون المرء مؤمناً فإنه يحصل للمؤمن والكافر والملحد ولغيرهم على السواء، وكما أن قوة خاصة من الجسم تتضاعف بالتدريب والرياضة، فكذلك تتولد في النفس قوة مخصوصة بالمجاهدة والرياضة، وتتضاعف ويعرف ذلك علماء النفس أو أساتذة التنويم في هذا العصر.

فالحقيقة: أن الكشف ليس بشيء عظيم لأن الكافر أيضاً إذا جاهد أو تروّض لحصل له ويحصل للمجانين أيضاً، وكتب صاحب شرح الأسباب: أن الكشف يحصل للمجنون ورأيت أنا مجنونة كان يحصل لها الكشف، وقد لا يحصل للأولياء أيضاً، وهذه المجنونة حينما استعملت المسهل زال كشفها مع

المادة، لذلك لا تعد العلوم الكشفية حجة، فالكشوف إذا كانت بنفسها موافقة للقواعد الشرعية صح العمل بها، وإلا وجب تركها، وهكذا الأمر الآخر الذي هو من خوارق العادة وخلافها، إذا وجد لاحد فلن يعد علامة أو دليلاً على ولايته أو تقربه.

الولاية لا تفتقر إلى خوارق، ولم تظهر الخوارق من بعض الصحابة، ولو مرة واحدة في حياتهم، والخوارق تظهر في أكثر الأحيان من (يوغا)[1]، وهي من نتائج الرياضة، ودرجة خَرق العادة أقل من الذكر القلبي، وقد كتب صاحب العوارف عن الذين لا تصدر منهم الخوارق أنهم أفضل من أهل الخوارق، أن من أكبر كرامات العارفين أن يستقيموا على جادة الشريعة ومن أعظم كشوفهم أن يتبينوا استعداد الطالبين ثم يربونهم وفق ذلك، وقد كتب الشيخ الأكبر أن بعض أهل الكرامات قالوا عند وفاتهم، ليتهم لم يرزقوا كرامات. وقال بعض صرحاء القول من الناس: الكرامات حيض الرجال.

فكما أن المرأة تستحي من حيضها وتحاول إخفاءه، وستره، فكذلك يستحي أهل الله من كراماتهم، وقد تمنّى كثيرٌ من الشيوخ أصحاب الكرامات، ليتهم تجردوا عما يظهر منهم من كرامات، والسبب في ذلك أنهم رأوا أو شعروا بمنقصة

---

[1] - يوغا: هو مذهب مستمد من الفلسفة الهندية يهدف إلى السيطرة على الفكر والجسم عن طريق تدريبات خاصة للوصول إلى الصحة السليمة. أما الروحانية فهم يعتمدون في ذلك على تعذيب الجسم وتصفية النفس وقهر الشهوات والخروج من سلطان الطبيعة، فيحبسون النفس لمدة طويلة إلى غير ذلك، ولكن أغنانا اللهُ عن هذا ومثله باتباع الشريعة والعمل بالسنة، ولا شك أن تصفية النفس لها آثار وعجائب، وقد يتغلب الإنسان على الطبيعة، ولكنها بالضاغة والبهلوانية أشبه منها بالولاية، ولذلك آثر السادة الصوفية المتبعون للسنة تصفية القلب على النفس. (من «مذكرات سائح في الشرق العربي» للعلامة أبي الحسن الندوي بتصرُّف، ص:٥٦ - طبع دار إبن كثير، دمشق).

في درجاتهم بقدر حصول كراماتهم، لأن غير أهل الكرامات ستحصل لهم هذه الكرامة في الآخرة دون المأذونين، فإنهم مستثنون من ذلك.

تكلم الشيخ عن الكرامات في كتابه (الكرامات الإمدادية) فقال:

الكرامة هي التي تظهر من متبع كامل، ولا تطرد اطراداً، لأنها إن اطردت لم تعد كرامة، وإن لم تخضع الكرامة التي ظهرت منه لشريعة نبي من الأنبياء لم تعد كرامة، مثل اليوك والسحرة الذين تصدر عنهم مثل هذه الأحوال، ولو كان يدّعي ويقول أنه متبع نبي، لأن عمله يخالف شريعة الأنبياء وسواء كان الاختلاف في الأصول كأهل البدع، أو كان في الفروع، كالفاسقين والفجار، والكرامة من هؤلاء لن تسمى إلا استدراجاً، ويسمى بالكرامة ما يصدر من متبع كامل في التقوى، وأصبح الحال في عصرنا أن الناس يلقبون كل رجل تظهر منه كرامة قطباً وغوثاً أيّاً ما كانت عقيدته وأعماله، قد صرح السلف بأنك إذا رأيت أحداً يحلق في الفضاء أو يجري على الماء ولا يحافظ على الشريعة فلا تحسب له حساباً.

وقال الصلحاء: إن ستر الكرامة واجب على المرء، إلا إذا كان محتاجاً إلى إظهاره، أو مسموحاً له فيه عن شيخه، أو غلبت عليه الحاال، حتى أذهلته عن أن يريد شيئاً أو يختاره، أو كان مما يجب اختياره لتثبيت اعتقاد طالب صوفي ويقينه أو مريد من مريديه فيجوز إذن.

الإلقاء والتصرف:

كذلك ليسا من الأمور المقصودة أو المأمور بها ولم يكونا في ذاتيتهما دليلاً على الكمال، أو التقرب والولاية أو القبول، بل هم من قوة النفس والخيال التي تيسر لكل واحد مقبولاً كان أو مطروداً بالتمرن على التوفيق بين الخيال والالقاء، لقد كان هو أعظم مدار للسحر قديماً، وهو أكبر أساس لمسحر يزم

أو عمل االتنويم اليوم، أما الذي يعالجه الصوفية من التأثير والفعل بقوة النفس والباطن فيسمى في مصطلح الصوفية إلقاءاً وتصرفاً أو همة، وقد ألف حضرة االشيخ رحمه الله رسالة صغيرة على هذا الموضوع أسماها: (رسالة التعرف في تحقيق التصرف) واستدل بآية: ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[1] شرحاً لها بحيث تؤيد حكمه وتقويه.

حقيقة هذا التأييد، أن كيفيات خاصة محمودة تفشى وتعم على أحد لتنشأ منها آثار مخصوصة، وهي تكون أنواعاً، وألواناً باختلاف الأغراض، ويدعى هذا التأييد في اصطلاح المتصوفة التصرف والالقاء، والهمة وجمع الخاطر.

وكثيراً ما تتولد قوة التصرف هذه في المشايخ بالمجاهدات والرياضات النفسية، كما تنشأ قوة المصارعة بالرياضة والتدريب، وبعض الرجال يُجبلون على هذه القوة، وقلما يكون ذلك، فإن كان استعمال هذه الطاقة لغرض سام حميد كعادة المشايخ، يُحمد إذن التصرف تبعاً للغرض، وإن كان القصد من ذلك خبيثاً ذميماً، يقبح تصرفه كذلك.

لكن تلك الطاقة على كل حال لن تعد من المعالي الدينية، ولن تكون دليلاً ولا سمة للقبول والتقرب، لأن كل امرىء سواء كان فاسقاً أو فاجراً، يقدر على إنشائها بالتمرين، فالحكم فيها مثل الحكم في القوى الجسمية واستعمالها، وفي استعمالها مضرات دينية ودنيوية كذلك، وقد نصح الشيخ المجدد على الأخص في هذا العصر بتركها.

فمن مضارها الدنيوية أن قوى صاحبها القلبية والعقلية كثيراً ما تضعف وتضمحل بإكثار استعمالها، وهنا خطر عظيم من أن تنشأ أمراض كثيرة،

---

[1] -وردت الآية في سورة واحدة في المكانين المختلفين، انظر سورة االبقرة، الآية: ٨٧ والآية: ٢٥٣.

ومن مضارها الدينية أن العامة يعدونها من سمات الولاية والقداسة، وهذا من أضرار العقيدة، أما الطالبون والمريدون، فهم يقتنعون بها وينقطعون عن العناية بإصلاح النفس والحال، وهذا من الخسائر العملية.

ونظراً إلى هذه المضار هجر السلف الصالح استخدامها، ولم تكن هذه المضار في عصرهم موجودة، لأن قواهم كانت شديدة لسلامة الطباع وجودة الفهم، أو كانت هذه المضار تافهة على الأقل، وبعد كل ذلك، فإن الناس يقتنعون بإلقاء الشيخ وتصرفه مهما يبدو لهم من الأحوال والكيفيات فلن يجدي ولن يدوم، إنما الجدوى والبقاء في الأمور التي يأتيها الرجل من نفسه ويجتهد فيها بذاته:

تذكروا أن الشيخ ليس إلا دليلاً وهادياً، وليس عاملاً ولا فاعلاً، فيجب عليكم أن تعملوا أنتم بأنفسكم، فإن ذهب رجلٌ إلى طبيب وشرح له أمراضه وعلله، فوصف الطبيب له دواء، فماذا يصنع المريض إذن؟ هل يطلب من الطبيب أن يستعمل هو بنفسه الدواء أم ماذا؟ إنه إن فعل ذلك، فلن يكون إلا أحمق، فلذلك ترى الذين يطلبون من شيوخهم الإلقاء، أنهم كالمرضى الذين يطلبون من الأطباء العمل، لا وصف العلاج.

ذكر حضرة الشيخ ـ رحمه الله ـ رواية عجيبة عن الشيخ إمداد الله ـ رحمه الله ـ، فيما يسأل الناس من الدعاء والتصرفات فحسب:

لما قدم حضرة الحاج إمداد الله طيب الله ثراه إلى (بومباي)[1]، سأله تاجر أن يدعو الله أن يرزقه حج بيته، فقال: بلى، ولكن بشرط أن تملكني على نفسك يوم تقوم الباخرة، فأقبض على يدك وأرفعك على متنها، فتذهب بك، إذ لا جدوى في دعائي بدون أن يقع ذلك!.

---

[1] - إحدى كبرى المدن في الهند، وهي عاصمة ولاية (مهارشترا)، تُسَمّى اليوم مومباي. (*Mumbay*).

إن أبا طالب عم النبي عليه أفضل التحية والسلام، كان من أعظم محبيه والمشفقين عليه، لما جاهده جميع الكفار وعادوه لم يتركه أبو طالب، بل ناصره، وكان الرسول ﷺ يبادله الحب كذلك، فحاول محاولة عظيمة في أن يحمله على الإسلام، لكن ذلك لما لم يؤثر فيه، ولم ينفعه حب الرسول ومحاولاته أيضاً ﷺ[1].

وهنا كلمة نافعة قيمة وهي أن كثيراً من الناس يقولون: إننا قد أردنا، لكنهم في قولهم هذا كاذبون، لأن التمني غير الإرادة، ومثاله: أن رجلين كانا يتحادثان في التوجه إلى الحج، فقال أحدهما: إنه يريد كل مسلم، قلت: هذا كذب، لأنه إذا كان أراد ذلك، لحجَّ، بل يجب أن تقول: أنه من أماني كل واحد، فمجرد التمني لا يغني من التحقيق شيئاً، والإرادة يعبر عنها بالتأهب، فإن كان رجل يهوى الزراعة، لكنه لا يهيىء لها عدة وأدوات. أما الآخر فيجمع لها الأدوات اللازمة، فيقال للأول: متمن وللآخر مريد، وكذلك رجلان يبغي كل واحد منهما البلوغ إلى المسجد الجامع، غير أن الواحد يتمناه لا غير، وآخرهما ينطلق يمشي، فيدعى الثاني مريداً، والأول متمنياً، والإرادة كلما حصلت انتهت إلى تحقق، وإذا فقدت القدرة على تحقيقها، لوجد دليل يساعد البلوغ إلى الغاية، ولذلك قيل: (السعي مني والإتمام من الله).

وأحياناً تتولد في قلب الطالب حالة وكيفية، تكون نتيجة لتوجيه المرشد الشيخ، وهي لا تتولد من محاولة نفسه، لكنها لا تنفع بمفردها، وإذا لم يرافقها من الطالب عمل زالت عنه، ومثال ذلك التدفؤ بالنار التي تدفىء

---

[1] - إن الإرادة التي بحث فيها الشيخ هنا، أو فيما يأتي وقد كتب في موضوعها العالم النفسي الكبير وليم جيمس، سماه: «إرادة الإيمان»، وقد ترجمه بالعربية الدكتور محمود حب الله باسم: «إرادة الاعتقاد». نشر الكتاب في القاهرة عام ١٩٤٦م.

جالساً عندها، لكن الحرارة لا تبقى كلما ابتعد عنها، وكلما هبت عليه الرياح الباردة أصبح الجسم بارداً، فهكذا كلما فارق الرجل شيخه، أو نقص تأثير التوجيه، بقي الرجل عارياً صفر اليدين كأنه لم يكن له عهد بهذا التأثير.

وكذلك كلما يكسبه الرجل بنفسه يختلف عما يحصل له مجّاناً، بحيث يقدر الأول تقديراً ويتغافل عن الثاني، ومثال ذلك: أن رجلاً كان ينظف حذاءه الخسيس ببردة صوفية ثمينة، فسأله الناس عن هذا فأجاب: إن الحذاء من كسبي، أما البردة فهي من كسب أبي، وقد أجاد الشاعر الفارسي إذ قال: أن من يشتري رخيصاً يبيع رخيصاً، والطفل يعطي اللؤلؤة الثمينة في قرص أو كسرة خبز.

واالذين يعملون بطاقتهم تتعادل أحوالهم طول حياتهم، غير أنهم لا يتشدقون ولا يتفيهقون ولا يتطاولون، وليس ذلك مطلوباً ولا منشوداً.

فإن الناس اتخذوا التصرفات محك الولاية، بأن الذي يذهل ويغفى كلما أصابته نظرة، ثم يصرع ويقع على الأرض، فهو الولي، مع أن هذا الاعتقاد لَغوٌ وباطل، لأنه إذا كانت من دلائل الولاية والقداسة، لكان لسيدنا رسول اللهﷺ أن يعالجها، فلماذا حدث ما حدث يوم همَّ الكفار بقتله أن انتظر منهم أن يغفلوا فيفلت منهم، ولما لم يَذهلهم بنظرة منه واحدة.

بل إن كان ما فعله في مثل هذه الأوقات، فعله وهو متذلل لله، ضارع له، يدعوه كعبد، وما كان تأثيراً ولا تصرفاً، أما الذي نراه في حادث سراقة بن جعشم[1] المعروف الذي كان يتبع أثره وينطلق في التماسه عليه الصلاة

---

[1] - هو سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، صحابي، أخرجه أبو سفيان ليقتف أثر الرسولﷺ حين خرج إلى الغار مع سيدنا أبي بكر - ﷺ - أسلم بعد غزوة الطائف سنة ٨هـ، توفي عام ٢٤هـ، وعنه ١٩ حديثاً مروياً.

والسلام، لم يكن إلا أن دعا في ذلك الوقت: اللهم اكفنا شره، حتى انخسف فرس سراقة إلى بطنه، قال سراقة: لعلك دعوت عليَّ، فأسألك أن تدعو الله أن ينجيني من هذا البلاء، وأعاهدك أن لا أخبر قريشاً عنك، فدعا الله حتى خرج فرسه من بطن الأرض[1].

فيا أصحاب: إنما محك الولاية، هو أن الإنسان كلما تقدم في الزهد والعبادة والتجرد، ازداد مشابهةً برسول اللهﷺ، لأن الولاية مستقاة من النبوة، ومما يؤسف له أن الناس لا يقبلون على العلماء، ولذلك يتورطون في أخطاء كثيرة.

البيعة:

لقد وقعوا في إفراط وتفريط في فهم حقيقة العلاقة بين الشيخ ومريده نجد في جانب أن الناس عدوها حدثاً في الدين، وفي الجانب الآخر اتخذها الناس كطقس من الطقوس أن اكتفوا بأن يقبلوا اليد والرجل ولا يرغبوا في عمل أو فهم، ولا يحتاجوا إليه وإن كانت العلاقة بين الشيخ ومريده لا تجدي نفعاً، ولا ينفع الإنسان إلا عمله، وأن يمسك الإنسان بأهداف شيخ بصير يتخذه أستاذاً له وموجهاً، وإن لم تتحقق البيعة المعتادة بينهما. ولا تفهم من هذا أن الدخول في السلسلة لا يأتي ببركات من الله سبحانه، لا، بل الأمر أن اتخاذ البيعة أصلاً من الأصول خطأ جسيم، وقد فشا في هذه الأيام الحاضرة في الناس جهل لحقيقة البيعة يقضي منه العجب.

وتتضح حقيقة البيعة ذاتها من كلمة البيعة والإرادة ومن اصطلاح المريد، بل ومن المعنى اللفظي كما أوضح الشيخ فيما تقدم في موضوع حقيقة الإرادة أنها

---

[1] - انظر ما رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبيﷺ وأصحابه إلى المدينة رقم الحديث (٣٩٠٦)و(٣٩٠٨). وسيرة ابن هشام ،ص٤٨٩ - ٤٩٠.

ليست الترجي والتمني بل إنما هي العكوف على تهيئة الأسباب والوسائل اللازمة بها، أو هو بدأ الرحلة إلى الهدف فإنما المريد هو الذي يتخذ تقويم نفسه واصطلاح باطنه مرامه وهدفه، ويعدُّ لهذا الهدف الوسائل والأسباب اللازمة ثم يبدأ رحلته إليه، وليست حقيقة البيعة سوى اختيار رفيق أو دليل عارف للوصول إلى هذه الغاية، ومرافقته واتباع أثره ليجتاز المراحل بكل سهولة وراحة، فضلاً عن أن يكون في مأمن من أخطار الضلالة والتيه، وفي لفظ آخر يمكن أن يقال أنها تفويض النفس وتسليمها ليد رجل أعلم منه وأمهر، ومربّ مرشد، كما يسلم البائع ماله لمشتريه، أو كما يفوض مريض نفسه إلى طبيب ولا يعمل إلا بما يوصيه الطبيب به أو يقترح به عليه عملاً كاملاً.

غير أنه إذا اعتز بأنه عالم عارف بدقائق العلوم يحسن فهم كتب الطب، أو يكون قد قرأه على بعض الأساتذة، مع أنه لم يجلس في عيادة ولم يمارس الطب عملياً، فإنه إذا اغتر بذلك ورأى نفسه أهلاً لمعالجة نفسه بما يقرأه من وصفات مدونة في الكتب فلن يزيد على إهلاك نفسه، أنه لا يتمكن من المعالجة ووصف الدواء بالصفة الدائمة الجدية إلا إذا جلس عند طبيب في مستوصفه وتمرّن على وصف الأدوية واختيارها سنوات عدة وأعواماً عديدة، أن مؤلف كتب الطب الشهير الحكيم كبير الدين[1] ليس بطبيب فحسب، بل هو من المؤلفين الكبار في الطب، مع أنه يشهد على نفسه بأنه لا يمكنه أن يداوي حتى الأمراض العادية اليومية كالسعال والزكام، وقد كان قبله علماء الطب البارعون (كالحكيم نور كريم الدريابادي)[2] الذي قضى عمره كله في تعليم الطب، وقد بلغ من البراعة في

---

[1] - أحد كبار الأطباء في الهند في مطلع القرن العشرين، له مؤلفات عظيمة بالأدوية في الطب، ثم أعثر على تاريخ وفاته.

[2] - لم أعثر على ترجمته.

الفن وعلو الكعب في الطب أنه كان يتناول الطعام ويمشي في الطريق، وهو يدرس ويعلم تلاميذه، ومع أنه كان من الأطباء المعروفين وأستاذاً من أعظم الأطباء لم يكن يقدر على المداواة ولا يباشرها.

ولا يقتصر هذا على الطب فقط، بل إنما كل فن من فنون الحياة يشابهه، فلا يستطيع الرجل أن يصنع منضدة أو يستخدم الحديد ويصنع منه الأشياء بمجرد المطالعة في الكتب والتعلم منها، ولا يقدر أن يطبخ الطعام بمجرد القراءة في كتاب غير أنه يطبخه غير ناضج، غير مكتمل، وبإضاعة وقت طويل، وإتلاف أشياء كثيرة في سبيل ذلك، ولا يخلو عمله إذن من النقيصة، وهي الفوضى وعدم الانسجام، ولا يمكن لمريض أن يداوي نفسه بالقراءة في كتب الطب، وإن كانت تلك الكتب تضم كل شيء، ومنها يستفيد الأطباء في مداواتهم، غير أنك لا تقدر عليها، وإن أمكن لك أن تداوي مرضاً تافهاً فلا يمكنك بتاتاً أن تعالج الأمراض الهامة، إنه كان تعاودني الحمّى كل عام في آخر أيام المطر وكان من عادة الطبيب أن يكتب نفس الوصفة الوحيدة، فقلت في نفسي ألا أنسخ هذه الوصفة حتى أنتفع بها حين أحتاج إليها دون أن أضطر إلى الطبيب؟! ففعلت ذلك عاماً ولم تنفعني، فاضطررت إلى استدعاء الطبيب فداواني فشفيت، ثم تبين لي أن البلغم كان مرافقاً للصفراء في ذلك العام، فلو فعلت أن أنسخ هذه الوصفة أيضاً بأنها مكتملة تضم رعاية البلغم مع الصفراء، فمن يدريني مقدار البلغم من الصفراء كل عام، ولا يقدر زيادة البلغم وقلته إلا الطبيب الذي يعرف حالة النبض، فلا يستطيع العلاج بالقراءة في الكتب إلا الطبيب[1].

---

[1] - أنظر «الجوامع»، للشيخ أشرف علي التهانوي.

فغاية القول: أنه إذا لم يسر بإرشاد الشيخ ولم يسكن إليه، فلن يجديه شيء، مهما ضاعف الجهود والمشقات وقضى عمره فيها، وإنما تقتضي هذه الطريقة الانقياد التام، غير أن الأمر يختلف إذا لم يعتبره شيخاً له، أما إذا اعتبره شيخاً له فإن تردد أو حكّم رأيه فلا يكسب إلا الحرمان، وأن هذه العلاقة لمن أخطر العلاقات وأدقها وأن لها لآداباً وقيوداً.

قد كان ذلك أمراً واضحاً بيناً وعادياً ولم يكن في حاجة إلى هذا الأفهام والتمثيل الضافيين، إلا أن السلفية الجافة واالصوفية التقليدية كانتا على طرفي نقيض في التصوف في ماضي من الزمن، فالطائفة الأولى رأت البيعة من المحرمات والمبتدعات المحضة، والفريق الآخر أوجب البيعة وبالأخص طقوسه وتقاليده بعينها، أما هذا العصر فلقد بلغ الأمر بأهله إلى أنهم أصبحوا لا يفكرون في إصلاح نفوسهم الديني ومداواة الباطن فضلاً عن القيام به، ولا يرون تعلّم الدين على منهاج صحيح، وتعلُّم المسائل الدينية ضرورة حتى ولا الإطلاع على مصادر الدين (الكتاب والسنة) مباشرة، بل يكتفون بمطالعة تراجم الحديث والقرآن بالإنجليزية، وقراءة مقالات عن الدين منشورة في بعض الصحف والمجلات، ويزعمون الاقتداء والاجتهاد والتجديد، ويرون نفوسهم أهلاً لذلك.

ومن الجهل المركب أن الإنسان بالعكس من ذلك لا يرى كفايته في دراسته كتب الحقوق والمحاماة قابعاً في بيته ليخرج بعدها محامياً، بل يرى من الضرورة المحتمة عليه أن يستمع إلى المحاضرات الجامعية ويمتحن فيها، ثم لا يكيفه ذلك، بل أنه يحتاج إلى مصاحبة محام مجرب محنك والعمل معه بعد كل ما قدم من الدراسة والامتحان حتى يحصل تجربة ومراناً، ولن يعد الناس إلا محمقاً ذلك الذي فوّض قضيته إلى رجل لم يزر محكمة، ولم يدخل في مجلس قاض، وإن كان من أشهر الأساتذة في الحقوق، ولا يصير أحد عالماً عارفاً بالعلوم الطبيعية بمحض دراسته لكتب العلوم أو استماعه إلى محاضرات الأستاذ إلى أن يختبر الأشياء ويعرف حقائقها بتجربة وعمل في معمل كيماوي.

هذا وليست علاقة هذه الأمور والمقدمات والتجارب إلا لهذه الدنيا وبعالم الشهادة هذا، أما المسائل الدينية التي تتعلق بمسائل ما بعد الطبيعة بعالم الغيب والآخرة، فإن كل زعيم وصاحب صحيفة ومحام يرى من اختصاصه أن يلعب بها ويأتي بآرائه الاجتهادية والتجديدية في هذا الموضوع.

وغاية ذلك: أن مثل هؤلاء الناس بدأوا ينقدون التصوف، ويبحثون فيه، ويقدمون شهاداتهم الحاصلة من وراء البحار لبحوثهم هذه، خطب عالم من هؤلاء العلماء على التصوف خطبة علمية جليلة معتمداً على علومه التي حصلت له من مطالعة الكتب، فعلق عليه خليفة من خلفاء الشيوخ، وقد كان من الذكاء على قسط، فقال: لو كان التصوف يحصل بمجرد المطالعة والدرس في الكتب لما رأيت غيرك أعلى كعباً منك في التصوف والطريقة، فحقيقة (الإرادة) و(البيعة) إنما هو الخروج لنشدان كمال الدين، أو مرتبة الإحسان في الدين، واقتفاء رجل أعلم من هذا المقتفي وأعرف من هذا المتبع، وبلفظ آخر: إذا كانت علاقة مرتبة الدين هذه بإصلاح القلب والباطن، أو إبادة أمراضه، وجب إذن أن يسلم نفسه إلى طبيب نطاسي مثقف ليداوي تلك الأسقام.

وقد عبر حضرة الشيخ عن هذا بعقد عهد بين الشيخ والتلميذ، أو المرشد والمريد، يتعهد فيه الشيخ بالإرشاد والإصلاح، والطالب بالاتباع والتقليد، ولما عرفنا حقيقة البيعة هذه بان لنا أن البيعة التقليدية ليست من الواجبات في شيء، ولا فائدة فيها إلا تحصيل بركات السلالة (السند). أو أن فيه فائدة نفسية كما كان يقول شيخ يجمع بين المعرفة والذوق من حيدر آباد[1] اسمه:

---

[1] - مدينة كبيرة، تقع في جنوب الهند، كانت ولاية إسلامة غنية، انضمت بالهند بعد الاستقلال، وإلى أحد حكامها يرجع الفضل في إخراج ونشر التراث الإسلامي من «دائرة المعارف»..

(الشيخ محمد حسين ـ رحمه الله ـ)[1] أن المريد يهب شيخه أذنه ويعيره سمعه، يعني أنه يستمع إلى كلام المرشد أكثر من غيره بالطبع، ثم يمتثل له.

إلا أن درجة هذه البيعة التقليدية لدى حضرة الشيخ، يمكن أن تقدر بأن الشيخ أراد مرة أن يمنح رجلاً من مريديه خلافه وإجازة، فقال أنه لم يبايعه حتى الآن، فقال: إذن أقبل وبايع، وكان الشيخ يقول مراراً: إني لا أعرف من دخل في بيعتي، وإني لا أحفل ولا أرى إلا الذي له صلة بالعمل والجهد، وكان يطرح على المبايع مثل تلك الأسئلة الشديدة التي تكشف حقيقة البيعة وغايتها، لأنه ليس في أذهان الناس عن أهداف البيعة إلا ملخصها. بعضهم يبغون أن يصبحوا من أصحاب الكشوف والكرامات، فإنها لا تلزم حتى للمرشد، فكيف يحسن للمريد أن يحرص عليها، وبعضهم يظنون أن الشيوخ سيكلفون ويشفعون، مع أن رسول اللهﷺ نفسه قال لفاطمة رضي الله عنها: «**يَا فَاطِمَةَ أَنقِذِي نَفْسَكِ مِنَ النَّارِ فَإِنِّي لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيئاً**»[2]. فكيف يمكن أن ينقذ شيخ مريده إذا لم يرض المريد بذلك.

ويظن بعض الناس أن الشيخ سينقل مريده في نظرة واحدة إلى الكمال، فلو كان الأمر هكذا لما احتاج الصحابة رضوان الله عليهم إلى أي جهد، إذ لم يكن في الناس أكمل نظراً وأعظم تأثيراً من الرسول عليه الصلاة والسلام. ولو وقع ذلك حيناً ما، خرقاً للعادة، فلا يقع مراراً، فإن الخوارق ليست

---

[1] - لم أعثر على ترجمته.

[2] - أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الشعراء، رقم الحديث (٣١٨٥)، بهذا اللفظ: «يا فاطمة بنت محمد ! أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لك ضراً ولا نفعاً، إن لك رحماً، وسأبلها ببلالها » و قال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وأحمد (٢/ ٣٣٣ و٣٦٠ و٥١٩). وانظره في الدر المنثور (٥/ ٩٥).

ويحب بعض الناس الثورة والزمجرة والاضطراب والغيبوبة، وأن تنعدم الذنوب دون أن يحاول محوها، أو إزالتها، وأن تزول الشهوات ولا يفتقر إلى إرادة الخير، بل أن تصدر الحسنات من غير إرادة بنفسها، وأن تفنى الوساوس والخواطر، وأن يدوم له عالم الغيبوية والامّحاء، ويرون هذا الأخير أعلى من الخواطر السابقة، مع أن منشأه كذلك هو الجهل، فإن هذه الأمور من الكيفيات والأحوال التي هي خارجة من الاختيار، وإن كانت محمودة فليست مقصودة، بل ويوجد في مثل هذه الأماني كيد خفي من النفس، إذ المطلوب هي الراحة والمتعة والسمعة، وتوجد هذه كلها في هذه الأحوال، وإلا فما لطالب الرضا المقصود ولهذه الأماني، يقول الشاعر الفارسي العارف:

دع النأي والوصل وأنشد رضا الحبيب، لأنه من العار أن تطلب منه غيره.

ثم مثل هذا الرجل يقع في نوعين من الفساد، أولهما أن هذه الأحوال لو حصلت له فلابد من أن يرى نفسه كاملاً، لأنه كان يحسبها من غاياته، وأن ينصرف عن تقواه وطاعاته التي كان يعالجها، إذ يقتنع بتلك الصفات التي حصلت له، ولا أقل من أن يبدأ الاستخفاف بالطاعات، وإن لم تكن حصلت له تلك الصفات فيكاد يموت جزعاً، فإنه لا يزال طالباً لما ليس في اختياره، ولن يزال واقعاً في الجزع والقلق على الدوام.

وبعضهم يحسبون أن حجب الشيخ ناجعة جداً، وسنحصل منه تلك الحجب والطلاسم إذا احتجنا إلى ذلك، أو أن الشيخ مستجاب في دعواته دون شك، سنسأله الدعاء في شؤوننا وقضايانا وتقضى بذلك أمورنا كلها، كأنما العوالم كلها في يد الشيخ، أو نحن سنتعلم منه هذا، بل مثل هؤلاء الناس لا يرون أصل الكرامة كلها إلا هذه الأعمال وآثارها، مع أنها طلب للدنيا فليست إلا فساداً في فساد.

كان يقول لي يوماً موظف كبير من حيدر آباد مثقف محافظ على الصلاة والصيام، أنه لم يبق من أولياء الله أحد لمَ؟ لأني حاولت في دكن وفي الهند كلها أن أنقل من موضع فلاني إلى العاصمة فلم أجد في الشيوخ من يحقق أمنيتي!..

وبعض الناس يظنون أنهم سيرون أنواراً وسطعات إذا ما ذكروا واشتغلوا، أو أنهم سيسمعون أصواتاً، فليس هذا كله إلا تهوساً وبلاهة، إنه لا يجب أولاً أن تحصل تلك الآثار على الذكر والشغل ولا يحتاجان إلى ذلك، وثانياً لا تكون تلك الأنوار والأصوات في بعض الأحيان إلا وليدة ذهنه، وليست شيئاً آتياً من عالم الغيب، وثالثاً لو انكشفت أشياء ذلك العالم فأية فائدة من ذلك، إذ لا يزداد التقرب بتكشف عالم، إنما خلق الله للقرب إليه الطاعات، قد يرى الشياطين الملائكة في بعض الأحيان، ولا يزال هؤلاء الشياطين شياطين، ثم ستنكشف حقائق ذلك العالم بعد الموت، للمؤمن والكافر على السواء، أفيحصل بذلك القرب المقصود لكل أحد؟!.

فالغاية أن هذه الأشياء ليست من أغراض البيعة الحقيقية، ولذا يجب عليه أن يخلي نفسه منها كلها، ويعلم الغاية الأصيلة والمقصود الحق من السلوك، هو رضا الله سبحانه، وطريق ذلك امتثال الأوامر المشروعة والمواظبة على الذكر وهي إزالة الغفلة، وحقيقة العلاقة بين الشيخ والمريد هو أن الشيخ يُعلّم والمريد يعمل به، ولو لم يجد كيفيته وحالته، ولو لم يحرز كمالاً، كما يظن هو فإنه سيرى ثمرة ذلك، وهي رضا الله سبحانه، ومن هذا الرضا سيحصل الدخول في الجنة ولقيا الرب سبحانه، والنجاة من النار، وذلك بأن يعد الشيخ بتلقين ذلك، وأن يتعهد المريد باتباعه في ذلك، وتلك هي حقيقة الإرادة والإرشاد.

وإن كان يمكن هذا التعليم بدون البيعة المتعارفة، غير أن البيعة من طبيعتها أن الشيخ المرشد يعظم إقباله وعنايته بالرجل الذي يبايعه، والمريد يرغب في

كمال إطاعته، وذلك حكمة تحديد شيخ مرشد وتعيينه، إذ تكثر بذلك العناية، أما وضع اليد في اليد، أو أن تمسك امرأة بطرف ثوب وتبايع الشيخ فليسا هما إلا من العوائد المستحسنة لتوكيد هذا العهد، لا أنه من عناصر المعاهدة أو البيعة، ولذلك لا ترى في أمر الغائب الذي ليس بموجود تلك العادة، وقد ورد هذا الاستحسان في السنة، فقد أثر في الرجال وضع اليد في اليد، وأما إعطاء الثوب في اليد فإنه يقوم مقام أخذ اليد.

أما أخذ اليد حسب العادة والتقليد أو تناول يد مرشد وبالأخص يد شيخ بالاسم، فهو أقرب إلى الهزل منه إلى الجد، وقد تحدث الشيخ عن ذلك في حماسة وقوة.

لا طائل تحت هذا التعلق الفارغ، ولا تحت هذه البيعة الإسمية الرسمية، ولا لزوم لصورة البيعة، الأصل هو روح البيعة، أي: الاتباع، ولا حاجة أن يدخل الإنسان في إرادة شيخ، إبدأ عملك بتوجيه المرشد وقد تحققت العلاقة بينك وبينه، وستجد حتماً ذلك النفع الذي نعتقده في البيعة والإرادة، وإني لأعجب للناس أنهم لا يعملون إذا أمروا بالعمل، ولا يريدون إلا اسم البيعة، لذلك ترى أن المرشدين الذين يأخذون البيعة، ولا ينصحون بعمل، تجد مريديهم أعظم سروراً بذلك، لأن العمل شاق على النفوس، والبيعة التيي لا تكلف شيئاً ترغب فيها الطباع، أما أنا فلا أبايع بل أنصح بالعمل فيسخطهم ذلك.

وزعموا أن الأسرار الخاصة بالصوفية، ورموز الحب، لا تباح إلا للمريدين، فلا يبايع أحد إلا ويلقنه الشيخ رمز المحبة وسر الطريق، فيصبح المريد من العارفين الواصلين، عليك بذكر الله واتباع رسوله، وذلك هو الوصول، وهو رمز الشريعة والطريقة، وراجع الشيخ في طرق إصلاح النفوس، وهذه هي الأسرار، إن كانت

هنالك أسرار، ولو سأل أحد هل هذا هو الطريق الباطني، نقول له بأعلى صوتنا، وملء أفواهنا، هذا هو الطريق، وأنه ستعرض أحوال عظيمة، وتطرأ حالات جليلة بيد أنها ليست مقصودة.

إنما الأحوال أشجار زاهرة في جانبي الشارع سواءٌ رأيتها أم لم ترها، وستقطع الطريق على كل حال، وتصل إلى المنزل، ولا يشترط فيه إلا مداومة السر، ولا يرى بعض الناس هذه الأشجار والرياحين طول العمر، ولا ريب في أن التي تراها أحوالاً وكيفيات، إنما شأنها شأن الورد، الورود والرياحين المنسقة المرصوصة على جانبي الشارع، وإذا غضضنا طرفنا في سيرنا ولم ننظر إلى تلك الأشجار والأزهار، أفلا ينقطع الطريق إذن؟! لا بد أن نقطع الطريق ونطويه، سواءٌ أبصرنا الشجرات، أم أطرقنا رؤوسنا، ومررنا لا نعرج على شيء، ولا تحين منا التفاتة إلى شيء.

والغاية أنه لابد من السير، ولا بد من الرفيق، للوصول إلى المرام، ولاستقامة الاتجاه في السير، فلو ابتغى ضرير الوصول إلى موضع يتحتم عليه أولاً أن يمشي، فإنه إذا لم يمش فلا يجذبه ألف رفيق وألف دليل، وأنه إذا ما مشى فسيحتاج إلى رفيق، لأنه بدونه لا يسلم من العثار والزلل، ولا يعرف الطريق المستقيم، والمفروض عليه إذا توخّى السلامة في المشي والوصول، أن يمشي بقدميه، ويستصحب رفيقاً دليلاً، فالطريق والتصوف لا يجاوز هذا المثال، فالإرادة وبدء العمل كالمشي على القدمين، والتشبث بأذيال شيخ كامل، كوضع اليد في دليل خِرِّيت.

الصحبة والأواصر:

إن ضرورة البيعة العظيمة هي هذه الرفقة، أو صحبة الشيخ وإحكام الرابطة به، ليسلم الطالب من أخطار الطريق وعثاره، وهو أمر بديهي لا يحتاج إلى دليل، فالرجل لا يستطيع أن يستغني حتى في الأمور التافهة الواضحة من أمور

الدنيا عن صحبة ماهر فيه عارف بحقيقته وكنهه وإعانته للبراعة والتبصر فيه، وشتان بين معلومات فن والتبصر في ذلك الفن، ونستطيع أن نكتب معلومات وحقائق من كتب فن تنسيق الحدائق وغرس الأشجار والفلاحة، بيد أننا إذا شرعنا في الفلاحة وغرس الأشجار معتمدين على معلومات كتابية، ودراسات نظرية، أفلا نعثر ونخطىء في كل خطوة من خطوات ذلك العمل؟! وبالعكس من ذلك، لو قضينا مدة من الزمان في صحبة زارع فلاح، نعمل تحت إشرافه، اكتسبنا بصيرة ومعرفة في خفيِّها وجليِّها، حيث لو فوضت إلينا قطعة جديدة من الأرض لما وجدنا في العمل فيها صعوبة وتعثراً.

أما في هذه الأيام فقد أصاب الناس عدوى هذا المرض كالوباء، وبالأخص في أمور دينهم، بحيث ينهضون للتجديد والاجتهاد في الدين - فضلاً عن الاتباع - معتمدين في ذلك على مجرد القراءة والمطالعة، فمن نتيجة ذلك أن كثيرين من أصحاب المعلومات الدينية والدراسات الواسعة، الذين لم يصحبوا شيخاً يَضلون ويُضلون، وإني لا أعد حالة أمثال هؤلاء، إلا كحالة مسلم حديث الإسلام، تلقى إسلامه كله من مطالعة الكتب، ويقوم بكل أعماله من صلاة وصيام وزكاة وحج، وجميع فرائضه وسننه وأركانه وشروطه، باستعانة الكتب، ومن المطالعة فيها، أنه ليستطيع أميٌّ تربَّى في بيئة المسلمين المتدينين، وفي وسط ديني، أن يصلي ويصوم بطريق أحسن، بمجرد مشاهدة آبائه ومن حوله يصلون ويصومون، وكذلك لا تجد فنّاً من الفنون ولا شعبة من شعب الحياة إلا ولابد للبراعة فيها من صحبة رجل ماهر فيها.

أترى وصل أحد إلى الكمال والجودة بمجرد مطالعة الكتب؟! وأنه لأمر ملموس واضح أن الرجل لا يقدر على عمل النجارة إلا إذا جلس مع النجار زماناً، ولا يقدر أن يتناول آلة من آلات النجارة البسيطة ويرفعها كما يرفع النجارون، إلا إذا جلس مع نجار حاذق يتعلم عليه، وكذلك شأنه مع آلات الخياطة وصناعات أخرى، ولا يقدر على إجادة الخط إلا إذا جلس عند الخطاط

وأبصر كيف يتناول القلم، وكيف يُمرّه على الورق، فغاية الأمر أن أحداً لا يستطيع أن يصبح كاملاً إلا إذا جلس عند شيخ كامل، وأن صحبته لازمة.

ومن أقوى الأدلة على أهمية الصحبة وضرورتها لدينا، هي الصحابة، إن أدنى رجل من الصحابة أفضل من غير شك من أكبر محدث أو فقيه وأعظم ولي أو غيره، والذي لاشك فيه، أن سبب هذا الفضل والسمو، ليس الكتب، إذ الصحابة أكثرهم أميون، ولا كثرة المعارف والمعلومات، إذ أصاغر العلماء من بعدهم كانوا يعلمون تفاصيل الدين أكثر منهم، فلا يعدو سبب فضيلتهم هذه صفة صحبة رسول الله ﷺ، التي لا يمكن أن يحصل عديلها لأكابر العلماء من بعدهم، فضلاً عن أن يحصلوا أقلها وأدناها، ويعرف الذين لهم أدنى تجربة، أن ما يحصل في صحبة يوم واحد، لا يحصل من مطالعة الكتب سنين طوالاً، ولا مغالاة في هذا!.

حيث يقول الشاعر ما معناه:

ساعة تقضيها في صحبة الأولياء خير من تعبد قرن كامل بدون رياء

فلضرورة الصحبة المحتمة هذه، ألح عليها خصوصاً في جميع المناسبات التي جاءت في كتاب قصد السبيل وكتاب تعليم الدين، وصرّح أن الطالب إذا وجد وقتاً وفرصة بعد البيعة، يجب عليه أن يكون في صحبة الشيخ، أو يداوم المجالسة في حضرة شيخه، أو في حضرة رجل صالح صحيح العقيدة.

وأنه إذا تسنت له الصحبة لأمد أطول، استنارت بصيرته، حتى يصبح يعتقد حالته السابقة شيئاً من الحماقات والسفاهات، وقد كان هذا شأن محرر هذه السطور وقصته، فقد كنت درست كتباً وعشت في وسط أصحاب العلم المجرد، ونلت شهادة الفراغ، وكنت أعد نفسي من الكتاب والمؤلفين، ولم أكن دون أترابي وزملائي في الفطانة والذكاء، بيد أني بعدما حضرت مجالس

حضرة الشيخ عدة مرات، استبان لي أني لم أكن إلا رجلاً من الأغبياء الأجلاف من ناحية الفهم الديني والبصيرة الدينية، يقول الشيخ:

خذ رجلاً غير عالم ـ مهما كان عاقلاً ـ ولم يكن صحب عالماً محققاً، فابعثه في صحبة محقق لستة أشهر، إني أحلف بالله أن ذلك المحقق سيثبت، ويجعل هذا العاقل مقراً بلسانه بأنه سفيه، وليس عندي طريق أقوى للإقناع من أن أحلف بالله، وليس وراء الله للمرء مذهب، فلو احتجت إلى حجة أكبر من هذه، فعليك بالامتحان والتجربة العملية، وذلك بأن تطلب إجازة لمدة ستة أشهر، واسألني عن اسم محقق، ثم ترى أنك ستقدم وأنت تقول: (إني عاقل)، وتنصرف وأنت تقول: (إني كنت سفيهاً) لأنك كسبت العقل ببركة صحبة ذلك المحقق.

دع البصيرة العلمية والدينية، أو الباطنية، فمقامها عال، وخذ الحياة اليومية، فالذي نسميه فيها الأدب والحضارة والأناقة، لقد شعرنا ـ بعدما حضرنا مجالس الشيخ وصحبناه أيّاماً ـ بأننا كنا مخدوعين وآخذين بالقشور والمظاهر، حضر شاعر من (جونبور)[1]، وقد كان متحلياً بالمدينة وأخلاقها ومظاهرها.

لما رجع بعد قضاء عدة أيام، كتب رسالة فحواها:

إن الذي كنا نسميه ثقافة وأدباً، عرفنا عنها، بعدما حضرنا هناك في تهانة بهون أنها لم تكن من الثقافة والآداب في شيء. قال طبيب بعدما قضى عدة أيام هاهنا، أن الأمور التي كنا نعدها من الكمالات ظهرت نقائص، والتي كنا نعدها فضائل ظهرت معايب.

---

[1] - مدينة تقع في ولاية (أترابرديش) في الهند، كانت مركزاً للثقافة الإسلامية في القرن الرابع عشر الهجري، أنجبت أعلاماً تفخر بهم الهند، منهم العلامة محمود الجونفوري (ت١٠٦٢هـ)، صاحب مؤلفات عديدة، ومن أشهرها «الشمس البازغة في الحكمة» و«الفرائد في شرح الفوائد».

إفراد الشيخ:

وتحدث الشيخ في هذا الموضوع عن نقطة مهمة، يجب أن لا ننسى أنه أشار إلى ضرورة تفريد الشيخ، وتوحيد الصحبة، وبالأخص في الحالة البدائية، وفي حالة النقص، إذ لو كانت صلتنا بشيوخ عدة، أو إذا حضرنا في مجالس رجال الله المختلفين في صيغتهم وذوقهم لوقعنا في القلق النفسي والتشتت الفكري، بدل الجمعية والطمأنينة، لأجل تلك الحرية والإنطلاق.

كتب الإمام الغزالي: أن سلامة الإنسان متوقفة على التقيد، وأن الإطلاق مضر له، إذ لا تحصل الطمأنينة والراحة دون التقييد.

مثلاً أردنا أننا حينما نمرض، نراجع فلاناً الطبيب فبذلك حصلت طمأنينة، وهي أن الطبيب موجود، إذن فلا مخافة من المرض، ولن نحتاج كذلك إلى التفكير عندما يطرأ المرض فيمن نرجع إليه في المرض ونستشيره. وإذا كنا غير مقيدين مثلاً، ولم نكن ملتزمين بطبيب خاص لنا، فإذا طرأ أمر فرجعنا إلى طبيب، وطرأ آخر فاستشرنا طبيباً آخر، وطرأ ثالث فراجعنا ثالثاً، فلن نجد بذلك طمأنينة وسكينة لقلوبنا، بل لن نزال في الهم والتفكير إلى من نرجع في هذه الطارئة أو في تلك؟!.

وضرب حضرة الشيخ هذا المثال، وهو أحسن مثال، إذ نجرب ذلك ونراه كثيراً كل يوم صباح مساء، في مداواتنا للأمراض الظاهرية البدنية، وبالأخص في هذه الأيام، فقد أصبحت الحال لكثرة الأطباء وتنوع طرق العلاج وحرية الطبائع أن المريض يصير بذلك موضع التمرين والتجربة للأطباء وطرق العلاج القديمة والحديثة، كل يجرب عليه طبه وطريقة علاجه، فلا تزول طمأنينة المريض والممرضين في ذلك، ولا يضيع في ذلك الأموال الطائلة فحسب، بل ويتعرض المريض للهلاك بسبب وقوع المعالجات الكثيرة المتنوعة عليه، فإنه

يجب عليه أن يختار طبيباً بتدقيق وتحرّ، وإن كان من المتوسطين، غير أنه لا يكون همه في كيس المريض، بل في صحته وشفائه، وإزالة ما يعانيه من سقم وألم، ثم إذا لم يشف المريض من مرض هام، بعد طول ممارسة الطبيب العلاج، فإذن يستشيره في مراجعة طبيب آخر، ويشركه معه في المعالجة.

هذه تجربتي الشخصية، وهو الذي اخترته لنفسي ولأهلي جميعاً، وكان فضل الله علي أن رزقت طبيباً مخلصاً[1] لا يجاوز بصره مرض المريض، ولا يعدو رضا الله سبحانه إلى شيء آخر، فمن مرض سلمته إليه، والحمد لله، على أني لم أضطر في هذه المدة الطويلة التي تقارب خمساً وعشرين سنة، (مدة إقامتي في لكهنؤ)[2] إلى معالج آخر مباشرة واقتراحاً من نفسي، وإن احتجت سألته في ذلك وأشركت معه طبيباً آخر في المعالجة باقتراحه ورأيه، وقد رزق الله الشفاء للجميع، غير البعض الذين جاءهم الأجل المحتوم، ولم يكتب لهم الشفاء، سواء كان ذلك الشفاء بطيئاً أو عاجلاً، وأن الطمأنينة التي تحصل للقلب بهذا المنهاج، والطمأنينة والإرتياح الذي يغمرني قبل المرض وخلاله وبعده فلا يعرفه غيري، جزى الله عني هذا الطبيب المخلص الشقيق خير الجزاء.

ومن سعادتي التي تفوق هذه السعادة، أن الله سبحانه وتعالى قد قيض لي طبيباً ومرشداً، وهو الشيخ التهانوي، الذي لم أحتج بعد اتصالي به إلى

---

[1] - هو صديق العلامة المؤلف الدكتور السيد عبد العلي الحسني (الأخ الأكبر للعلامة السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي)، كان طبيباً حازقاً، وعالماً تقياً، علماً من أعلام الأمة الإسلامية، ونادرة من نوادر الأيام في الجمع بين الثقافتين الشرقية والغربية، انتخب أميناً عاماً لدار العلوم - ندوة العلماء عام ١٩٣١م. وكان شديد العناية بنشر وتعليم اللغة العربية وآدابها في الهند، توفي عام ١٣٨٠هـ. وللعلامة المؤلف مقالات بالأدوية عن حياته بعنوان: «رجل موصوف بالملك» (فرشته صفت إنسان) جمعها الأستاذ محمود الحسني الندوي في كتاب مستقل.

[2] - لكهنؤ: عاصمة ولاية أترابرديش في الهند.

فوضى واضطراب في تربية النفس ومعالجة الأمراض الباطنية، حيث لم أحتج إلى حرية، وقد كنت تعلمت في معهد علمي، ميزته الكبيرة الحرية والإنطلاق، وكنت في الدرجة الأخيرة من السل الباطني، فكل ما بقي فيّ من رمق الحياة، وكل ما بقي للنفس من الطمأنينة والسكينة ـ رغم أمراض الجسم المتنوعة والمتاعب المختلفة ـ إنما يرجع الفضل في ذلك كله، إلى علاقتي بالشيخ وكتاباته، ولولا هذه القوة الباطنة لما استطعت أن أقاوم العلل العسيرة والصدمات العنيفة التي أصبت بها.

وأقول ـ على أساس من تجربتي وتجربة كثير غيري ـ للذين لم يقدر لهم أن يكون لهم اتصال بالشيخ، بأن كتابات حضرة الشيخ في المنزلة الثانية من الشيخ، فمن لم يستفد بذاته فليستفد من كتاباته، وليبدأوا من مواعظه وأقواله، وليقدموا ملفوظاته، فإنها تقوم مقام صحبة الشيخ، وقد أوصى الشيخ من فاتته صحبة الشيوخ أن يطالع ملفوظات المشايخ، على أن تكون النية هي الإصلاح الديني والباطني، والاستفادة دون التحقيق والبحث والنقد كما ترى في هذه الأيام، يقول في موعظة له كان موضوعها (التقوى) وقد ذكر كيف ينشىء الله المحبة بالله وطريق إدامتها:

طريقة إدامة هذه المحبة هي أن لا تدع صحبة أولياء الله، إذا لم تقدر على الكثير منها فمرة في الأسبوع أو مرة في الشهر، والخاصية في ذلك أن الصفات التي توجد عندهم ستنتقل حيناً فحيناً إليك، وإني لا أحملكم على هجر أعمالكم في الدنيا، بل أصحبوهم في أوقات فراغكم، وإذا لم تتمكن من ذلك فاقرأ أقوالهم، لكن ليس كما تقرأ كتب الأخبار، أو كما تطالع فنّاً من الفنون.

يجب قراءة ملفوظات الشيخ التهانوي بالأخص، لأنها تلائم الأحوال السائدة والتجديدات الحالية، بل وأخاف من قراءة أقوال الأولياء القدماء أن

تنشأ بها أخطاء في الفهم، وسوء ظن بهم، وبهذا الطريق، وعلى وجه الخصوص على المبتدئين وقليلي العلم من الناس، لم يزل اتصالي طيلة عمري برجال تعلموا العلوم الحديثة وتأثروا بأفكار العصر، فناولتهم أولاً ملفوظات الشيخ دائماً، فلم يكن أن زالت عنهم الأخطاء المنوعة، التي كانت وقعت لهم، ووقعت في فهمهم، ومُحيت، بل وزال ما وقعوا فيه من سوء الظن بالدين - فضلاً عن التصوف - ونشأ عندهم ذوق ديني ورغبة في الدين.

الصحبة تشرب القلب الدين:

وليس من ثمرات صحبة أولياء الله حصول البصيرة الدينية وفقهه، بل إن من خاصة الصحبة الطبيعية والنفسية أنه ينتقل كل ما في صاحبك إلى نفسك شيئاً فشيئاً، وبتأثير ذلك يختار الرجل الأعمال كذلك، ولو متكلفاً إياها، ولتعويد نفسه بها، غير أن الدين بغير الصحبة قلما يسري في القلب وقلما يستقر فيه، وصورة مثل هذا العمل تشبه عمل أجير أو خادم موظف، لا علاقة قلبية بينه وبين المستأجر المستخدم، فهذا هو الذي تحدث عنه الشيخ في موعظته المذكورة المعنونة بالتقوى إذ قال: العمل شيء آخر، ولكن أصل الدين هو الذي يدخل في قرارة القلب وسويدائه، وهذا يقتصر على الصحبة.

فالغاية هي صحبة المحققين من أولياء الله، وإذا لم تقدر ذلك، فقراءة أقوالهم على الأقل بالتوالي والدوام، ومطالعتها لإصلاح النفس، والإفادة منها لازمة ضرورية، لا لفهم الدين الصحيح وحصول بصيرته التي هي عبارة عن نور الباطن، كما أن البصر عبارة عن نور الظاهر، بل ينتقل بذلك إيمان أولياء الله وعملهم إلى باطننا ولا يقف، بل ويجاوز القالب والجسم إلى القلب والروح ويرسخ فيهما.

لكن عجباً للناس، إذ لا يعبأ بهذه الحقيقة المكشوفة الظاهرة العقلية رجال مثقفون عقلاء، لأنهم رأوا في براعتهم في العلم والتأليف، وفي سعة

معلوماتهم، كفاية لإصلاح أنفسهم، بل واعتماداً على ذلك يتزعمون حركات الإصلاح المستقلة، ويصبحون قادتها، فيصبحون بذلك، مع ذكائهم المفرط وبراعتهم، كطبيب، ومعالج لم يجلس عند طبيب أو مربّ وبدأ معالجته نفسه ومداواة غيره، معتمداً على علومه الكتابية وذكائه المطبوع، وبعد ذلك يستبعد منهم أن يقلدوا أحداً، وأن يتبعوا غير أنفسهم، غير أن الطريق ليس بمسدود. والماء ليس بمفقود، إذا كان القلب موجوداً والظمأ باقياً، فلا تتعب نفسك كثيراً في طلب الماء، واهتم بوجود الظمأ، فإنه إذا وجد عندك الظمأ الصادق، نبع الماء وفار من كل مكان.

الفصل الثالث

في

الحبّ والعشق

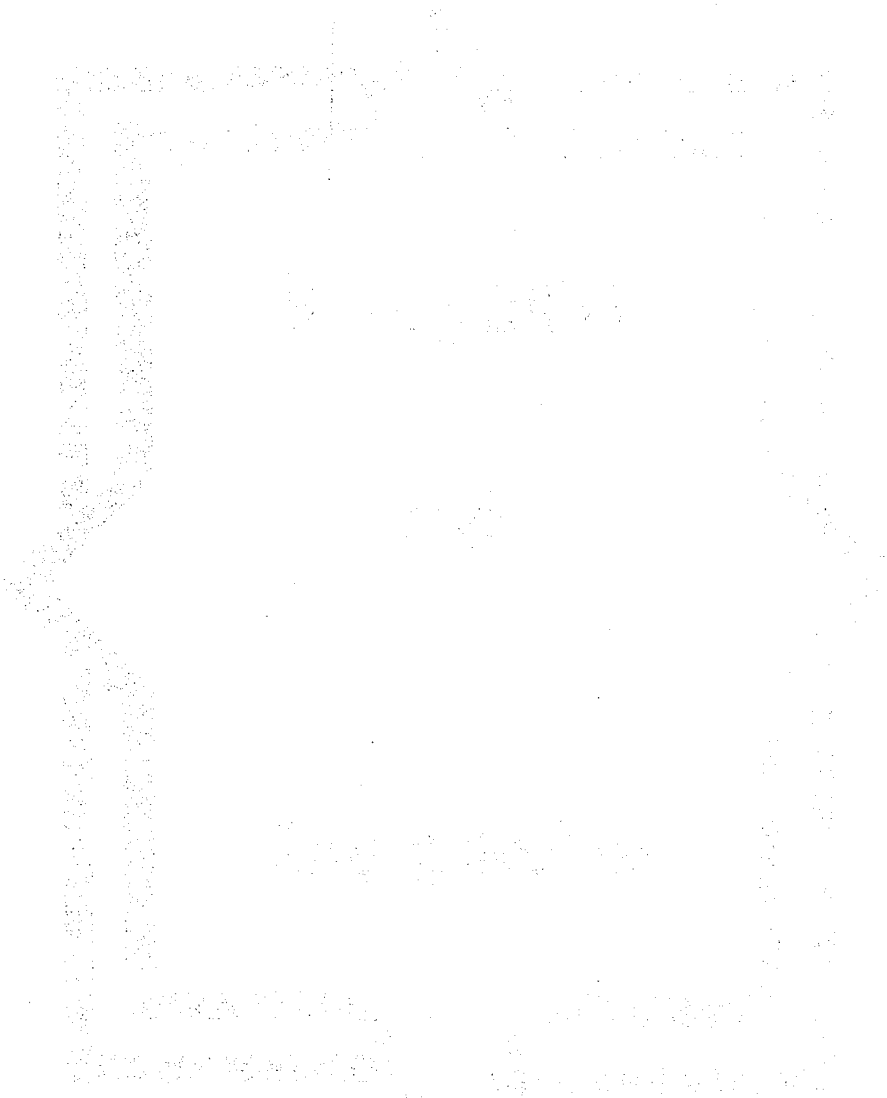

الحب والعشق:

لا يعتبر الحب والعشق من خصائص التصوف عند الصوفية المسلمين في جميع طبقاتهم المثقفة، وغير المثقفة، العامة، والخاصة، على السواء.

ومن صميم التصوف فحسب (حتى أنه سمي التصوف بطريق العشق) بل إنك تجد هذه الفكرة في جميع الأديان والفلسفات التي تتبني فكرة ومنهاجاً، كفكرة التصوف ومنهاجه، أو ذلك الذي يدعى في الأدب الغربي بالسرية، بل وتجد الحب والعشق من أعاظم عناصرها، وقد بالغ المحققون الغربيون وزعموا أنه جاء الحب والعشق في متصوفي المسلمين من التأثيرات الخارجية، وغلوا في ذلك غلواً، فقالوا عن نفس التصوف: أنه نشأ أخيراً في الإسلام، وهو من نتائج التأثيرات الخارجية، وإن كان التصوف الإسلامي عند الصوفية المحققين عنواناً لعين الإسلام وشريعته بل ولكمال الإسلام وشريعته، حتى أن صوفيتنا يعدون الصحابة رضوان الله تعالى عليهم بل ورسول اللهﷺ نفسه مُقدَّم هذه الطبقة وقائدها، وهاهو مفهوم تجديد شيخنا المجدد عليه الرحمة كما علمت فيما ذكرناه.

وقد استنبط حضرة الشيخ ألفي مسألة للتصوف من القرآن والسنة بدلالات ظاهرة غير خفية، وقال: إني لو أطلت التفكير لاستخرجت بقدرها مسائل أخرى، وستجد شيئاً من أمثلة ذلك في مواضعها فيما يأتي، وما أردت من هذا البيان إلا أن أقول: أنه لما أمكن للتصوف الإسلامي أن تستخرج مسائله الأساسية والفرعية من الكتاب والسنة بهذا المقار الكبير، فما هي الحاجة إلى الاقتباس من غير الإسلام؟! أما الاصطلاحات والتعابير السائرة في التصوف اليوم، فهي ليست إلا وسيلة لتوضيح المسائل، ولو أنها مسائل خارجية كشغل (باس أنفاس) وغيره، ومثاله كما قال حضرة المجدد كمثال التدبير الذي اقترحه سيدنا سلمان الفارسي في غزوة الخندق وأخذ به الرسول

ﷺ، فيمكن بصدد ذلك أن يقول قائل أن الجهاد الإسلامي كان مقتبساً من التأثيرات الفارسية أو الرومية، فهل يصح له أن يقول هكذا؟...

ووقع المحققون بسبب الاصطلاحات غير الإسلامية في أخطاء جسيمة، والحقيقة في ذلك أن الإصطلاحات نوعان، أولهما يتعلق بالغايات (مثل الرضا والتقرب وغيرهما)، على أنهما ليسا خارجين عن الشريعة، بل إن حقيقة اصطلاحات التصوف في الغايات هي ما ذكرت في الشريعة، والثاني من الاصطلاحات، هو ما يتعلق بالأمور الزائدة، وهي التي يمكن لها أن تستقل عن الشريعة، مثل تجدد الأمثال والتوحيد الوجودي وشغل الرابطة وغير ذلك.

أما تعليم الحب والغرام فليس إلا أنهم لو استقرأوا القرآن لعلموا أن كون الرجل مؤمناً، هو نفسه يستلزم الحب والغرام فضلاً عن أن التصوف يحتاج إليهما، فقد قيل ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1]. وهل الحب الشديد سوى العشق كما ورد في الأثر الشريف عن المحبة لرسول اللهﷺ: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُوْنَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ والنَّاسِ أجْمَعِين**»[2].

العشق من لوازم الإيمان:

فحينما قلت آمناً فكأنما قلت عشقنا، وكما أن واحداً إذا أبى إعطاء نفقة الزوج بعدما تزوج، وقال: إنني لم ألتزم بإعطاء النفقة، بل إنما قبلتها زوجاً لي فحسب، فلابد إذن أن يقال له أنك حينما قبلت الزواج فقد فرضت على نفسك نفقتها وحقوقها، فهكذا حينما يشهد الرجل بكلمة: لا إله إلا الله.

---

[1] - سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

[2] - والحديث عن أنس ﷺ، رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب حبُّ الرسولﷺ من الإيمان، رقم الحديث (١٥) ومسلم في كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول اللهﷺ أكثر من الأهل، رقم الحديث (١٦٩).

أصبح عاشقاً، فإن هذه الكلمة تجعل قائلها مؤمناً، أما المؤمن فقد قيل عنه ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾[1]. ولذلك أصبح الناس جميعاً مع التصديق والشهادة عشاقاً، فلا تنكروا، وأدوا حقوق العشق عليكم، وائتمروا بأوامر المحبوب طائعين منقادين.

الحب العقلي:

غير أن الأوامر الإسلامية، كما أنها تأبى الشذوذ والإفراط والتفريط في كل ناحية من النواحي كذلك التلهب، والثورة والولهان، وخرق الثوب في الحب، ولا يجوز أن يعد ذلك كله من الغايات المأمور بها، أو ترجوا فيها أجراً ومثوبة، مع أن رجلاً ضعيف القلب أو مغلوباً على أمره إذا تلبس بهذا يعد مغروراً، وليس الأصل في هذا الحب الإيماني الذي بت في قوله: ﴿أشدُّ حُبّاً لله﴾ ويدعى هذا الحب حبّاً عقلياً لا حبّاً طبيعياً ولا حبّاً نفسياً، يقال له في العرف عشقاً، وقد سأل رجل عن الفرق بينهما وأيهما أفضل قائلاً: في كتاب (الصراط المستقيم)[2].

لقد آثر الشيخ إسماعيل الشهيد[3] الحب الإيماني أو العقلي على الحب

---

[1] - سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

[2] - وهو كتاب عظيم في التصوف والإصلاح، أصله أفادات الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، قيدها الشيخ إسماعيل والشيخ عبد الحي البرهانوي في كتاب مستقل بعنوان (الصراط المستقيم).

[3] - هو الشيخ العالم الكبير العلامة المجاهد في سبيل الله الشهيد: إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي، ولد في دهلي، وتربّى في مهد عمّه الشيخ عبد القادر بن شاه ولي الله الدهلوي، لازم السيد أحمد عرفان الشهيد، ثم سافر معه إلى الحدود الشمالية الغربية للهند، فجاهد معه في سبيل الله، حتى استشهد في معركة «بالاكوت» عام ١٢٤٦هـ. وكان كالوزير للإمام أحمد بن عرفان. وله مصنفات عديدة قيمة، منها: الصراط المستقيم وإمكان النظير وامتناع النظير بالفارسية، والإشراك والبدع =

النفساني أو العشق، وأثبت أن طريق العشق لا يخلو من الذم والنقيصة، مع أن الصوفية الأجلاء كالشيخ الرومي[1] والجامي[2] مدحوه مع أن الصوفية الأجلاء كالشيخ الرومي والجامي مدحوه وأثنوا عليه، فليخبرني حضرة الشيخ برأيه في هذا الصدد بالتفصيل.

فرد الشيخ على هذا السؤال رداً يشتمل على علم كبير ومعرفة دقيقة:

الفضيلة أولاً نوعان: أحدهما باعتبار ذات الشيء، وثانيهما: ما يختص بحالته الخاصة، يجدر بنا أن نسمي النوع الأول الفضيلة الذاتية، والثانية الفضيلة الإضافية، والأمر الثاني هو أن كمالات الولاية مستفادة من كمالات النبوة، فلذلك كل كمال للولاية يكون أشبه بالكمال النبوي، يعد من الكمال الذي هو أقل منه شبهاً به، وثانياً أن العشق درجة خاصة للحب تحوي التهيج والتحرق.

واعلم بعد ذلك أن صفة الحب الإلهي التي تلازم الأنبياء عليهم السلام، لا تهيج فيها ولا تحرق، ولذلك تجد هذا النوع من الحب أعلى أنواع الحب من غير شك، ولكن يمكن نظراً إلى طبع خاص وميل خاص، أن يكون النوع الآخر أجدى وأنسب، حيث أن اللحم من أعلى الأغذية في ذاته، ولو أن الشعير ربما يُرى أصلح الأغذية لرجل ما، لطبيعته الخاصة.

فالشيخ الشهيد ـ رحمه الله ـ، كان يؤثر الحب الإيماني في مرتبة الفضيلة

=بالعربية، وتقوية الإيمان بالأردوية، وهو كتاب نفيس في التوحيد، نقله إلى العربية و قدّمه العلامة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي، وقد صدر محققاً ومنقحاً لأول مرة عن دار ابن كثير بدمشق عام٢٠٠٢ م.

[1] – قد سبق ذكره في صفحة(٨٤).

[2] – هو عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الجامي، أحد كبار الصوفية، ولد في جام (بلد ما وراء النهر). توفي في هراة عام ٨٩٨هـ، ومن آثاره: تفسير القرآن، وشرح فصوص الحكم لابن العربي، وشرح الكافية لابن الحاجب، وله غير ذلك كتب بالفارسية.

الذاتية، ويعد الحب النفساني مضراً، لأنه قد يولد في أصحابه الذهول والمغلوبية، والآخرون من الصوفية إنما يمدحون العشق للفضيلة الإضافية التي توجد فيه، لأن مثل هذه الأقوال توجد في كلام أهل الأحوال الذين يرمون إلى التحقيقات العامة، أو يكون المراد من العشق في مصطلحهم هو كمال الحب مطلقاً، ومن أنواعه، الحب الإيماني أيضاً، والمقصود ذم من لم يحصل على هذا الكمال، لأنه جاء في الحديث الشريف: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُوْنَ أَحَبَّ إِلَيْهِ**»[1].

فعلى كلا التفسيرين لا تتعارض وجهات نظر الشيخ والصوفية والله أعلم.

الحب العقلي اختياري:

وبين الحب الطبيعي والحب العقلي الإيماني فرق آخر عظيم، وهو أن الحب الطبعي ليس من الأمور الاختيارية، والإسلام لا يأمر إلا بأمور اختيارية، أما الحب العقلي والإيماني، فهو في مستطاعنا، وقوامه العمل، ومثال ذلك، أننا إذا اخترنا عقلياً أحد الأعمال ومارسناه مراراً، فلا بد من أن نألفه ونجد فيه أنسنا ونحبه، وإذا أخذنا ذلك العمل اتبعاً لأحد، أو بأمر منه، فلا بد من أن ينشأ في أنفسنا حب هذا الأمر أو المتبوع، ولذلك هدانا الله إلى طريق ميسور لهذا الحب المختار، وهو أن ننسج الحياة على غرار حياة رجل، هو أعظم محب لله، وأعظم من يحبه الله من عباده ﷺ، وبذلك يبلغون إلى كمال الحب لله تعالى، بل يكرمكم الله بحبه لكم ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[2].

نشوء الحب من خواص العمل، ويمكن لك أن تختبر ذلك، فإنك إذا

---

[1] - قد سبق تخريجه في صفحة ١٥٤ .

[2] - سورة آل عمران، الآية: ٣١.

كنت تحضر إلى رجل كل يوم بالمداومة فيحصل لديك حبه، يبدو ذلك الحب قليلاً، ثم إذا استمررت على عادتك يستوثق كمحبة الرجل لمن في حجره، فعلى كلٍّ إن من بركات العمل الصالح أن ينشأ حُبّ الله.

وهنا أمر هام، وهو أننا لا نزال نعمل من مدة طويلة أعمالاً صالحة، ولكن حب الله لا ينشأ في قلوبنا، فجواب ذلك أن مفهوم العمل لا يحوي شيئاً واحداً بسيطاً فحسب، بأن يتأتى منه العمل في أي شكل كان بل إن مفهوم العمل متركب من أجزاء كثيرة، منها أن يؤدي العمل بالطرق التي تناسبه، ومثال ذلك: أن مجرد حركات القومة والقعدة ليست هي الصلاة فحسب، فالطرق التي وضعت لأداء عمل يجب أن تباشر أيضاً، وإذن يجب أن ينشأ حب الله، والعلة الثالثة هي أنك لا تعمل إلا اعتياداً، لا بنية زيادة الحب مع الله تعالى، أما أنك إذا نويت هذا فلا شك في تأثيره.

على كل حال، فإن جزءاً من أجزاء هذه الوصفة هي أن تعمل عمل الخير بنية توفير حب الله، وثانياً: أن تذكر الله بحضور القلب، وإن كان قليلاً، ولكنه باجتماع القلب (حتى لا يكون صورة للذكر فحسب)، وثالثاً: أن تختار صحبة المحبين لله، والناس يتحاشون عن ذلك، ولا يفكرون أولاً في أن يقضوا من أوقاتهم قدراً في صحبة تقي صالح، وأنهم بعدما يقرأون كتباً قليلة يزعمون أنهم أصبحوا كاملين فضلاء، هيهات أفيكون أحدنا من الفضلاء والكاملين بمجرد قراءة الكتب.

ووصف هذه الصفة بإضافة بعض الأجزاء فقال:

إن الصفات التي تجعل الرجل محبوباً، وهي الأنعام والمنحة والجمال والفضيلة والكمال هي ثابتة لله وحده على وجه الكمال، من غير انتقاص عقلاً ونقلاً، فليس يستحق المحبة غيره، وطريقتها أن تلزم نفسك أموراً، وهي أن تذكر

الله خالياً ولو لخمس عشرة دقيقة أو لعشرين، ولكن بنية أن ينشأ فيك حب الله، وثانياً: أن تفكر في نعم الله إذا خلوت بنفسك، وأن تفكر في تصرفاتك في تلك النعم، وفيما يأتي من الله على تصرفاتك هذه، وثالثاً: أن تقوي روابطك مع من يحبون الله، فإن لم تكن تستطيع أن تقابلهم وتلاقيهم فيمكن بالمراسلة والكتابة، ورابعاً أن تتمثل أوامر الله جميعاً لأن الذي يطاع ويتبع أمره ينشأ حبه، وخامساً: أن تدعو الله أن يرزقك حبه.

فإنما الحب الذي يؤمر به ويطلب ليس بالحب الطبعي ولا بالنفساني، بل هو عقلي وإيماني، وهو غير خارج من قدرة الرجل، والوصفة التي وصفت تدخل أجزاؤها الثلاثة في قدرة الرجل في:

(١) الأعمال الحسنة بنية الحب.

(٢) وذكر الله مع الحقيقة.

(٣) والارتباط بالأتقياء.

وأسلفنا بيان أهميته بالتفصيل وطرق اتباع السنة، وهذا الحب العقلي والإيماني ليس بأقرب طريق للوصول إلى الله وأوجبه على الرجل فحسب، بل هو أسهل الطرق، حيث لا حاجة معه إلى المجاهدات وغيرها، ويقولون لها في المصطلح طريق الجذب، لأن فيه اقتفاء رسول الله ﷺ، وهو أعظم محب ومحبوب لله تعالى، ويجذب الله هذا المتبع والمقتدي لمحبه الكامل والمحبوب إليه، ذكر في موضع:

والذي نجده في طريقة الشيخ إمداد الله ـ رحمه الله ـ، أنه يحصل الوصول إلى الله في وقت عاجل، وأنه لا يلزم ولا يوجب الرياضات والمجاهدة إلا قليلاً، والسبب في ذلك أن الوصول في هذا الطريق هو بالجذب، لا بطريق السلوك، وهذا الجذب من بركة اتباع السنة المحمدية، لأن اتباع السنة يوصل إلى المحبوبية عند

الله للمشابهة بالمحبوب، ولا بد للمحبوبية من الجذب.

فإذا حصلت المشابهة بالمحبوب، ولو مشابهة ظاهرة، فلا بد لصاحبها من الانجذاب، ورحمة الله مرجوة إذا وفقنا الله لاتباع السنة جميعاً.

الحب قاصر على المناسبة:

وتكلم حضرة الشيخ المجدد حول هذا العشق والحب بكلامٍ لطيف، يفيد العلماء والمتصلبين الجافين سماعه وتفهمه، أكثر من الصوفية ورجال الحب، وهو أن مناط الحب هو المناسبة، وهذه المناسبة تكون بالله أكثر مما تكون بالخلق، والذي يقول له الصوفية: (المظهر الأتم) وأرى أن الله قد جعله محل الخلافة، إذ قال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾[1]. ولا يمكن أن يكون خليفة إلا من كان بينه وبين مستخلفه مناسبة ومشابهة قوية، ظاهرة وباطنة، فإذا كانت المناسبة الظاهرة تتجلى من التصرفات التي تتعلق بالخلافة، فإن المناسبة الباطنة تتجلى من كلمة ﴿من روحي﴾ فإن العبد إذا لم يخرج نفسه عن ﴿أحسن تقويم﴾ ولم يقذف بها طريق ﴿أسفل السافلين﴾ لما كان محبوباً له ومطلوباً غير الله.

معنى (خلق الله آدم على صورته)

المماثلة والمشابهة من دواعي المحبة، فمن الذي يناسبه اللقب يكون محبوباً، وقد سمعت من رجلٍ أنه كان يؤثر ابنه الأكبر لأنه كان يشبهه أكثر، وتبين بالحجة والوجدان أن مناسبة القلب الكاملة إنما تكون بالله ﷻ، وعن هذه المناسبة حدَّث النبيﷺ في قوله: «إن الله خلق آدم على صورته».

وليس معنى الصورة ههنا الشكل، بل هي المناسبة التي تحدث عنها

---

[1] - سورة الحجر، الآية: ٢٩.

الصوفية بنوع خاص، ولمن يقبلها العلماء (الجافون) إنهم يُجفلون من تعبير أن الإنسان مظهر الله ﷻ، وإن كان هذا معنى الحديث المذكور، والمعنى لا يسلم إلا بهذا التأويل وترك بعض الناس هذا المعنى حيث أرجعوا الضمير إلى آدم، لكن بعض الآثار تقول كلمة (صورة الرحمن) مكان صورته، فلم يسع هؤلاء إلا أن قالوا: أن الراوي روى الحديث بالمعنى اجتهاداً منه، لا باللفظ، وأقول أنا: لمَ كل هذا التشدُّد والتقعُّر؟! ألا تنتفعون بتأويل الصوفية في هذا الصدد؟! وهو أسهل وأسوغ الأقوال.

لأن الصورة تقال لما يبدو بها الشيء، فلما ظهرت أوسع صفات الله عن طريق صفات الإنسان، كان أن خلقة الله على صورته دون خلائقه الآخرين!.

أنظر أي شيء يدعى بالصورة؟ قد تقول أنها شكل شيء، ولكن لماذا كذلك، إنما الحقيقة هي أن الصورة هي الظهور، وذلك من كلام الناس، أن صورة المسألة كذا، ويقولون: ما صورة صلاح هذا العمل، فمعنى الصورة هنا هي الظهور، وإنما يقال للشيء الواحد صورة، بمعنى الظهور، إذ تبدو حقيقته بها

وأبان عن هذه الحقيقة الباطنة فيما يأتي بأنها هي الروح التي عبر عنها بقوله ﴿من روحي﴾ أو هي ﴿أنا﴾ فلذا قال: يعبر عن هذه الحقيقة باسم أنا، وهي الروح، وهي شيء خفي، فلما كانت الروح شيئاً خفيّاً أظهرها من الجسد، لذلك لما قال للجسد أنه صورته، فصار معنى الصورة الحقيقي هو الظهور.

فظهر أن معنى «خلق آدم على صورته» على ظهوره، يعني خلق الله آدم على ظهوره أي أظهر صفاته بخلق آدم، وإذا كانت تظهر من المخلوقات الأخرى أيضاً صفات الله، فإن الإنسان، لكونه أجمع للفضائل، أكثر وأعظم في هذا الإظهار، ولذلك يقال عنه: أنه المظهر التام.

ماذا قال الصوفية غير الذي قال الرسول ﷺ، فإنهم غيّروا المصطلحات

فحسب، وهذا من حكمتهم أنهم حفظوا أسرارهم من العامة بأن وضعوا لها مصطلحات خاصة، وهؤلاء العلماء الجافون الذين لا يفهمون مصطلحاتهم ينتقدونهم، ولا يتوجه هذا الانتقاد إلا إلى عقولهم القاصرة التي لا تسع هذه العلوم الدقيقة، ومن عادة المحققين أنهم يظهرون المعارف لطالبيها، مع أنهم يسكتون للمجالين إذا سمعوا منهم النقد، بل وينهون تابعيهم عن إعلان هذه الدقائق.

تأويل حمل الأمانة:

فلما تشبه الإنسان بالله أكثر من خلائقه الأخرى، وجب عليه أن يعظم حبه وهيامه به تعالى، كان يقول حضرة الشيخ في زمن التعليم: أن من حقيقة الإنسان أنه حيوان عاشق، (فصله المنطقي) العاشق، لأن (الناطق) يدخل في الجان والملائكة جميعاً، بل وكان من قول حضرة الشيخ أن جميع المخلوقات من الحيوانات والنباتات حتى والجماد عاقلون، غير أن هذه لا تملك من العقل ما يسعفها لأن يؤهلها لحمل العبء، وأوّل حضرة الشيخ لحمل الأمانة تأويلاً جميلاً، وهو غلبة العشق على الإنسان، وهو أن الإنسان لما كان عاشقاً لأجل المشابهة بالله، نظرا إلى أن العشق ليس أن يتردد صاحبه في امتثال أوامر المعشوق، فقد تقدم بنفسه إلى ربه من دون احتشام ولا روية.

على كل حال، فإن هدف حمل الأمانة للإنسان هو العشق، وقد فهمته من شعر الحافظ الشيرازي إذ يقول:

إن السماء لا تتمكن من حمل عبء الأمانة، وإنما وقعت القرعة علينا نحن المجانين.

وتشير كلمة المجنون في هذا الشعر إلى هدف حمل الأمانة، وقد تبين في هذا البيت نفسه أن العشق هو الجنون، الذي هو درجة أخرى غير المحبة.

لكن مسحة العقل تغلب في حب البدو، أما في حب مجانسة فتغلب مسحة الطبيعة، ويبدو الحب العقلي في ظاهر النظر ضئيلاً بإزاء الحب الطبعي، وإن كانت الحقيقة على عكس ذلك، ولا يمكن لهذا المحبوب الذي أحبه الرجل طبيعياً إذا أبدى في الله تعالى كلمة تمجها الأذن أو فعلاً تكرهه النفس، إلا أن يصير لدى عاشقه بغيضاً.

كان هذا الكلام في رد أرسله إلى طالب ذكر لحضرة الشيخ أن حبه للشيخ قد تغلب على حبه لله.

دواعي الحب موجودة في الله بصورة كاملة:

ثم إن جميع الدواعي التي يمكن وجودها في ذات واحد، إنما توجد في الله على درجة الكمال وبصورة تامة.

ولن تجد محبة رجل بأحد إلا وجدت من أسبابها، إما كمالاً أو جمالاً أو نوالاً، فظهر من ذلك أن الحب لا يختص بالذات، إنما يكون بالصفة، فالتمس هذه الصفات، فمن الذي يحملها بدرجة كاملة، فهو الذي يملك مادة كبيرة من دواعي الحب، أما المسلم فلا يستطيع أن يأبى أن هذه الصفات توجد بصورة كاملة في الله.

فالحب بالله من لوازم الإيمان للمؤمن، وليس هذا فحسب، بل كل حب ينشأ في المؤمن إنما يكون من ظلال المحبة بالله، إذ كل جمال وكمال يوجد في أحد ليس إلا ظلاً من كمال الرب، إنما كل كمال ظل كمال الله سبحانه، فلا جرم أن كل من يصبو ويتيم يعد محباً لله، ومثال ذلك، أن رجلاً أبصر الشمس على حائط فأحب الحائط، ولم تكن الحقيقة سوى أنه عشق الشمس المنيرة في السماء، لا الشمس المنعكسة على الجدار، لأن غرامه نشأ لكمال بدأ على الحائط، وهو النور الذي مصدره الشمس، وليس من مظاهر الحائط، ولذلك ترى أن الشمس إذا اختفت، والضوء إذا غاب، غاب معه غرامه وحبه.

ما يجب في الحب العقلي:

ولا بد من أن يكون هذا الحب العقلي مع الله بجميع الأخلاق التي توجد في أية محبة، فعلى المرء أن يوجد مع الله علاقة الحب، التي تكون شبيهة بعلاقة الحب المعروف في الدنيا بجميع آدابه وأخلاقه.

وانظر إلى العاشق ماذا يتحمله في سبيل معشوقه، وكم يوقره ويهابه، فإذا دعاه محبوبه إلى أن يأتي إليه، وإن كان الوقت وقت الهاجرة من النهار، لم تمنعه الرمضاء من ذلك، وأنه لن يماطل ولن يستفسره عن العلل والأسباب، ولن يكون منه إلا أن يهرول إليه، إذا كان يُكِن له في قلبه حبّاً صادقاً، بل ولو صده رجلٌ فلن يخضع لقوله، ولن يطمئن إليه، ولن يتكاسل في أداء ما يطلب منه، مهما كان قول الناس في ذلك عنه، سواء قالوا له: (محب متيم، عاشق هائم) أو غيره، لكنه لن يرى في هذا عيباً ولن يجد فيه غضاضة.

ولا يختلف رجلان في أن من أحب أحداً لم يفرغ قلبه عن ذكره أبداً، وأنه يستمع إلى كلمته طاعة وامتثالاً، ولن تراه يغفل ويتهاون في شأن ما عن أمر محبوبه، ولا يتمثل لأمره لما يطرأ عليه من النسيان، لأن النسيان يطرأ فيما يعتني به الرجل إلا قليلاً، فالذي يغشى قلبه ذكر محبوبه دائماً، إنما يستحيل معه النسيان أو التهاون.

فإن العشق الذي يصر عليه الصوفية، إلى درجة أن قيل عنهم: أنهم يعتقدون أن الدين ليس إلا الحب، لا يراه الشيخ التهانوي تهيّجاً للطبع والنفس، بل هو عنده غلبة الحب العقلي، الذي لا يصاحبه في الذهن إلا الميل إلى المحبوب وذكره وطاعته، ولا ينفذ معه شيء غيره ويقول عن ذلك رأس الصوفية الشيخ الرومي:

(العشق هو جذوة كلما تضرمت وعلا أوارها احترق كل شيء سوى المحبوب المعشوق).

العشق والتفويض:

ويسمى هذا العشق الإيماني على ما عرف بالتفويض، وقد كتب الشيخ في موعظته المسماة بإرضاء الحق:

حقيقة العشق: هي التفويض لا غير، وذلك بأن نفوض أنفسنا إلى الله فيفعل بنا ما يشاء ويرضى بذلك تشريعياً وتكوينياً، وبكل صورة، وهذه هي حقيقة التفويض.

وقد دلنا على أمر عجيب إذ قال:

إن الشيطان كان سالكاً، لكنه لم يكن متصفاً بالجذب والحب، وإلا ما كان له أن يتساءل هذه القحة ولن نجد السالك المجرد من العواطف (العامل الجاف) بعيداً عن الخطر، ولذلك يجب أن ينشأ الجذب، وهو ينشأ بكثرة الذكر وصحبة أهل الحب.

وهذا العشق الإيماني نتيجة محتومة للإيمان: بلا إله إلا الله. لأن جميع الأواصر والعلائق بما سوى الله ليست إلا ناتجة عن الفكرة الخاطئة، التي تدعي وتفرض لغير الله نفعاً أو ضرراً، وهي التي رفضها ولفى عليها القرآن، ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾[1].

وترى من نتائج الحب الدنيوي وغلبة المحبة أن العين لا تلتفت إلى غير المحبوب، وقد حكى الشيخ الرومي في هذا الصدد وهي أنه:

اتبع رجل امرأة، فسألته لم تتبعني؟ قال: قد شغفت بك حباً فقالت: إن أختي تأتي خلفي وهي أجمل مني. (ولما كان هذا عبداً للهوى والشهوات، تراجع وراءه). فلما ولى مدبراً، صفعته صفعة، وقالت يا قليل الحياء إذا كنت لي عاشقاً فلمَ تلتفت نحو غيري، فكيف يصح أن يدعي الرجل محبة الله، مع أن علاقته ليست وثيقة إلا بغيرة.

---

[1] - سورة الأنبياء، الآية: ٦٦.

حقيقة العشق المجازي:

ويجب أن تفهم حقيقة العشق المجازي، مستنداً إلى هذه الحكاية، لأن كثيراً من أهل الهوى الذين يسيئون إلى سمعة التصوف جعلوه قناعاً لدعارتهم وفجورهم، فقد جاء في الحديث: «**مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ وَكَتَمَ فَمَاتَ، مَاتَ شَهِيْداً**»[1].

نجد في هذا الحديث أمرين:

أولاً: أن العشق الاضطراري ليس ذميماً على درجة الإطلاق، بعكس ما تراه من بعض الناس، ينظرون إليه بنظرة الازدراء، ويعدونه من المعايب، ويحتقرون صاحبه، وكيف يقبح إذا كان مما يبلغ به الرجل إلى الشهادة، ولذلك يحمده بعض أهل الطريقة، ويعدونه من أسباب الوصول إلى الغاية، يقول العارف الجامي: لا تتب عن عشقه ولو كان مجازياً، لأنه طريق للوصول إلى الحقيقة.

ويقول العارف الرومي:

إن العشق سواء كان طريقة هذا أو ذاك إنما يهدي إلى الله العزيز المقتدر.

والأمر الثاني: أن من الشروط التي تهدي الرجل إلى الغاية، أن لا يلتفت باله إلى المحبوب المجازي قطعاً، فلا يعطف إليه نظره، ولا يستمع إلى كلامه، ولا يقبل عليه قلبه، بحيث لا يلم بقلبه طيف من أطيافه، وهو المراد من قول جامي وهو: ولكن يجب أن لا يقتصر نظرك على هذه الصورة، وعليك أن تمضي وأن تمر من هذه القنطرة مسرعاً.

---

[1] - أخرجه الخطيب في تاريخه (٥/ ١٥٦ و٢٦٢ و٦/ ٥٠ - ٥١ و١١/ ٢٩٨) والسلفي في الطيوريات (٢٤/ ٢) وابن عساكر في تاريخه (١٢/ ٢٦٣/ ٢) عن ابن عباس. وانظر الضعيفة (٤٠٩).

ويشاكله قول العارف:

إن العشق الذي يقوم على اللون والوسامة عاقبته وخيمة ويتبعه عار.

والسر في هذا: أن الشرط العظيم في الوصول إلى المطلوب الحقيقي هو الانقطاع عن غيره، والعشق يقطع العلائق كلها قطعاً صارماً غير العلاقة التي تتوثق فيما بين المحب والحبيب، فانقطع بذلك ما كان سوى الحبيب المجازي نتيجة لهذا العشق المجازي، ثم لما عطف نفسه، مساعداً إياها، عن هذا الحبيب المجازي إلى المحبوب الحقيقي بكل جسمه، بطريق المراقبات والذكر والتقريب إليه، انصرمت إذن جميع العلائق، ولم يبق غير المحبوب الحقيقي وحده، كما يقول الشيخ الرومي فيما بعد: (سُلّ سيفَ (لا) لقتل غير الحق، وفكر هل يبقى شيء بعد (لا) - إنما يبقى إلا الله) وتبخَّر كل شيء - فمرحباً بك أيها العشق الذي يحرق كل ما سوى المحبوب ويقضي عليه).

والشروط الواجبة عند إرادة الرجل لتحويل العشق المجازي إلى العشق الحقيقي، أو عندما يريد اتخاذه ذريعة إلى العشق الحقيقي، فهي كما ذكرها الشيخ في كتابه (التكشف) مفصلاً، فإذا وقع الرجل في العشق المجازي وهو يقصد إليه أو من غير أن يقصده فعليه:

أن يعف أولاً، ولا يتعدّى التقوى ولا يأتي أمراً خلاف ما أمر به الشرع، فلا ينظر إليه بإرادة منه، ولا يحادثه، ولا يتحدث فيه، ولا يدعو إلى قلبه أطيافه، لأن مخالفة الشريعة لا تجتمع مع العشق الحقيقي، وكيف يمكن معها أن يتأتى له العشق الحقيقي؟ وثانياً: أن يبعد عنه حتى لا يقع عليه نظره، ولا يتسنّى له سماع كلمة ليرق القلب ويحنّ، وثالثاً: أن يفكر دائماً، سواء خلا إلى نفسه أم لم يخل، في مصدر كمال هذا وجماله، وفي من أعطاهما إياه، وإذا كان المحبوب المجازي يسحر القلب إلى هذا الحد، فماذا يمكن أن يوجد في المحبوب الحقيقي من كمال وجمال؟!.

وبهذا سينتقل عشقه المجازي من المخلوق إلى الخالق، وإلى هذا يشير القول، بأن الشيخ الكامل لا يزيل العشق المجازي بل إنما يميله إلى المحبوب الحقيقي.

كما أن القاطرة المحمّاة إذا كانت تجري وراء، فليس من الحسن لمجتاز المسافات أن يطفىء نارها، بل يجب عليه أن يحولها بآلتها ويوجهها في الطريق المستقيم، وأن ما أشار به بعض الشيوخ على طالبيه، من أن يولدوا في نفوسهم حبّاً مجازياً، فهو مشروط بالحب الحلال، (ومثاله أن يتعشق بعقليته) لا العشق الحرام، لأن المعصية لن تُفضي إلى الله بتاتاً، والذي أريد بهذه الإشارة هو حاصل بالعشق الحلال أيضاً، لأن العشق، ولو كان مجازياً، يقدر أن ينشىء في القلب رقة ولوعة، وتبرح القلب أواصر الناس الآخرين، ويصفو الخيال والعاطفة من العلائق، فلا يبقى إذاً إلا عمل واحد وهو أن تعطف هذه العلاقة إلى الله، فالقلب يخلو بكل سهولة ويُسر.

كما أن القمامة حينما تكنس تجمع في مكان واحد لتُشال مرة واحدة، وتطرح إلى الخارج، فإن حمل كل عود وحشيشة، وطرح كل حبة منها مرة مرة، لاستنفذ ذلك بدون شك كثيراً من الوقت، ولا تنظف الدار، فليس الهدف إلا أن تتولد في القلب الرقة والالتياع، وإذا نفعت فيه طريقة أخرى وأفلحت، فإن المقصود حصل بها كذلك وكفى به.

وعلى الأخص في هذه الأيام، فالأفضل أن يتعاون بطرق أخرى تلائم الحال.

لما كان الخطر شديداً في هذه الطريقة (العشق المجازي)، لأن النفوس ميالة إلى الشهوة والمتعة، فلا يجوز تعليم هذه الطريقة عامداً إياها، غير أنه إذا ابتلي بها، فيجب أن يعطف إلى العشق الحقيقي بالخطة المذكورة.

ويجب أن تكون على ذكر، أن هذا الحب الاستيلائي، أو اللوعة التي تحرق الأغيار وتأبى إلا الإخلاص:

إنما تحصل، بأن يرافق الرجل صاحب حرارة ولوعة، وأن يعمل بإرشاده، وهي تنتقل من قلب إلى قلب، ولا تحصل لمجرد أن يكون الرجل أستاذاً كبيراً وأديباً بارعاً أو مؤرخاً بحّاثة، ولا عجب إذا كان كثير من الخلال والأخلاق كذلك، ينتقل من قلب إلى قلب ولا يحصل لمجرد المطالعة والحفظ، كما أن واحداً إذا حفظ قائمة الأطعمة كلها، فلن يقدر على الطبخ والطهي إلا إذا صحب أستاذاً كاملاً، ويتخرج عليه، وكذلك إذا قرأ واحد فن التفصيل والخياطة في الكتب وتعلمه تعلماً صحيحاً، فلن يقدر على التفصيل بهذا فحسب، فإنما حقيقة انتقال التصوف في الصدور ليس معناها غير هذا، وليس كذلك أن مسائله وأحكامه تنتقل من الصدور إلى الصدور، إذ المسائل والأحكام مدونة في الكتب، بيد أن النسبة هي التي يعبر عنها أنها الحرارة وهي التي تنتقل من صدر إلى صدر.

الفصل الرابع

في

باطنية التصوف

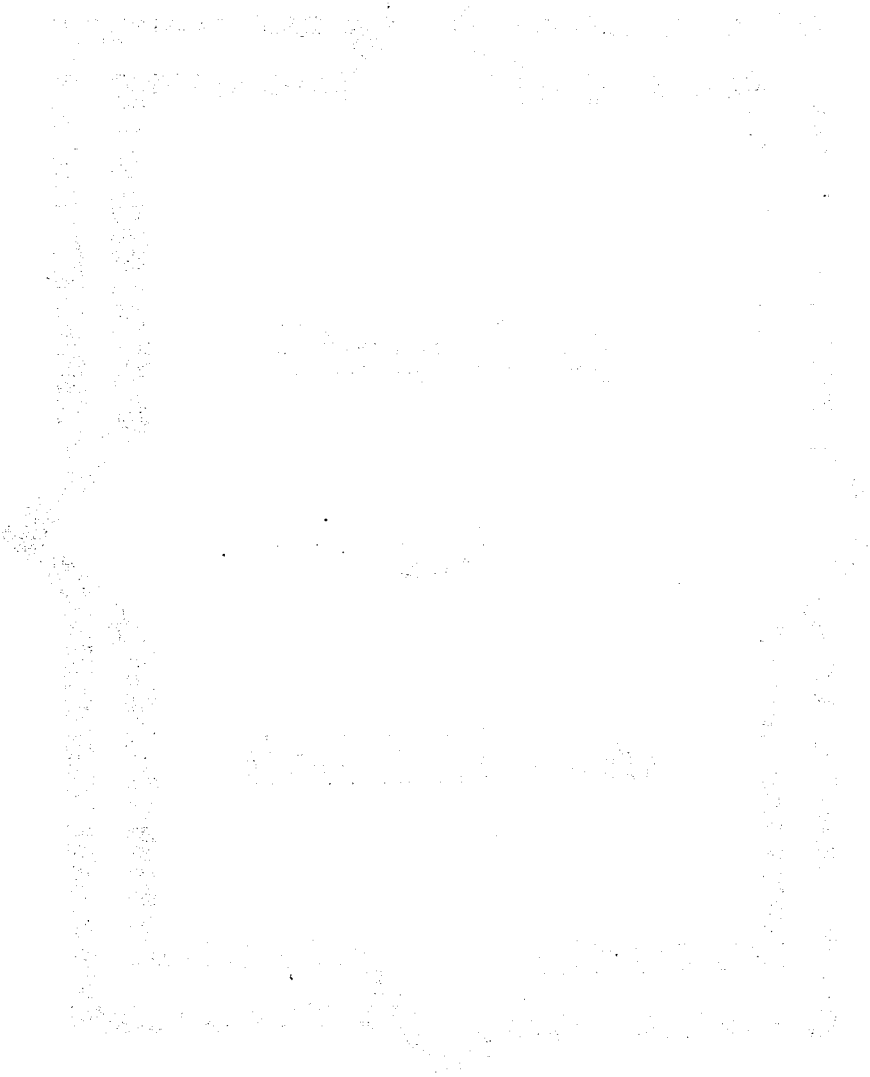

باطنية التصوف:

إن ما اشتهر عن التصوف أنه علم باطني، وشيء ينتقل من صدر إلى صدر، ظل فتنة لأصدقائه وخصومه زمناً طويلاً، وتمهدت بسببها سبل الإلحاد والإباحية للصوفية الجهلة المتحلين، لأن من عادتهم أنهم حينما لا يجدون في ظاهر الكتاب والسنة ما يبل غليلهم من الهوى والشهوات، يردون الأمر إلى الباطن وينوطونه بالقلب، بقولهم أنه من الأسرار التي تتعلق بالقلوب، وتجد بضدهم علماء الدين الظاهر، فهم كلما يرون ذلك، يتوحشون منه وينكررونه ويناصبونه العداوة فالواجب في هذا الصدد أن لا يسمى هذا العلم علماً باطنياً، إلا بالمعنى الذي أوضحناه سابقاً، فإنه هو المعنى الحقيقي، ولكنه الواقعي لذلك، وفحواه: أن هذا العلم يدور حول القلب والباطن، ويبحث فيما يعرض للباطن ويتعلق به من أحكام وأوامر، وأنه علاج لما ينشأ فيه من علل وأسقام، دون ما يختص بأشكال الشريعة وقالبها، وأن ذلك العلم باب كبيرٌ من أبواب الشريعة، مثل الفقه لمسائل الظاهر والجوارح، وكما أن جميع مسائل الفقه الظاهر استقيت واستنبطت من نصوص الكتاب والسنة، كذلك استنبطت هذه المسائل الباطنية والقلبية المسماة (بالتصوف) جميعاً من القرآن والسنة.

علة الإخفاء:

بيد أن في كل علم وفن أشياء تتعلق بتجارب الفرد خاصة، وهي لا تنكشف إلا بعد المضي من خلال تجربتها، أما الجاهل عنها فيقع في بلاء وعسر، ولا يكون تفهيمه للتصوف في أغلب الأحيان إلا إثارةً للشبهات، دون أن يسهل به فهمه له، كما ترى في الذوقيات والوجدانيات، أو الكيفيات والمكاشفات العامة، وقد ظهرر بالتجربة أن إظهارها كلها يقضي إلى الخسارة الباطنية، ولذلك يجب إخفاؤها.

أبواب التصوف كثيرة، ومنها الأحوال والكيفيات) فلا يجب أن تذكرر هذه لكل رجلٍ، لأنها شؤون خاصة تدور بين الله وعبده، فإعلانها يرزأ في الباطن، وكذلك من أبواب التصوف، علوم المكاشفات والأسرار، ولا يحسن فيها أيضاً أن يطلع الناس عليها، حيثما تجد كثيراً منهم يعجزون عن فهمها، بل تتولد منها شبهات كثيرة لدى سامعيها، وهي تضرهم، لأن الرجل الذي لم ير فاكهة (المانجو) مثلاً، ولم يطعمها أيضاً، فمهما وصفتها له، وفسرت حقيقتها ومذاقها، فلن يستطيع فهمها، قال الشاعر:

يسألوني ما هو العشق؟ فقلت لهم: كونوا مثلي تعرفوه.

والسبب في ذلك، أن الأمور التي تتعلق بالوجدان لا تنفذ إلى النفس إلا بطريق الوجدان، وهو لا يحصل بالسماع.

علة أخرى:

كان ذلك من علل إخفاء ما يتعلق بالوجدان والذوق، ومع ذلك فإن كل علم وفن يحتوي على دقائق وعويصات من المسائل، لا يقدر كل أحد تبينها، ولمثل هذا يقول الشيخ الرومي: كلمات وحكم، كالحديد الصلب، وكالسيف المسلول، يجب عليك إذا لم تكن تحمل المِجنَّ أن تدبر عنه، ولا تقبل عليه، ولا تعرض له بدون الوقاية، فإن السيف غير محتشم فيما يقطعه.

ولذلك قال ابن عربي[1]: (يحرم النظر في كتبنا) فإن قال رجلٌ: فلمَ كتبوا كل هذا إذا كان النظر إليه محرماً، فجوابه: أنهم كتبوا لأكفائهم وأقرانهم.

---

[1] - هو محمد بن علي بن محمد بن عربي، المعروف بمحي الدين بن عربي، من أئمة المتكلمين في كل علم، يقول الإمام الذهبي: قدوة القائلين بوحده الوجود، له نحو أربع مئة كتاب ورسالة، توفي في دمشق سنة ٦٣٨هـ.

مصالح أخرى:

وهنا مصالح عديدة جزئية، ترمي إلى الأسرار والإخفاء في التصوف، كما أن الناس ينتفعون بهذه الطريق على قدر أحوالهم وصلاحيتهم، فإن حذا آخرون حذوهم، وتسابقوا معهم، فهم إذن عرضة للضرر، وليس هنالك أي أمل في النفع، ومع ذلك، فإن الكلام الذيي يتبدّى في الخلوة وفي الخفاء يحمل تأثيراً أعظم.

ولذلك نجد المحققين في التصوف، يعلمون على قدر حضور الذهن وحصول الفراغ، ويعلمون كل واحد على إنفراد، ولذلك تجد التعليم في التصوف خفيّاً، لأن كل رجلٍ يملك حالاً وصفة خاصة بنفسه، ومن المحتمل أن يعالج الرجل نفسه ـ لهواه ـ بأمر لا يتفق معه، ويسلك الطريق التي وصفت لغيره لا لنفسه، فهذا هو موضع العلة فيها، لا الذين يقولون من أن مسائل التصوف تنتقل صدراً لصدر، وقلباً لقلب، دون الشريعة، والحكمة الأخرى في ذلك، هي أن حديث الخلوة يهتم به أكثر، وينال من التقدير أعظم نصيب، فإن إخفاء أمر لمصلحة خاصة ليس بجريمة ولا إثم، وليس هذا بخاص بالتصوف دون غيره، حتى يبرر ما يوجد عند بعض الناس من التوحش والنفور من التصوف، أما ما يعمله المتصوفة الجهلة المتزعمون عباد البطون، من استخدامه لشهواتهم، وسوء استعماله، فهو كذلك غير مختص بالتصوف، فلا يمتنع عن ذلك الجهلة وأهل الأغراض في دائرة الشريعة، أما المحققون المخلصون الأتقياء، أو من يتتلمذون لهم، فإنهم يحملون بحمد الله محكّاً من القرآن والسنة، يقدرون به على التمييز بين الصحيح والزائف.

أما الشيخ المجدد، فقد كان على مستوى رفيع من التجديد والتحقيق، فإنه كان يرفض كل تعليم في التصوف، مهما بلغ من القبول والانتشار، إذا

انحرف عن الشريعة، أو كان سبباً لفتنة بعض الناس، ووقوعهم في ما يريب ولم يكن يشير به على الطالب، بل كان ينصحه بهجره.

إن ذكر كلمة الذات (الله) مقبول ومتداول في جميع سلاسل الصوفية، لكنني لاحظت أن قول: (الله، الله) فحسب، لا يقوم على استناد، أو على أصل، ثم رأى أن: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ﴾[1]. وأن ﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾[2]. ليؤمنان إلى ذكر اسم الذات، لكنه مع ذلك، حينما لم أجد ذكره خلال الأذكار التي تأتي بكل مناسبة في الحديث والآثار، ولم أجد ذكراً ولا أثراً في حياة الصحابة رضي الله عنهم، واستبعدت أن يكون مثل هذا ذكراً يتقرب به إلى الله، وكانت بيني وبين الشيخ مراسلات في هذا الموضوع، وكان نتيجة ذلك، أن الشيخ نهاني عنه، وقرر أن الصوفية لم يقترحوه لأنه ذكر، بل للتمرين وترويض النفس، وهكذا لم يسمح للذكر الجهري، والذكر مع الضرب على القلب، (على طريقة الصوفية) إلا بقدر الحاجة إليه، ثم نصح وقال: (يجبُ أن تعرف أن الذكر ـ جهراً وإتيان الضرب فيه ـ ليسا مما يثاب عليهما، واعتقاد ذلك معصية).

تنبيه آخر جليل:

هو إنكار ما شاع في الجهال، أن العلم الباطن أفضل وأعلى من العلم الظاهر! أو من الشريعة! كما يظهر من بعض الأبيات أو الأقوال، التي فحواها: أن الخضر قطع حلقوم الغلام، ولم يبد هذا السر لعامة الناس، ولو

---

[1] -وردت الآية في سورتين: في سورة المزمل ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾ [الآية: ٨]. وفي سورة الإنسان ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةً وَأَصِيلًا﴾[الآية: ٢٥].

[2] - سورة الأعلى، الآية: ١٥.

أن الخضر قد عطب سفينته، مع أنه يحمل النور والعلم، لم يفهم كنه ذلك، فعليك أن لا تطير بغير جناح.

ومغزاه: أن أسرار كثيرٍ من الأمور ومصالحها خفية، ولا يتيسر فهمها لكل واحد، وعلى الأخص لعامة الناس، ولذلك لا يحمد الإسراع بالنقد على أقوال الصالحين وشؤونهم، بل يجب العمل بصبر وتأنٍّ وتحقيق.

وفي ذلك تأييدٌ لهجر الاعتراض كما أن الخضر عليه السلام كان في كسرره للسفينة وحرقه لها محافظاً عليها في الواقع، كما ذكر ذلك القرآن الكريم، وأن سيدنا موسى عليه السلام، ولو أن عنده المعرفة والعلم وكمال النبوة، لم ينفذ خاطره وحدسه إلى تفهم علته وسببه، فهذا يوجب عليك أن تطير إذا كنت فاقد الجناح.

وقد ظن بعض الناس من هذه الحكاية، أن العلم الباطن أفضل من علم الشريعة، ولذلك بعث سيدنا موسى عليه السلام إلى الخضر عليه السلام ليستفيد منه، وقرروا من هذا بأن الشيخ إذا أمر بشيءٍ وجب اتّباعه.

فاعلموا: أن هذه المزاعم باطلة، وجميعها لا أصل لها، أما قولهم: إن علم الباطن أفضل من علم الظاهر، فلا يثبت من هذه القصة لوجهين:

أولاً: أن علم الباطن شعبة من علم الشريعة، وسمي إصلاح الظاهر فقهاً وسمي إصلاح الباطن تصوفاً، فكيف إذن يمكن أن يفوق الجزء الكل.

وثانياً: أن الأحوال الخفية، والشؤون البعيدة، التي اطلع عليها الخضر عليه السلام، والتي نبحث فيها، ليست من علم الباطن في شيء، بل إنما هي حوادث جزئية، وأحوال كونية كشفها الله تعالى عنه.

(وأصل ذلك كله: أن الأمور التي كانت بعيدة من ناحية الزمان، أو من ناحية المكان، تقاربت في علمه، واستدناء شيءٍ بعيد، ورؤية شيءٍ قاص كشيء قريب، ليس من علم الباطن في شيء، أما علوم موسى عليه السلام، فإنها

علوم شرعية كلية ومعارف إلهية، والباطن والظاهر كلاهما من شعبها، وعلى كل حال، فإن العلم الخضري لم يكن أرفع من العلم الموسوي، لأنه إذا اجتمع رجلان، رجلٌ شيخٌ فاضلٌ ورجلٌ غير فاضل، وكان غير الفاضل يعرف ما وراء جدار أو ستار، وكان الفاضل لا يعرف ذلك، فليس من الجائز إذن أن نعد الفاضل بمجرد ذلك أقل منزلة من غير الفاضل).

وإن ما استقرؤوه من هذا (أن الطاعة واجبة دون أدنى تثاقل) فهوة كذلك غير صحيح، وهو قياس في غير محله، لأن سيدنا موسى عليه السلام، وقد علم من الله تعالى أنّ الخضر عليه السلام كامل، وعرف أنه لن يأتي عملاً يعارض الشريعة، أما ما أنكر عمله، فلأنه لم يعرف العلل والأسباب، وقد كان جائزاً له أن يسكت ولا يتساءل، أما الرجل الذي نجد عمله خلافاً للشريعة، أو الذي يعلم أصحابه غير ما يتفق مع الشريعة، فلا يمكن أن يعترف بعمله هذا.

(ثم إن الخضر عليه السلام لم يكن مكلفاً باتباع الشريعة الموسوية، وكانت شريعته غير شريعة موسى عليه السلام بخلاف هذا العصر، فكل واحد خاضع لشريعة واحدة، مكلّفٌ بها، فلا يجوز اتباع الرجل الذي يخالف هذه الشريعة، وبذلك علمنا أن هذه المزاعم كلها باطلة خاطئة، ولا يريد الشيخ الرومي من قوله ذلك إن العلم الخضري يفوق العلم الموسوي، بل مقصوده: أن بعض الأجلة إذا لم يقفوا على بعض الأسرار الهينة، فكيف يجوز لك وأنت صغير أن تأبى ذلك، وأن تنكر أسرارهم).

الفتنة الكبرى:

أما الفتنة الكبرى التي دخلت في التصوف من طريق هذه الباطنية، فهي تأويل آيات القرآن إلى ظاهرٍ وباطنٍ، وترجمته وفقاً لهما، فيجب أن نعلم حقيقة ذلك ونفهمها.

كثيراً ما توجد في كلام الصوفية آياتٌ على غير ما أوله أهل الظاهر، ففي مثل تلك المواضع يتغالط الناس في الفهم، حيث يظنون أن تفسير القرآن هو هذا، وأن تأويل علماء الظاهر أخطاء وزلات، فهذا النظر خاطىء خطأً فاحشاً، وهو شعار الزندقة الذي تتهدم به الشريعة وتنهار وتزول الثقة عنها، ويطعن بعض الناس على هؤلاء العلماء بأنهم حرّفوا القرآن وغيّروه، فلا يفسرون إلا عن رأيهم، فيجب إذن أن نحقق ما يقولون.

إن التفسير الأصلي الحقيقي، هو الذي فسّر به العلماء المفسرون القرآن، لكنه يوجد مع ذلك أمور تشابه مقصود المعنى القرآني أو مدلوله، فتنتقل النظرة من هذه إلى تلك فلهذا التشابه التام يقيس بعض الصوفية هذه على تلك، ويستنبطون أحكاماً وفق ما تشاكلها، ولا يقصد الصوفية بطرريقتهم هذه: أن يضمّوه إلى النص الأصيل، بل إنما هم يقصدون من وراء ذلك تمثيلاً وقياساً لا غير.

كما أن المقصود من آية: ﴿طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾[1]. تطهير الكعبة، لكن الخيال ينتقل منها إلى أن في الإنسان كذلك شيئاً يشاكل الكعبة، وهو القلب، حيث أن الأضواء الإلهية كما تشرق على الكعبة تفيض على القلب أيضاً، (أو كما أن الكعبة هي بيت الله فكذلك قلب المؤمن عرش الله) فقاسوا من ذلك، أنه كما يجب تطهير الكعبة، يجب تطهير القلب الذي هو منزّل التجليات الإلهية.

ويسمّى هذا العلم الاعتبار، الذي حثّ عليه في قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾[2]. ويستخدمه جميع الفقهاء والمحدثين في الأحكام كلها، فإنه إذا قال

---

[1] - والآية بكاملها: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٢٥].

[2] - سورة الحشر، الآية: ٢.

رجل في هذا المعنى بأن المقيس مدلول النصّ، بمعنى: أن القياس مظهر لا مثبت، فلا مؤاخذة عليه. أن الفساد كله في الغلو والمبالغة، يقول الشيخ:

كل ما تكلف به بعض الناس، من أن قرروا أن لكل آية ظهراً وبطناً، قولٌ غريب، بحيث لا بد من إمكان أن تحوي هذه الآية ظهراً وبطناً كليهما، وهذه النكت والاعتبارات التي تستنبط من كل آية لا تتسنى للآيات، كما لا يخفى لعلماء القوانين الشرعية واللغوية، فلذلك يستنكر أن يُدَّعى أن للقرآن بطناً، بل إنما أريد من البطن تلك المعاني الدقيقة، والحقائق المستنبطة، التي يفهمها المجتهدون من العلماء، والتي كتبها علماء الأصول في الوجوه والدلالات، ثم إن لهذه البواطن مراتب ودرجات مختلفة، منها ما لا يعقلها العامة، بل يفهمها العلماء المتوسطون، ومنها ما يفهمها العلماء الراسخون في العلم والمجتهدون فحسب، وبعضها مما لا يفهمها إلا الأنبياء عليهم السلام ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾.

إنكار ظواهر القرآن والسنة كفر، إلا أن قبول الظاهر، وأخذه، والعبور منه إلى الباطن، هو طريق المحققين، مثلاً:

جاء في الحديث الشريف: «**لاَ تَدْخُلُ المَلاَئِكَةُ بَيْتاً فيهِ كَلْبٌ وَلاَ صُوْرَةٌ**»[1].

فاستنكر أهل الظواهر اقتناء الكلب في البيت، غير أنهم لم ينقّوا قلوبهم من الصفات الكلبية، ولكنهم يحملون الإيمان، فإنهم سيدخلون الجنة كيفما

---

[1] - والحديث عن أبي طلحة رضي الله عنه، رواه البخاري في كتاب اللباس، باب: من كره القعود على الصور، رقم الحديث (٥٩٥٨) ومسلم في كتاب اللباس والزينة، باب: تحريم تصوير صورة (٢١٠٦) والترمذي في الاستئذان و الأدب، باب ما جاء أن الملائكة لا تدخل...، رقم الحديث (٢٨٠٥) وابن ماجة في كتاب اللباس، باب الصُّور في البيت، رقم الحديث (٣٦٤٩).

كان ذلك الدخول، أما منكروا الظاهر، فقد أباحوا اقتناء الكلب، وقالوا: إن الشيوخ لم يفهموا مغزى الحديث، إذ معنى البيت هو القلب، ومعنى الملائكة: هو الأنوار الغيبية، وحقيقة الكلب: هي الصفات السبعية، وغير ذلك، فهؤلاء قد مهدوا السبيل إلى النار بإنكارهم للشرع، أما المحققون فقالوا: إن معنى الحديث هو: ما فهمه أهل الظاهر، لكن يجب التفكير فيما يبجعل الكلاب مبغوضة إلى الملائكة، وهي صفاتها الذميمة السبعية، والنجاسة والحرص والغضب وغير ذلك، فحينما لم يبح اقتناء الكلب في البيت الظاهري، فكيف إذن يجوز إلقاء صفاته في البيت الباطني.

وبالغ بعض الناس، وجاؤوا بأمرٍ عظيمٍ، إذ استدلوا لإثبات هذا العلم السري الذي ينتقل من صدر إلى صدر، بحديث سيدنا علي كرم الله وجهه، وأدخلوا مسألة: (وحدة الوجود) على الأخص في ذلك، هؤلاء الجهلة المدعون للتصوف، قد أشاعوا أن سيدنا محمداًﷺ باح بأسراره الخاصة إلى سيدنا علي كرم الله وجهه، وهي تنتقل من صدرٍ إلى صدرٍ، إلى هذا اليوم والشيعة أيضاً يعتقدون العقيدة نفسها، وقد سئل سيدنا علي كرم الله وجهه. هل خصكم رسول اللهﷺ بشيءٍ دون الناس؟! فقال: لا. إلا فهماً أوتيته في القرآن.

الفصل الخامس

في

القرب المنشود

القرب المنشود:

إن اتصال الخالق بالمخلوقات، أو اتصال الله بالكون اتصالاً لا يكيف فيه، وقربه إليه، ذاتيّاً كان أو صفاتياً، شيء واقع وأمر مقرر ويستوي فيه المؤمن والكافر، والصالح والفاسق، والإنسان والحيوان، والنبات والجماد، وسائر الكون، وليس بخاص لواحد دون غيره، ويقول الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[1]. فلا ريب، أو أولية الله سبحانه وآخريته، وظاهريته وباطنيته، تعم لسائر الأشياء، وكل الكون، وأحاط علمه بكل شيء من غير تخصيص بشيء دون آخر. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2]. إذ هو سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3]. وهكذا الأقربية التي تجدها في آية ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[4].

والمعية التي تجدها في قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾. ثابتة للمؤمن والصالح، للكافر والفاسق على السواء، وقس على هذا، ويلزم لكل مؤمن بالقرآن الاعتراف بصحة القرب وواقعيته، سواءٌ فهم حقيقته وكنهه، أم لم يفهم، ولا يكفي الفهم فقط، والاعتراف به، بل يجب استحضاره، والعمل يوفقه، أما من اقتصر على الفهم وتعمّق في فلسفته كغلاة القائلين بوحدة الوجود، فشأنه شأن المسلم الذي عرف حقيقة إقامة الصلاة، ووقف على حكمها ومصالحها، ثم بقي تارك الصلاة، كذلك إذا علمنا نحن فلسفة القرب، ووضعناها، لا يعني ذلك عنا، ولا يفيدنا، لأن الهدف الأصيل، والمطلوب لعلم هذا القرب، وهذه المعية، أو

---

[1] - سورة الحديد، الآية: ٣.

[2] - سورة الحديد، الآية: ٣.

[3] - سورة المائدة، الآية: ٩٧.

[4] - سورة ق، الآية: ١٦.

الاعتقاد بوحدة الوجود، أو وحدة الشهود، أن يحصل شهود الله الدائم في القلب، أو تحصل درجة الإحسان، حيث يأتي من يعتقد ذلك لجميع أعمال حياته، وأفعالها، من حركات وسكون، مؤمناً بأن الله قريبٌ أو أقرب، حاضرٌ، ناظرٌ، كأنه بين يدي ربه محتسباً لله وبصيراً، كأنما هو أمامه، وأنه يراه وإن لم يكن يراه، فلا شك أنَّ الله يراه، وبهذا الاستحضار، ينشأ عنده اهتمام بالاحتراز عن معصية الله وسخطه أو عصيانه، وبجانب ذلك، تحصل له في الطاعة والعبادة وطلب الرضا، ودرجة الإحسان التي هي الكمال المطلوب للإسلام والإيمان، وإلا لو آمنا بأن إقامة الصلاة فريضةٌ محكمة، وزيادة على ذلك، عرفنا فلسفة حقيقة الصلاة وأهميتها، ولم نأت بشيءٍ منها، وبقينا بمعزلٍ عن الصلاة، محرومين عنها وتعرضنا لسخطٍ أشدٍّ، وعقابٍ أنكى من الله.

والجنة أيضاً ليست مطلوبة بالذات:

وليس من القرب المنشود، أو المرام الأصيل للقرب كما قال حضرة الشيخ - رحمه الله - أن يجلس الرجل (معاذ الله) في حجره سبحانه وتعالى، بل إنما هو في مصطلح الصوفية المحققين عنوان الدرجة الرفيعة، التي يتوخّى فيها العبد ربه جل وعلا، أو يطلب رضضاه، حتى أن الجنة لا تبقى غاية ومطلوباً بالذات، وإن هؤلاء السابقين (المبرزين على عامة أهل الإيمان الذين يسميهم الله تعالى بأصحاب الميمنة)، ويجعلهم الله بفضله وعميم كرمه من المقربين إليه المختصين به، كما ذكر في آيات سورة الواقعة الآتية: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾[1]. وليس يخاف أن المقصودين من أصحاب الميمنة هاهنا ليسوا أهل الجنة أجمعين، بل المراد هم عامة أهل الجنة المسلمين، أما ذكر الخاصة

---

[1] - سورة الواقعة، الآية: ٨ - ٩.

فهو متقدمٌ وهو ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾[1]. ومنه علمنا: أن النوع الثالث فائق على أهل الجنة كذلك.

لكن ليس المعنى: أن هؤلاء سينزلون في موضع آخر دون الجنة، بل هم كذلك من أهل الجنة، من حيث الإقامة والسكنى، غير أنهم يختلفون عن أولئك، من حيث الطلب، فأهل الجنة نوعان: طالبوا الجنة، وطالبوا الحق، وظهر من تكرير السابقون. أن هؤلاء سابقون لكلتا الطائفتين المذكورتين، فسبقوا على أهل الجنة كذلك، وهذا هو المفهوم من امتيازهم عن أهل الجنة، وأن كلام أهل الطريق صريح في هذا المعنى، فقد قال السلف الصالح: أن أسمى درجة الطلب، أن لا ينشد الطالب غير الله، لا الجنة، ولا توقي النار، ولكن ليس معناه: أن لا يطلب الجنة، بل إنما مغزاه: أن لا ينشدها لذاتها، كما يقول الشاعر: ما الوصل وما الهجرُ. إنما يجب أن يكون كل شيء لرضا الله سبحانه، لأن الأماني التي لا تتعلق به باطلة غير طائلة.

شبهة:

وهنا تبدو شبهة، وهو أننا نجد في الأثر الشريف: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رِضَاكَ وَجَنَّتَكَ**»[2].

وذلك يدل على أن الجنة هي غاية بذاتها.

فالرد على هذا، أن مسألة الجنة هذه ليست إلا كما إذا سأل رجل في أي مكان أستطيع أن أقابل فلاناً؟ فيقال له: أنها ممكنة في البستان الفلاني، فيقصد هذا الشخص ذلك البستان، وإذن لن يقول الناس عنه أنه جعل

---

[1] - سورة الواقعة، الآية: ١٠.

[2] - لم أعثر على هذا الحديث رغم شهرته و الله أعلم.

البستان منشوداً لذاته، بل يقولون: أن منشوده هو الرجل الذي يبغي لقاءه، ولما كان ميسوراً في الحديقة، فتوخاه فيها، هكذا المنشود الأصيل في الحديث، تجده هو الرضا الذي قدم على الجنة، ولما كان تحصيله ميسوراً في الجنة، جعل الجنة منشودة، وقال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[1].

ففي هذا الموضوع جعل الله رضضاه أكبر من الجنة، فعلمنا من هذا: أن الأكبر والأجل هو رضا الله فلتكن وسيلة هذا الأكبر كذلك أكبر وسيلة، فقال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[2].

فعرفنا أن ذكر الله وسيلة، وأن غاية العمل بجميع الأوامر هي ذكر الله.

فيجب أن تجعل الله تعالى هو المنشود والغاية في الطاعات كلها، بل ويجب أن تصرف النظر عمما يرونه وصالاً، ولا بد أن تعد العمل الذي يرضى الله به، هو المقصود والهدف، وتواظب عليه بالهمة العظيمة، حتى لو رأيت الرضا في الفرقة، فعليك أن تشيح عن خاطر الوصال، ولله درُّ من قال:

أُرِيْدُ وِصَالَهُ ويُرِيْدُ هَجْرِيْ فأترُكُ مَا أُرِيْد لما يُرِيْـدُ

دع عنك فلسفة الوصال والقرب والمعية، التي تهدف إلى القعود في حجر المطلوب، التي تجدها عند أصحاب الفلسفة، فإن الموثوق به، والمطلوب عند أهل الدين، هو القرب والرضا، ومن وسائله الإيمان والعمل الصالح، وقد أشار القرآن أيضاً إلى ذلك بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾[3].

---

[1]- سورة التوبة، الآية: ٧٢.

[2]- سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

[3]- سورة البينة، الآية: ٧ ـ ٨.

سمّى الله هذه الدرجة العليا والمكان الأسمى بخير البرية، كما أنه قد سمّى هؤلاء بـ ﴿أُولَٰئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[1] كما جعل صلتهم الممتازة علاقة الرضا، وقد قرر سبحانه وتعالى في موضع آخر بإيضاح وتفصيل طريقة التقرب إلى الله، أنها الجمع بين الإيمان والعمل الصالح وإكمالها، إذ الإيمان الضعيف والأعمال الصالحة الناقصة حاصلة لعامة المسلمين أيضاً، فيقول الشيخ معلقاً على آية: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[2].

هذه آية من القرآن الكريم، قد كشف الله فيها عن كنز ثمين، وهو القرب إليه، وبيّن طريق وصوله، وحذّر مما قد يقع فيه الإنسان من غلظات وعثرات، والشيء الثمين في هذا هو التقرب إلى الله، والتقرب ليس هو التقرب الجسدي، فيرجى قصر المساحة وقلة البعد، إذ ليس ههذا إلا من خصائص الجسم، وبذلك يتبين خطأ عامة الناس الدين يتزيون ويتشبهون بالخاصة، يعني بالمشيخة والصوفية، والحقيقة أنهم دهماء وجهّال، وهؤلاء يزعمون أن التقرب الإلهي هو التقرب الجسدي، وذلك هو الذي يتبين من أمثلتهم.

وإن وجدنا عند المتقدمين مثالاً لذلك، فلا بد لنا من أن نُؤوِّلَهُ، ولكن هؤلاء العامة لا يؤولون في مثل هذه الأقوال، فتجد بعضهم يشبه الله بالنهر، ويشبه نفسه باللقحة، وبعضهم يشبه الله ونفسه بالنهر والقطرة، أما نحن فحينما نجد مثل هذه التشبيهات في كلام بعض الثقات فنؤله.

---

[1]- سورة الواقعة، الآية: ١١.

[2]- سورة سبأ، الآية: ٣٧.

إلغاء التشبيه مغالاة:

لأن الإنكار للتشبيه مغالاة، والتشبيه يوجد في القرآن كذلك وهو: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾[1].

فلو كان التشبيه ذميماً بإطلاقه فكيف جاء إذن في القرآن؟!.

أقول: هذا لأني أجد بعض المتشددين يتغالون كثيراً، ولا يتفهمون المعنى، بل يرون الظاهر، ويفتون بالكفر والبدعة، مع أن الله تعالى يقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾[2]. ومثاله: أن تحرم الأمر الذي يوجد نظيره في القرآن تحريماً مطلقاً.

فلما وجدت التشابيه في القرآن بعينه، ظهر إذن أن هذه الشدة في التنزيه ليست بصحيحة، وذلك أن تحرم التشبيه تحريماً كليّاً.

بيد أنه يلزم تبين وجه الشبه، والتشبيه هو اجتماع شيئين في أمر، مثلاً: إذا شبه الوجه بالبدر، فمعناه: أن الصفة التي يتصف بها كلاهما، تجعل الوجه شبيهاً فيها بالبدر، دون أن يكون معناه: أن الوجه ليس اتساعه وضخامته إلا كاتساع وضخامة البدر، أو أن البدر يحوي كذلك العينين والأنف والأذنين والخد، والصورة بعينها، أو كما أن البدر لا يحوي الأرجل والأيدي كذلك لا يحويها هذا الرجل لا؟!.

على ذلك، فإن التشبيه الذي عرضه الله تعالى، إنما معناه، هو أن يشابهه في كمال النور، وإن كان مما لا يخفى، أن كلا الكمالين لا يتساويان، وليسا

---

[1] - سورة النور، الآية: ٣٥.

[2] - سورة المائدة، الآية: ٧٧.

في درجة واحدة، كما أن جميع أعضاء (الكلي المشكك) لا تتساوى، غير أن أمراً واحداً يلازم كلاً منها، مثلاً شدة الضياء، وكذلك يجب أن لا يكون المشبه به أكمل وأتم من المشبه، غير أنه يجب أن يكون أوضح وأعرف، فهكذا إذا كان جاء في كلام محقق تشبيه الله بالنهر، وتشبيه نفسه باللجة، فلا بد من أن يكون ذلك التشبيه في شأن مخصوص.

كما يقول المغربي: (قد برزت من البحر أمواج مختلفة عجباً كيف خرجت ذات الألوان من بحر لا لون له؟!).

قد بلغ الحال من الناس، إلى أن جملتهم الذين لم يتعلموا ولم يقرأوا جزءاً من القرآن، يقرأون هذه الأبيات ويتواجدون عليها، مع أنهم عن فهمها عاجزون، ولو فهموا لكان فهمهم أن الله متسع، وخرجنا نحن منه، فبفهمهم هذا يخسرون دينهم، فلا يجوز إنشاد هذه الأبيات بين أيديهم.

وكل هذا لم يكن إلا نعياً على الصوفية الجهلة، والصوفية الذين لا يملكون من التصوف إلا الاسم على تشبيهاتهم هذه، وعلى ضلالاتهم في معانيها الظاهرة، واللغوية، وكان هذا تنبيهاً لهؤلاء وزجراً على ما فهموه وأشاروا به، وتعليماً لهم أن معنى القرب ليس كما يزعمونه في النهر والقطرة، وإنّ حمْل مثل هذه الكلمات على المعنى اللغوي غلط فاحش.

بل إنما المراد بالقرب الذي ذكر في الآية هو الرضا، وذلك أن يرضى الله تعالى عن عبده، والقرب درجات، منه قربٌ علمي، وهو حاصل لكل شيء مع الله، فيقول الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾[1].

---

[1] - سورة الواقعة، الآية: ٨٥.

أو ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾[1]. والآخر منها هو قرب الرضا، الذي يحصل لبعض دون بعض، والمقصود في الآية المذكورة هو هذا القرب، دون القرب العلمي، لأنه ليس بخاص للمؤمن والصالح.

وإن قرب الرضا هذا لكنزٌ ثمين، لكن كثيراً من أهل الدين لا يحسبونه مقصوداً وغاية، فمثلاً عن أهل الدنيا، الذين لا يعرفون قيمته وفضله.

طريق تحصيل الرضا:

لما تبين أن القرب المنشود والذي تكاليف لتحصيله ليس هو القرب العلمي، بل إنما هو قرب الرضا، وهو أن يرضى به سبحانه وتعالى، فيجب علينا أن نستنتج بغاية وشغفة إلى الطريقة التي دلنا الله عليها في القرآن الكريم.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[2]. بأن المال والأولاد التي يتمناها الناس ويشغفون بها، ليست دريعة التقرب، بل إن من ذرائع التقرب، هو الإيمان، والعمل الصالح، ولا يخفى أن الدرجات المختلفة من الإيمان والعمل الصالح ليست مطلوبة، ومطالباً بها، إلا إذا كانت كاملة تامة، لأن الناقص يحصل لكل رجل من عامة المسلمين، ولا يكون مما يحمد عليه، وينال الرضا والإعجاب، والذي لا ينال الرضا والإعجاب ولا يحمد كليّاً، كيف يصبح ذريعة للرضا والاستحسان؟!.

معنى ذلك: أن القرب الذي نعرفه مطلوباً من استقراء القرآن، والذي عناه الله سبحانه وتعالى ﴿أولئكَ المُقَربون﴾، والذي عبّر به عن المكانة العليا

---

[1] - سورة ق، الآية: ١٦.

[2] - سورة سبأ، الآية: ٣٧.

للإنسانية، لا يكون سوى كمال الإيمان وتمام العمل، أو بلفظ آخر، إنما يكون ذلك كمال الدين، ولذلك لا بأس لو نسمي التصوف (علم القرب) كما أسميناه (علم الإحسان) سابقاً.

بل هو الصحيح الذي لا غبار عليه، لأن التصوف الإسلامي عبارة عن الإحسان والكمال الديني، وقد عبّر عن هذا الكمال الديني بالقرب، ولكنه عين الدين ونفسه، يعني اجتماع الأعمال الصالحة بتمامها وكمالها مع كمال الإيمان.

عناصر ثلاثة لدرجة الكمال:

إن كمال الإيمان والعمل الصالح هذا يتوقف على ثلاثة أمور:

١ـ العلم. ٢ـ العمل المتواصل. ٣ـ الحال.

والدين يحتوي على هذه الأجزاء الثلاثة، فلو لم يكن العلم لما عرفت الأحكام الإلهية، ولو لم يكن العمل لم تنفع معرفة الأحكام، ولو وجد العمل لكان يكفي في ظاهر النظر، فإنك سترى بعد التبصر والتروّي أنه لا ينفع أيضاً، إذ لا يرجى فيه الإخلاص والاستقامة، والمقصود من الحال (ملكة)، ومثاله أن يشغف رجل بشخص آخر فيسقيه ويطعمه ويخدمه، فهذا عمله، أما أن يضطرب له ويتململ فيه فهذا حاله.

إن العمل الذي يخلو من الحال، لا يثبت ولا يستقر، وأنه يستحكم إذا وجد الحال، كما أن رجلاً يصلي ويصوم، فإذا لم يكن صاحب حال فسوف يأتي هذه الأعمال بشقّ النفس، ولا يزال في صراعٍ معها، فلو فاته منها شيءٌ في وقتٍ، لم يعبأ ولم يتأسف على فواته كثيراً.

أما الحال الثانية فهي: فإنه إذا فاته العمل حيناً ما، تنغّص عيشه واكتأبت حياته، وهذا الثاني هو صاحب الحال وهذا شأنه.

وقد ورد في هذا المعنى شعر معناه:

إن السالك تقوم قيامته إذا نقص من حديقة قلبه تبنة تافهة أو عود حقير!..

ولو أن إيجاد هذا النوع من الحال غير واجب، لأنه إذا وجد الإخلاص في عمل رجلٍ، ولو كان متكلفاً، فعمله عند الله مقبول، ولا خسارة فيه، غير أن هذه الحالة على خطرٍ، حيث إذا لم يكن القلب ميّالاً طامحاً فسلوكه إذ ذاك ليس مضموناً، ولا يدري أحدٌ متى يتعثر وأينما ينقطع وينتهي عمله؟ لذلك يلزم أن يوجد الحال أيضاً، يقول شاعر ما معناه:

«يَا حبيبي أرني طريق المجذوب العارف لأني أرى طريق الزهد طويلاً وشاقّاً»

وإن معنى البعد والطول، بأن يوجد العمل، ولا يوجد الحال، هو أن قطع الطريق مستطاع، لكنه ليس ميسوراً، ويواجه فيه الرجل المشقة والوعثاء، ويقول مولانا الرومي تأييداً لهذا:

(تجاوز القول وكن رجل الحال)، ثم ينبه على خطة (التواضع والانقياد لرجل كامل) ويقول: إن هذه الحالة لا تحصل بالدراسة والثقافة، بل تتأتّى بالصحبة، لأنها ملكة، والملكة لا تنشأ إلا بالصحبة، فلو تناول واحد كتاب تجويد الخط، وأخذ يتمرن على الخط، فلن تنشأ الملكة التي تتحصل له بصحبة خطاط مجيد، وتجد أن هذا الحال نفسه لكيفية الباطن لا يتسنّى بدون الصحبة.

العلم والعمل والحال:

فما أحوجنا إلى هذه الثلاثة! وهذا هو الدين، وتعليم هذه الحال إنما تتضمن عليه آية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ﴾[1].

---

[1] - سورة الحديد، الآية: ١٦.

فيجب المسارعة إلى العناية بهذا الجانب، حتى لا يقسو القلب ولا يغلظ، لانقضاء فترة من الوقت، وقد تبين من هذه الآية كم يلح القرآن على الحال.

وهذا هو الشأن الذي أشارت سيدتنا عائشة رضي الله عنها إليه بقولها: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنُ**»[1].

بأن القرآن قد أصبح لديه أمراً طبيعياً، فما كان يهوى إلا ما يحبه الله سبحانه، ومن كانت هذه حاله فلا خطر عليه من التقهقر، ولا خوف عليه من التوقف، بل إنه يستمر في المضي والتقدم، لأن قلبه يحمل حافزاً، ثم إنه يصير محبوباً، مع كونه محبّاً لبركة تلك الصفة، بل وتصبح حاله في بعض الأحيان الحال ذاتها التي ذكرها سيدنا رسول اللهﷺ لسيدنا علي ﷺ بقوله: «**اللَّهُمَّ أَدِرِ الْحَقَّ حَيْثُ دَارَ**»[2].

---

[1] - عن سعد بن هشام قال: سألتُ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أخبريني عن خلق رسول اللهﷺ: فقالت: أما تقرأ القرآن؟ قلتُ: بلى، فقالت: كان خلقه القرآن. [رواه مسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب جامع صلاة الليل...، رقم الحديث(٧٤٦). وأخرجه أبوداود مفصّلاً في كتاب الصلاة - باب: في صلاة الليل (١/ ١٨٩)]. أرادت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بـ (كان خلقه القرآن): إلى ما فيه من المكارم كله كان فيهﷺ، وما فيه من الزجر عن سفساف الأخلاق، كان متزجراً به عليه الصلاة والسلام، لأنه المقصود بالخطاب بالقصد الأول: ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ الآية. قال العارف بالله تعالى المرصفي: أرادت بقولها كان خلقه القرآن: تخلقه بأخلاق الله تعالى لكنها لم تصرح به تأدّباً منها، وفي الكشف أنه أدمج في هذه الجملة أنهﷺ متخلّق بأخلاق الله تعالى بقوله سبحانه عظيم. [روح المعاني (١٠/ ٢٩ - ٣٠)] وفي المجمع: قيل: إن خلقه مذكورة فيه: أي في القرآن: نحو: ﴿وإنّك لعلى خلقٍ عظيم﴾. [شرح حياة الصحابة، للشيخ إلياس الباره بنكوي، الجزء الثالث، ص٦، طبع دار ابن كثير - دمشق].

[2] - أخرجه الترمذي (٤/ ٣٢٧) وابن حبان في المجروحين (٢/ ٣١٤) وانظره في العلل المتناهية (٤١٠).

نرى هذا الأمر فيما يبدو لنا مستحيلاً، بل ومقلوباً، ولكن كل شيء في قدرة الله، فهو يقدر على أن يحول لمحبوبه الأمر المعكوس مستقيماً صائباً.

مثلاً: إذا حاول رجلان، وتخاصما، وكان هناك رجلٌ محبوب من الطراز الذي أسلفنا، وقد انحاز إلى أحد الفريقين، مع أن هذا الفريق ليس على الحق، فإنّ الله تعالى ينحي الحق إليه، فيتوب هذا من خطأه، وإذن لا يضطران إلى أن يتحولا عن رأيهما.

القرب عنوان للكمال الديني:

تقرر من ذلك أن القرب هو ذلك الذي يسمى به الإيمان الكامل والعمل الصالح، أو كمال الدين، وبالأخص إذا أصبح هذا القرب حالة طبيعية، إلى أن تصبح الطاعة لليحاة الدينية وأحكامها طبيعية، وأن لا يحب شيئاً في مختلف شؤون الحياة، إلا ما أحبه الله والرسول ورضيا به، فيندفع إليه السائق من طبعه وهواه، فإذن لا خوف من التحول والرجعة من الدين، ولا خطر من التوقف أثناء التقدم والرقي الديني، بل ويجد السالك في هذا الطريق طلب المزيد والغرام بالتقدم المتواصل، ولن يقتنع بأية درجة من درجات الحياة الدينية سواءٌ كانت شخصية أو اجتماعية، كما أن النفس الإنسانية لا تشبع ولا تكتفي بأية درجة واحدة، في المرغوبات الطبيعية والنفسية، والمطالب أو الترقيات والتقدمات المادية، وبعد كل ذلك، فإنك لن تجد حداً ولا غاية في درجات الوصول إلى الله، وقال شاعر ما معناه:

أيها الأخ إن مكانة سامية لا نهاية لها وكل محلٍّ تصل إليه تجد فوقه منزلة أخرى.

فالجمع بين العلم والعمل والحال هو وسيلة للقرب والرضا، الذين هما غنى عظيم، لأن هدف الغنى والثراء هو إراحو النفس، وأي شيءٍ أروح

للنفس من أن يكون المحبوب الحقيقي راضياً وقريباً، وتجد في القرب من الحبيب والخليل وفي رضاه طرباً ولذة، يحولان العناء راحة ونعيماً.

قال شاعر ما معناه: إن سخطك أيضاً نعمة لقلبي فإن قلبي المكلوم فداءٌ لك.

لا يتقاعس الرجل في بذل مهجته ونفسه كما قال شاعر آخر ما معناه:

ليس من حظ العدو أن يكون قتيل سيفك، أحيا الله رؤوس العشاق حتى تعمل فيها سيوف المحبوب.

وذهب بالمجنون أقاربه إلى الكعبة المقدسة، وقالوا له: أدع الله أن يرحمك وينجيك من الغرام بليلى، فدعا الله أن يزيده حبّاً بها. فانظر إذا كانت هذه الحالة في حب امرأة فما ظنك في حب الله؟!.

العبدية:

وتسمى هذه الحالة العشقية والطبيعية، أو هذا الكمال في الإيمان والعمل في إصلاح الشريعة (عبدية وعبودية) وهي أن يتمثل الرجل كل أمرٍ من أوامر الله تعالى ورسوله دون تردد ولا إباء، ويحسب في رضاهما واستحسانهما رضاه ومسرته، ويؤمن بذلك.

يجب أن يكون موقفنا من الأحكام الشرعية موقف العاشق من حبيبه، وموقف المملوك العبد من مالكه ومولاه، فقد حكوا: أن رجلاً اشترى عبداً، فسأله عن اسمه؟ فأجاب هو ما تتخذه أنت! ثم سأله: ماذا يشتهي أن يأكلظ فقال: هو ما تطعمني أنت، وهكذا استفسره عماذا يرغب في لبسه، فرد عليه قائلاً كل ما تكسوني به.

فحقيقة العبدية: هي محو الرجل لهواه ورضاه في سبيل أمر المولى ورضاه، ولما كان هذا من مقتضيات العبدية المجازية، فإذن:

أفلا تكون العلاقة التي بيننا وبين الله هي العبدية، بل إننا إذا تفكرنا لوجدنا أن علاقتنا بالله هي علاقة العبدية الحقيقية، وأن الإنسان ليتمكن من التخلص من العبدية للإنسان دون العبدية لله سبحانه وتعالى، فهي لازمة ملاصقة، لا نقدر التخلي عنها أبداً سرمداً، ولا يمكن هذا إلا إذا لم نبق عبداً، ولم يبق الله إلهاً، والعياذ بالله من ذلك.

وغاية خلق الإنسان هي العبدية كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

فعرفنا أن الغرض الذي خلق الإنسان لتحصيله في الدنيا، هو هذه الحالة العبدية، يعني: أن الإنسان بعث في هذه الدنيا ليتمثل الأوامر والنواهي الإلهية، وإنه حينما يكملها يحرز درجة العبدية، إذ كان حينما لم يبرز إلى هذا الوجود روحاً، ولم يكن متمكناً من القعود والركوع والسجود لكونه روحاً مجردة.

الأوامر والنواهي لا تتصل غالباً إلا بالأفعال والأعمال، سواءٌ كانت هذه الأعمال عبادات اصطلاحية، أم كانت معاملات ومعاشرة، أو كانت أخلاقاً، فإنما إكمالها جميعاً وأداؤها، هي العبدية، لذلك كان لا بد لرقي كمال العبدية الذي هو متوقف على هذه العبادات الخاصة، من أن يظهر الإنسان في هذه الدنيا التي هي دنيا الأجساد والنفوس.

وعلى ذلك: ليس لنا أن نستفسر ونستكنه أسرار الوامر والنواهي ومصالحها، بصفة أننا عبيد، فليس لنا أن نهتم بهذا، بل يجب أن نقبل كل ما يصدر لنا من أوامر، ونأتي بها من غير تلكؤ وتردد، وأن نعتقد فيها الحكمة والمصلحة.

بل وأقول أنها ولو رأيناها ضد المصلحة، فليس لنا فيها أن نبدي ولو أدنى

---

[1] - سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

تقاعس وتردد، حيث أننا لسنا إلا عبيداً ومملوكين، بل ولا محل هناك لنيتنا أيضاً، أنها لنا مصلحة لأننا لسنا بشيء، كما قال الشاعر ما معناه:

«لا شأن لك بالصافي والكدر من المدامة، وما عليك إلا السكوت والتسليم، فكل ما صبه لنا الساقي الكريم إنما هو فضل منه، يجب أن تلهج ألسنتنا بالشكر والاعتراف، ولا يحسن أن نسأل السبب والفائدة».

والمقصود من حقيقة المر في وحدة الوجود، هو كمال العبدية وحالها، وذلك بأن لا تمحى أهواء النفس والدنيا بين يدي رضا الله وأحكامه فحسب، بل وتغلب عليه تلك الحال حتى يغيب وجود الرجل نفسه، ويغيب وجود ذوات خلق الله تعالى بين يدي الحق سبحانه، فلا يرى ويشعر به.

هذه الكيفية هي التي قال عنها أهل هذا الفن أنها وحدة الوجود. وليس معناها ما يقوله العامة الرعاع، ويعرفونه بأني الإله وأنت الإله، والمحاريب والجدران هي الآلهة، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾[1]، وكذلك ما يعتقده بعض الناس أنه لا موجود سوى الله أصلاً، خطأ صريح أيضاً، وهو يتنافى مع القرآن والحديث بتاتاً. يقول الله تعالى:

﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[2].

والحقيقة: أن هذه المسألة، ليست إلا مسألة الحال، لا مسألة القال، وهي أن ذات الله سبحانه، حينما تكون نصب العين، فإذن لا يحس صاحبها بوجود نفسه، ولا بوجود الآخرين كذلك، إلا كالمنعدم، والممحي، مثلاً: إذا كان رجلٌ في طيف أو خيال، فإنه لا يتنبه لأطياف وأخيلة أخرى، ولا يتلفت

---

[1]- سورة الكهف، الآية: ٥.

[2]- سورة الزمر، الآية: ٦٢.

إليها، حتى أنه لا يسمع نداء من يناديه، بل ويغيب أحياناً في خياله، إلى أنه إذا وقف أحدٌ على رأسه، وناداه، أو وقف رجلٌ آخر بعينه لم يشعر به، ولم يتنبه له، فإن مثل هذا الرجل في استنزافه وذهن له ليتسنى له أن يقول: لا موجود إلا الأمر الفلاني..

قرب النوافل:

فوحدة الوجود هو أن وحدة الشهود، والتفاني والقرب والرضا، تجد قل هذا في مصطلح التصوف، هو الذي يسمى اصطلاح الشريعة (بالعبدية) وهو ما عبر عنه الصوفية اتباعاً للأحاديث المشهورة: (بقرب النوافل) و(قرب الفرائض) وما إلى ذلك من العناوين، وتفصيله كما يأتي:

كلما يعالج العبد الرياضة والمجاهدة، تنتفي منه صفاته الرذيلة، وتنكبت دواعي شهوته وغضبه وعللهما، وتتولد في النفس ملكة الحب لما يرضاه الله، وملكة الكراهية لما لا يرضاه الله، وملكة البغض، وترسخ رسوخاً قوياً، وبهذه الطريق تصدر من العبد الأعمال الحسنة والأفعال الحميدة، بكل يسر، دون اعتناء وكلفة، وتنعدم الأعمال القبيحة والأفعال المذمومة تقريباً، وقد جاء في الأثر الشريف عن مثل هذا المرء: «**فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**»[1].

---

[1] - والحديث بطوله: عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من عَادى لي ولياً، فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزال عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنتُ سمعه الذي يسمعُ به، وبصرَهُ الَّذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجلهُ الَّتي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، ولئن استعاذني لأعيذنه». [رواه البخاري في كتاب الرقاق، باب التواضع ،رقم الحديث (٦٥٠٢)].

فإذا كان لا يسمع بإذنه ما يخالف رضا ربه، ولا يرى بعينه، ولا يحرك يديه وقدميه خلاف أمر ربه، بل كان ما يسمعه ويبصره أو يفعله فهو تبعاً لرضا الله ووفق أمره، فثبت إذن أن جميع جوارحه العاملة، من أذن وعين ورجل ويد، قد صار عملياً لله سبحانه لا لنفسه.

أما معناه في الظاهر فهو مستحيل عقلاً وشرعاً، ولما كان جميع أفعال جوارحه وأعضائه تظهر وفقاً وتبعاً لرضا الله سبحانه، فقال سبحانه عن نفسه كأنه يصير أعضاءه (أي: سمعه وبصره ورجله ويده).

ولما كان تحصيل هذه المكانة متوقفاً على إكثار النوافل، وكانت المجاهدة والرياضة محتاجتين إلى إكثار النوافل أيضاً، سواء كانت هذه صلاة أو صوماً، أو كثرة المراقبات، أو تقليل الشهوات، أو أي شيء آخر، فقال الصوفية عن هذه المرتبة اتباعاً للحديث (قرب النوافل) ولما كانت تنعدم وتزول بذلك الصفات الرذيلة والأفعال القبيحة، فقالوا عنه: أنه فناء الصفات.

قرب الفرائض:

هذه الدرجة أسمى من درجة قرب النوافل، ومغزاها أن يضمحل وجود العبد، إلى أن لا يرى قدرته وإرادته أمام قدرة الله وإرادته شيئاً، ولا يعيرهما عناية، ويتحول في الأفعال والأعمال إلى مثل الآلة لله سبحانه، وأن يتصور دائماً تأثير الحق سبحانه دواماً، وهذا أرفع درجة من الأول، لأن الأول كان يحو فناء الرذائل، ولم يكن يحتوي على فناء الاختيار، فأصبح إذن أرفع من الأول.

والحديث يدل كذلك، على أن التقرب بالفرائض أفضل من التقرب بالنوافل، ولذا نجد الجزء الأول من هذا الحديث: «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ**»[1].

---

[1] - رواه البخاري في كتاب الرقاق، رقم الحديث (٦٠٢١).

ولذلك تجد الصوفية يسمونه، موافقة للحديث المذكور (التقرب بالفرائض)، وحيثما لا يبقى نظر السالك في ذلك على صفاته الذاتية من القدرة والاختيار، يسمونه إذن (بفناء الذات).

التفويض والدعاء:

خلاصة كل هذا هي (العبدية) ومعناها: أنه ليس لنا أي شيء من ذاتنا وصفاتنا، بل كل شيء ملك له، ونحن مملوكون له، ولا غير، ومن أسماء هذه العبدية (التفويض) وإن كان يُرى في ظاهر الأمر تعارض فيما بين التفويض والدعاء، لكني أذكر لك حقيقته المحتوية على نكتة بديعة جديرة بأن تحفظ.

ليس معنى التفويض أن لا يدعو ولا يسأل، بل المطلوب منه أن تكون نفسه غنية، حتى إذا لم ينل مراده لما اضطرب، بل اطمأن، فإنه إذا لم يكن الأمر كما قلت، لما أمر العبد بالدعاء والسؤال، بيد أنه يجب لدى السؤال والدعاء أن يديم في روعه، أنه إذا لم يستجب لسؤاله، بعدما سأل ودعا، فإنه سسيرضى ويطمئن بجميع قلبه، إنها مسألة أشكلت على كبار الفضلاء، فقالوا: كيف يمكن الجمع بين التفويض والدعاء؟ لكني أقول: يجوز للعبد أن يسأل ما استطاع، ويتضرع ما أمكن له في سؤاله، فليس السؤال مما يتنافى مع التفويض.

وأمرٌ مهم يجب أن تكون فيه على بال، وهو أن العبدية تتحلى في شكل أوضح وأقوى، إذا ألحف العبد في الدعاء، وتيقن بالإجابة، وأن الله لن يحرمه، لأن هذا شأن العبد وأجدر به! وهو من آداب السؤال، والخيار بعد ذلك كله لله، والله إذا رأى من مصلحة العبد رزقه استجاب لدعائه، ولما أمر الله بالسؤال وجب عليه، فصار السؤال مطلوباً، والدعاء أيضاً مقصوداً وغاية.

فإن المقصود اثنان:

أحدهما: ما يسأله العبد.

وثانيهما: السؤال نفسه بل إن الخطر في الامتناع عن المسألة[1].

لأنه أمر بالسؤال، ولكن العبد استغنى عنه وزهد فيه، وبعض الناس يرون الدعاء مقصوداً، ولا يرون ما يدعون له مقصوداً، وهو خطأ عظيم، وحسبه الناس التفويض، لأنه قد يعد استغناءً عن الله، وهو يتعارض مع شأن العبدية كليّاً.

كان رسول الله ﷺ نفسه يُضيف إلى دعائه بعد طعامه كلمات، «**غَيْرَ مودع ولا مستغنٍ عنه ربنا**»[2].

وهنالك مئات من الآثار ثبت فيها السؤال عن رسول الله ﷺ في حاجات كثيرة، فكيف يكون مثل هذا خلاف التفويض، فإن اعتقاد السؤال مخالفاً للتفويض خطأ فاحشاً، ولو أنه خطأ اجتهادي، وسببه غلبة الحال!!.

الأوراد مكان الدعاء:

كثيراً ما يسأل الناس عن الأوراد لقضاء مطالبهم وحاجاتهم مكان الدعاء، ويحسبونها أعظم تأثيراً وإغناءً، فكشف الشيخ في هذا الأمر عن حقيقة جليلة، حين شكا رجل تقاعده عن العمل، وطلب حجاباً فقال:

---

[1] - كما جاء في الحديث آنفاً.

[2] - أخرجه الحاكم في مستدركه على الرقم (٧١٩١)، وهو مرويٌ عن خالد بن معدان رضي الله عنه.
أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة، باب ما يقول إذا فرغ من طعامه، رقم الحديث (٥٤٥٨ و٥٤٥٩) وأبو داود في كتاب الأطعمة، باب ما يقول الرجل إذا طعم، رقم الحديث (٣٨٤٩) والترمذي في الدعوات، باب ما يقول إذا فرغ من الطعام، رقم الحديث (٣٤٥٦) وابن ماجة في الأطعمة، باب ما يقال إذا فرغ من الطعام، رقم الحديث (٣٢٨٤) عن أبي أمامة.

ليس للمهنة (حجاب) ولكني أوصيك أن تردد: «يَا باسط» اثنتين وسبعين مرة، بعد كل صلاة من الصلوات الخمس، ثم استطرد قائلاً: إن الناس في هذه الأيام يغرمون بالأوراد، ولا يقبلون على الشيء الأصيل، وهو الدعاء، مع أنه روح ولب لجميع العبادات، ثم تحدث بما ينفع في هذا الشأن، فقال: إنه يتولد في القلب، لمباشرة الأوراد، كيفية الادعاء، وهي أني أعالج تدبيراً، فكأن النتيجة في يده، أما الدعاء فإن شأنه شأن خاص، إنه يحوي كيفية العبدية، وهي قول العبد: إني أسأل الله تعالى فلو شاء أعطى.

شأن العبدية:

إن الذين تستولي عليهم كيفية العبدية، يصطبغون بصبغة عجيبة، فقد كان الحاج إمداد الله ـ رحمه الله ـ متكيفاً بهذه الكيفية، فقد جاء إليه رجل، وقال له: دلني على ورد يرزقني الله به رؤية النبيﷺ في المنام، فقال حضرة الشيخ: ما أعظم طموحك! أما نحن فلسنا بخليقين بأن نتشرف بزيارة القبة الخضراء الشريفة، ما أعجب شأنه في التواضع وإنكار الذات والانكسار! لقد كان إماماً في هذا الشأن، ولقد كان جميع شؤونه تشهد بالتحقيق والحكمة، ولا غرور، فإن الماء إنما يجري إلى الحدور والمنخفض من الأرض.

كان أعظم ما يتعلمه الإنسان ويستفيده في مجالسه وصحبته، هو الفناء والامحاء، وكان من شأنه أنه كان يرى كل واحدٍ من أصحابه والمنتمين إليه أفضل من نفسه، وكان يقول: إني أرى زيارة أقدام القادمين وسيلة للنجاة، لقد كان مظهر العبدية والتواضع الجم في كل شؤونه وأوقاته.

إن الكمال المقصود للشريعة والطريقة كلتيهما هي العبدية، التي قيل عنها فيما سبق أنها قرب الرضا، وهو أن يذيب العبد مرضيات نفسه في مرضيات ربه، وأن يجعل أعماله كلها تبعاً لأوامر الله سبحانه كلّياً، ولذلك لا يمكن حصول هذا

القرب والوصول، إلا بطريق الإسلام، لأن معرفة أوامر الله سبحانه وتعالى ومرضياته الصحيحة الموثوق بها، لا توجد إلا في دين الإسلام، وإذا حصل القرب والوصول بدون اتباعها ومعرفتها، فمثلها مثل اللص والثائر إذا دخل على الملك في مخدعه من طريق خلفية غير عادية، ثم حسب نفسه من مقربي الملك، ويشرح هذا حكاية لطيفة ضربها الشيخ مثلاً لهذه النكتة:

مثال عجيب للوصول من غير رضاً:

الغاية الأصيلة هي الرضا، لا الوصول فحسب، بمعنى: أن الوصول والقرب الذين يحصلان من غير رضا الله، ليسا بغاية، ولا منشودين، ومثال الوصول من دون الرضا، كما جاء في حادثة الرأي الملكية في دهلي[1]، أن ريفياً جاء إلى «دهلي» ليرى الملك، فقابل رجلاً، فسأله عن طريقة يمكن بها رؤية الملك، قال الرجل ليس هذا بعسير، فإنك إذا ضربت رجلاً كريماً ساقك إلى الملك، وهناك سترى الملك، فقال الريفي: فمن أجده أكرم منك، وأخذه فضربه، ولما كان هذا الرجل من الوجهاء والسراة، لحقه الخزي والعار الكثير، فغضب جداً وساقه إلى الملك، وهكذا تمكن زيارة الملك، والاجتماع به لكل واحد في كل وقت.

ليست هذه الرؤية والمشاهدة إلا مصحوبتين بالجريمة والجناية، وليست الرؤية محمودة إلا إذا رافقته بهجة الملك، وفرحته، وكذلك لا يحمد إلا الوصول الذي يرافقه الرضا، وقال في أثناء كلامٍ له في هذا الصدد، إن سر نقل الإنسان من عالم الأرواح إلى عالم الأجساد، ليس إلا في أن يترقى في قرب الرضا، بامتثاله للأوامر وإتيانه بالأعمال، وليحصل نعمة التقرب المصحوب بالرضا، فأبان فيها أن مدار غاية القرب المقصود كله على الأعمال، وما شكاه كثيرٌ من الصوفية من افتراقهم عن عالم الأرواح، وكما بدأ الشيخ الرومي كتابه به (استمع إلى الناي ماذا يحكي وكيف يشكو البين).

---

[1] - دهلي: عاصمة الهند.

حمل الشيخ كل هذا على غلبة الحال هذه، وقرر في تلك الكلمة أن موت المؤمن هي الحياة الأصلية، وعلى الأخص وفاة النبيﷺ فإنها حياة حقيقية أو ميلاد ملكوتي.

هذه الحياة موت في حقيقة الأمر:

هناك نكتة لطيفة، إني قررت إلى الآن كون الموت حياة، أما الآن فأقرر كون الحياة موتاً، إن حقيقة الموت هي الانتقال من عالم إلى آخر، أو انقطاع هذه الحياة الناسوتية، ومعناه الآخر، أن الموت يقال للميلاد الملكوتي، لأنه يحصل هناك الانتقال من عالم الناسوت إلى عالم الملكوت، فهكذا الميلاد الناسوتي فإنه موت من نوع، لأنه يحصل فيه الانتقال من عالم الأرواح إلى عالم الأجسام، بل ويحسن أن نسميه موتاً، لأن ما يسمونه الموت يحصل به الانتقال إلى الوطن الحقيقي، وظاهر أن الوصول إلى الوطن من الغايات، ولا يقال له الموت إلا في العرف والعادة، غير أن الحقيقة هي أن الموت الحقيقي هو مفارقة الوطن الحقيقي إلى الوطن الموقوت، لكنه لما كان الناس على عمومهم غافلين عن الوطن الحقيقي سموا انقطاع الحياة الناسوتية موتاً. ولا يسمون الميلاد الناسوتي موتاً، لكن الذي يعرف أن له وطناً يعتقد خلاف ذلك.

لذلك تجد شيوخ الصوفية في كثيرٍ من الأحيان:

(يحنون إلى الوطن الحقيقي ويتأسفون على مفارقته، فالشيخ الجامي[1] يشير إلى هذا الوطن ويحزن على مفارقته).

(لماذا تجاهلت وَكْرَكَ ونسيته، وأصبحت مثل الأنذال من يوم هذا الخراب).

---

[1]- هو عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الجامي، وُلد في "جام" الواقعة في بلاد ما وراء النهر، انتقل إلى "هراة" وتفقه على علمائها، وصحب مشايخ الصوفية فيها، حجَّ سنة ٨٧٧، وتوفي ب «هراة» عام ٨٩٨هـ، له "تفسير القرآن" و"شرح الكافية" لابن الحاجب، و"شرح فصوص الحكم" لابن عربي.

الوطن الأصلي هو عالم الأرواح، وإن عالم الناسوت بالنسبة إليه خراب، فيجب إذن أن يحزن على مفارقته، لا على مفارقة هذا العالم، فالشيخ الرومي يذكر هذا ويقول:

(فاستمع إلى الناي ماذا يحكي ويحدث وأنه يشكو التنائي والبين).

فلماذا رُزقنا هذه الحياة؟:

لما كانت هذه الحياة موتاً، وكنا في السابق في وطننا الأصيل عالم الأرواح، فلسائل أن يسأل: لماذا أخرجنا من وطننا، وبعثنا إلى هذا العالم، وقد كانت حياة ذلك العالم أفضل، وقد كان القرب هناك أشد؟!.

فالجواب عليه: إنا بعثنا هنا للأعمال، ولذلك أوثرت الحياة الحاضرة على الحياة الغابرة، وقد فطن لهذه الحقيقة المحققون، أما المغلوبون عليهم فإنهم يتمنون ليتهم بقوا في عالم الأرواح، إذ فيه كما يبدو الراحة بل القرب كذلك، يقول الشاعر:

(يا راحة وهدوء بال في حلم العدم، لم أكن فيه أسيراً لجمال وهائماً في خيال، لكن الظهور نبهني وأوقعني في شرك الهوى، وهذا لأن التذكر والحنين لا يكونان عادة إلا في حالة فراق، أما الوصال والقرب فلا حنين فيهما ولا تذكر).

كراهة هذه الحياة، والسخط عليها لغلبة الحال:

فلنقرأ الآن تحقيق حضرة الشيخ المجدد وابتكاره، أنها غلبة الحال وليس تحقيقاً، ما الذي يمني النفس بذلك العالم؟ أليس لأنه يتضمن القرب؟ لكن القرب لا حد له، لأن كل درجة بعدها درجات، وظاهر أنه لما كان القرب بالطبع حبيباً إلى النفس، فكل درجة منه أصبحت حبيبة إلى النفس، وعلى الأخص للعشاق الذين كلما عرفوا أن هناك درجات أخرى للقرب، لا

يستطيعون الصبر والقناعة على درجاتهم، وقد قال الشاعر في أمثال هؤلاء (الطامحين المستزيدين):

(إنني لا أقول أنهم لا يجدون سبيلاً إلى الماء، ولكنهم عطاشى يستقون وهم على شاطىء النيل).

فإنهم لا يشبعون عن زيادة القرب، فلما عرفنا هذا سهل علينا أن نفهم أن ذلك العالم كان فيه قرب، لكن قرب ذلك العالم كان قاصراً، ولم يكن يزداد ويعظم، إذ القرب لا يعظم عادة إلا باتصال الجانبين، وإنما من عادة الله سبحانه أن تقوى وتعظم علاقته مع عبده إذا كان العبد يطلب ذلك ويحرص عليه، وحقيقة الطلب هي العمل، ولما لم يكن هناك عمل، لم يكن للقرب أن يزداد ويشتد.

الرقي بالطلب:

لذلك بعث الإنسان من عالم الأرواح إلى عالم الأجسام، ليتولد من الطلب العمل، فينفتح منه الباب إلى الرقي والتقدم، وقد قال الله سبحانه في الحديث القدسي: «**مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِراعاً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعاً، وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي، أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، أَوْ كَمَا قَالَ**»[1]. سبحانه: ما أعظم منته! وما أعظم ما يمن ويتفضل على طلب صغير من

---

[1] - والحديث بكامله: عن أبي ذر ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله ﷻ: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها أو أزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها أو أغفر، ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً، تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هَرْولةً، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشرك بي شيئاً، لقيته بمثلها مغفرةً». (رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله، رقم الحديث (٢٦٨٧)).

عبده! لكن بشرط أن يأتي السعي والطلب من العبد مبتدئاً، كما تبين من الحديث فيما تقدم.

فالحقيقة: أن المزيد من القرب يفتقر إلى الطلب، وبعد الطلب إلى السعي، لأن الله سبحانه ليس بجسم حتى يكون (معاذ الله) في مكان نجتاز إليه مسافة أرضية، فنجلس في حجره، لا يمكن اكتساب القرب إليه إلا بأن نربح رضاهه، ونكسب رحمته، وأن نستعطف عنايته بنا، فهذا معنى قرب الحق سبحانه.

وينحصر رضا الله سبحانه وقربه في شيء واحد، هو الأعمال الصالحة وكلما استأثر العبد الأعمال الصالحة، انعطفت عناية الله سبحانه إليه، فيقول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾[1].

قد حصر الله سبحانه الرضا، أو قرب الرضا في هذه الآيات في الأعمال الصالحة.

ولما علمنا أن مفهوم القرب هو الرضا، وأن الرضا متوقف على الأعمال الصالحة، علمنا إذن أن الأعمال نوعان: أعمال القلب، وأعمال القالب، وهي التي تتعلق بالجوارح، ثم للأعمال قسمان، منها ما هي موهوبة، وما هي مكتسبة، مثل المحبة الأصيلة، والخشية الحقيقية، والشوق الحقيقي (أي: صلاحية هذه الأمور وصلاحية الإنسان لها). وهي أعمال القلب الموهوبة، وإنه يستطاع مدها وزيادتها بالذكر والمراقبات والرياضات وغير ذلك، وهي أعمال القلب المكتسبة.

---

[1] - سورة البينة، الآية: ٧ ـ ٨.

ومما لا شك فيه: أن الأعمال الحقيقية هي التي يعمل فيها الاكتساب والاختيار، أما الأعمال الموهوبة فلا يقال لها أعمال إلا بالمجاز، القرب الذي يكتسب بالقصد، إنما يحصل بمثل هذه الأعمال الاختيارية، ولم يكن في عالم الأرواح سبيل إلى أعمال الطالب، لأنه لم يكن هناك قالب أو جسم، ولا إلى أعمال قلبية مدارها على الكسب والاختيار، إذ لم تكن هناك آلات الاكتساب بتاتاً.

لقد كان هناك قرب، لكنه كان واقفاً على حد، فلم يكن من الممكن التقدم فيه، لأن الأعمال كانت هناك غير مستطاعة، لذلك فالمحققون يتألمون بتصورهم لعالم الأرواح، يقولون: أي راحة هناك؟ إنما الراحة والمتعة هنا، فإن للعبد أن يتقدم ما شاء عن طريق الأعمال والقربات، وليس له حد ينقطع إليه فإنه لا ينقطع بحد، وكيف يرتاح العاشق إذا وجد المحبوب أمامه، لكنه يقول له: إياك أن تتقدم، إنه يحب ويهوى أن يعانق محبوبه، بل يحب أن يعانقه محبوبه ويضمه إلى صدره[1].

الكمال الأخروي:

فإذا كان تقارب الطرفين ميسوراً في هذه الدنيا، فلقائل أن يقول، فماذا بقي للآخرة؟.

والجواب: إن ظهور هذا القرب الكامل التام، والمتعة الكاملة به لا يكون إلا في الآخرة، لأن القرب الذي يحصل بين العبد وربه بعد مقدمه إلى هذا

---

[1] - ومعنى هذه المعانقة حاصل، لأن المقصود منها أن المحبوب يأخذ العاشق في كنفه في غاية القرب، أما القرب فثابت بقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]. أما الاكتشاف والإحاطة فقد قرر الله ذلك قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾[النساء: ١٢٦].

العالم، وإن كان أكثر وأشد مما كان قد يحصل في عالم الأرواح، ولكنه يقصر عن أن يطمئن به قلب الإنسان كليّاً، أما في الآخرة فسيحصل الرواء كليّاً، إذ سيتمتع كل عبد برؤية الله سبحانه، وفق ما يتمنّى، لأنه يرزق هناك قوة لاحتمالها، حسب تمنّيه ورجائه.

غير أن الذي لا يمكن إنكاره، هو أن التمني لن يكون أكثر من قوة الاحتمال، وهذا هو السر في التفاوت بين درجات القرب، وذلك بأن كل رجلٍ يحرز القرب قدر ما تقتضيه صلاحيته واستعداده، لذلك سيتشفّى قلبه، أما في هذه الدنيا، فلا بد من حجاب لأجل ستائر مرخاة، فلا يحصل الانكشاف حسب التمني، فتبقى في نفس يعقوب حاجة لا يقضيها.

فهم خاطىء:

ونفى فهماً خاطئاً وقع فيه بعض الصوفية، الذين يظنون أنهم سيجدون في الآخرة التحنن والالتياع والاضطراب لرؤية الحق سبحانه، فلا حور فيها ولا قصور، إنما هنالك التعطش والهتاف بمثل ما قال موسى على الطور (أرني) فهؤلاء يعتقدون أنه لن يحصل السلوان كاملاً، حتى في الآخرة كذلك، مع أن مثل هذا الخطأ من المحبين العشاق مصفوح عنه.

(لو أخطأ فلا تقل له مخطئاً، فلو رأيت دماء الشهيد على جسده لا تغسله). لا يلامون في هذا، غير أن رد هذا الاعتقاد والظن لا بأس به، إنه في الحقيقة خطأهم الذي وقع في كشوفهم، لأنه لم ينكشف لهم فوق ذلك. ويمكن أن يكون هذا حالة بعض العشاق في الآخرة لوقتٍ ما، لكن لا بد أن تشفى نفوسهم، وتقضى لبانتهم لتجلي الله تعالى، ولما لم يكن لهم علم واطلاع على هذا التشفي الذي سيحصل في الآخرة، حسبوا أن التحنن لن يزال، حتى إلى ما بعد الدخول في الجنة.

وأحكمَ هذا الخطأ قياسٌ، هو أنهم قاسوا الجنة على الحالة التي هي في هذا العالم، ومن حالة هذا العالم، أن جمال المحبوب غير متناهٍ فعلاً، وغرامنا في هذا المعنى غير متناهٍ، إذ لا ينتهي إلى حدٍّ، يقول الشاعر:

بِكُلِّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يَشْفِ مَا بِنَا

فحسبوا أن جمال المحبوب غير متناهٍ في الآخرة أيضاً، وعشقنا لا قرار له، فكيف تحصل إذن الطمأنينة والراحة هناك أيضاً؟!.

فأقول: إن الطمأنينة ستحصل، وطريقه أن جمال المحبوب من دون شك غير متناهٍ، لكن غرامك سيتناهى إلى حدٍّ، والقرب سيحصل لك بمقدار ما تلائمه صلاحيتك وتقتضيه، فبذا يرزق كل واحد منا الترويّ والتشفّي، فافهم أنك لن تجد القلق في الجنة، بل إنما كل داخل فيها سيرتاح ويهدأ، إنما القلق خاص بهذا العالم، على كل حال فقد بعثنا الله في الدنيا لنتقدم ونترقى بأعمالنا.

التصوف ليس البطالة بل هو الكمال في العمل:

إن الدين الذي يجعل الأعمال غاية خلق الإنسان، وقطباً لرقيه وتقدمه، بل إن الذي جعل جميع الأعمال الحسنة في ضوء الإيمان وهدايته، عبادة أصيلة، ثم إنه لا يعني بهذه الأعمال الحسنة صلاةً وصوماً وغير ذلك من العبادات المشهورة فحسب، بل ويعني بسائر الأمور والمعاملات للحياة الفردية، والجماعية، والأخلاق، والمعاشرة، والحكومة والسياسة، والجهاد والقتال، والمن والمصالحة، والثقافة والمدنية، إلى تفاصيل الحياة العملية كلها، بما في ذلك من أعمال دقيقة جزئية، والقيام والقعود العاديين، وسائر آداب الطعام والشراب وأحكامهما، فكل ذلك خاضع لهدايته وإرشاده، وداخل تحت إشرافه، وليس التصوف إلا هذه الدرجة من كمال الدين، فماذا يكون المعنى لهذا التصوف سوى الكمال في العمل مع الإيمان، أن من الغريب أن

هذا الكمال العملي، أعني التصوف، قد اعتبره أولئك الذين يؤمنون به ويشغفون به من غير المحققين، وأولئك الذين ينكرونه على السواء فراراً من شؤون الحياة وقضاياها، والنفور منها، ورهبانية وانقطاعاً إلى الزاوية.

جريمة الاستخفاف بالعمل:

افترض مُحبوا التصوف والمغرمون به، للعشق والمحبة، والقرب والمعية، والوجودية والعينية، وغير ذلك من المصطلحات الفنية، معاني أوحتها نفوسهم، وزعموها من أنفسهم، مما وضعت وحقرت لديهم عبادات الصوم والصلاة وغير ذلك، فضلاً عن أن تكون هناك عناية بالمعاملات والمعاشرةن والأعمال والأحكام الدينية للأخلاق، ثم إنهم إذا شاهدوا عند بعض المشيخة قلة العناية بالأعمال، لغلبة الحال، أو لأعذارٍ خصوصية، لم يفهموه، ولم ينظروا إلى عذرهم، وهو غلبة الحال، بل يقعون فريسة في حبائل النفس، ويظنون هذه الغلبة والعذر كمالاً بعينه، ويتبعونهم في هذا، فيضيعون دنياهم ودينهم ويخسرونهما.

كما تجد بجانبهم، المنكرين غير المحققين منا ومن عيرنا فمن أساؤوا الظن بهذه الأمور، وحسبوا التصوف هجراً باتاً للأعمال، وانقطاعاً إلى الزاوية، أو حسبوا الصبر والتوكل، والترك والتجرد، والزهد والقناعة، والتحمل والتواضع وغير ذلك دعوة إلى سقوط الهمم، ومجموعة من الأخلاق السلبية المبنية على الجبن، فأنكروه أو عرضوا التصوف الإسلامي كأنه مستقى من (يوغا) والإشراقيين البراهمة، والأفلاطونيين، وكأنه نظام مستفاد من (كيان) أو طرق تصورهم وخيالهم، أو هو فلسفة من السرية (Mysterisma)، وأثبتوا بذلك براعتهم ودقة فهمهم وبعد غورهم.

ومن دواعي ذلك: أن أفكاراً ومقالات مثل العشق والمحبة، والقرب

والوصال، والوجودية والمشهودية، والعينية والغيرية، قد تغلغلت في كتب التصوف الهامة، وفي كلام الصوفية العظام، وشغلت مكاناً كبيراً، حتى أصبح التصوف عنواناً لهذه الأشياء في نظر الذين لا يدققون النظر، ثم إن ما يعبرون به عن هذه الأقوال والمقالات، من مصطلحات دقيقة فلسفية، وتعبيرات متنوعة براقة شاعرية، يجعل التصوف شعراً خيالياً، لا صلة له بالجد والكفاح، وفلسفة، لا شأن لها بالحياة العملية. ضد حياة النبيﷺ، وحياة الصحابة العملية.

فخلاصة ما ذكرنا: أن ما قام به الشيخ من التجديد والتحقيق في هذا الموضوع، والذي عرضناه بشيءٍ من الشرح والبسط، وكان لا غنى عن ذلك، في نفي هذه الأخطاء المتراكمة المتراكبة، وفي فهم العلاقة الصحيحة بينها، وبين التصوف الإسلامي، وخلاصتها: أن العشق والمحبة، والقرب والمعية، ووحدة الوجود ووحدة الشهود، كلها في الحقيقة عناوين مختلفة، وأنماط متنوعة، أو مصطلحات فنية للتفهيم والتعبير عن مفهوم واحد، وعن حقيقة واحدة، يعني: العبدية التي هي (عصارة خالصة للكتاب والسنة)، إنهم لا يتخذون التعابير الحديثة، والعناوين والاصطلاحات الجديدة، إلا للتقريب إلى الفهم، وأي فن أو علم دينيّاً كان أو دنيويّاً لا يخلو من هذه التعبيرات والمصطلحات، والعنوانات الجديدة، التي يدعو إليها العصر وتطوراته، وتوجبها الضرورة.

الهدف الأصيل هو العبدية التي هي كمال العمل والطاعة:

والمقصد العظيم والهدف الجليل لهذه العناوين، والتعبيرات، والاصطلاحات هو غبانة هذه العلاقة بين العبد والرب، بالعبادة والعبدية، والتفاني والتسليم، الذي يفهم من آية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. وهو إظهار

---

[1] - سورة الذاريات، الآية: ٥٦.

لذلك، وإدماجها في الحياة العملية، لتكون علاقاتنا بالله علاقة العبد الرقيق الخاع، الذي يظل مشمّراً ومستعدّاً لطاعة سيده في كل وقت، وكذلك لتتحصل صبغة من (الإحسان) من معرفة الذات والصفات، والإحاطة والمعية، والقرب والأقربية، التي نفهمها من «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[1]. التي تجدها لدى المملوك، حين شهود مالكه، ومثوله بين يديه، إذ لا يتردد من أداء أي عمل صغيراً كان أو جليلاً، وإنما هذا كمال العمل والطاعة.

كمال العبدية يستلزم كمال الإسلام والرضا:

ما أعظم السيد وأكرمه! هو صاحب الكمال والجمال والنوال وجامعها، الذي لا تكون العلاقة معه عبدية جافة فحسب، بل علاقة صلة غرامية لازمة، فلو كانت علاقة العبدية هذه متجردة من الشوق والجذب عن العشق والمحبة، ولو كانت نوعاً من الجبر والعبدية المجردين، لا مكنت إذن الطاعة العملية للأحكام في أي صورة وشكل كان، لكن لن تجد فيها علاقة الرضا والتطوع القلبية، ولن توجد درجة (كل ما يأتي من الحبيب خير). الدرجة التي هي التسليم والرضا، بل وقد يمكن بالعكس منه، نشوء الشكاوى ونبو القلب، إذا لم تتفق الأحكام مع النفس في كثيرٍ من الأحيان، ولذلك ما كان من إحجام الشيخ إمداد الله وإعراضه من السماح بالمراقبة التوحيدية، حتى يظهر شيءٌ من صبغة العلاقة الحبية والعشقية، لأنه كان يخاف أن تتولد الشكاوى، وينشأ الكفران، حينما يرى العبد الخير والشر، والراحة والألم من مشيئة الله في الأمور التي لا توافق طبعه، والتي لا يقدر على التحمل فيها، فيجب أن يكون كمال التسليم والرضا مع كمال العبدية، بأن يكون كما قال الشاعر، ما معناه:

(عذابك عذبٌ، ومرك حلوٌ لنفسي، وإن نفسي فداء للحبيب الذي يؤذي

---

[1] - حديث، قد سبق تخريجه في صفحة: (١٨).

القلب لا يكن حظ العدو أن يهلك بسيفك، حيا الله أعناق المحبين حتى يمتحن فيها سيفك، دع عنك الفراق والوصل، ولا تطلب سوى رضا الحبيب، فحرامٌ أن تطلب منه سوى نفسه).

هذا هو اللون الغرامي الذي أفاضته محبة الله ورسوله في حياة الصحابة رضي الله عنهم العملية كانوا به يحملون رؤوسهم على أكفهم في سبيل الأحكام الإلهية، فما كانوا يخافون سهماً ولا سيفاً، ولا كانت محبة الأهل والأولاد تحول وتعوق من الاتباع والطاعة، ولا كانت ألفة الأوطان والمكان تمنعهم من الاغتراب والهجرة.

إنما الغاية العظيمة من العشق والمحبة، والوجودية والشهودية، هي الحياة العملية للعبدية، وتحصيل كمالها، يعني تحصيل مكانه (الإحسان والرضا)، وذلك بأن يضمحل ويتضاءل كل وجود في النظر، سوى وجود الله سبحانه، وبأن يزول كل خوف أو رجاء من غير الله، فكرياً كان أو نظرياً بالنسبة إلى أحكامه سبحانه، ولا يعبأ ولا يكترث كذلك بنفعه وضرره كذلك، وأن تغلب الطاعة والإسلام لأحكامه سبحانه في كل حالة وصورة وخيال.

الفصل السادس

في

السلوك والتربية

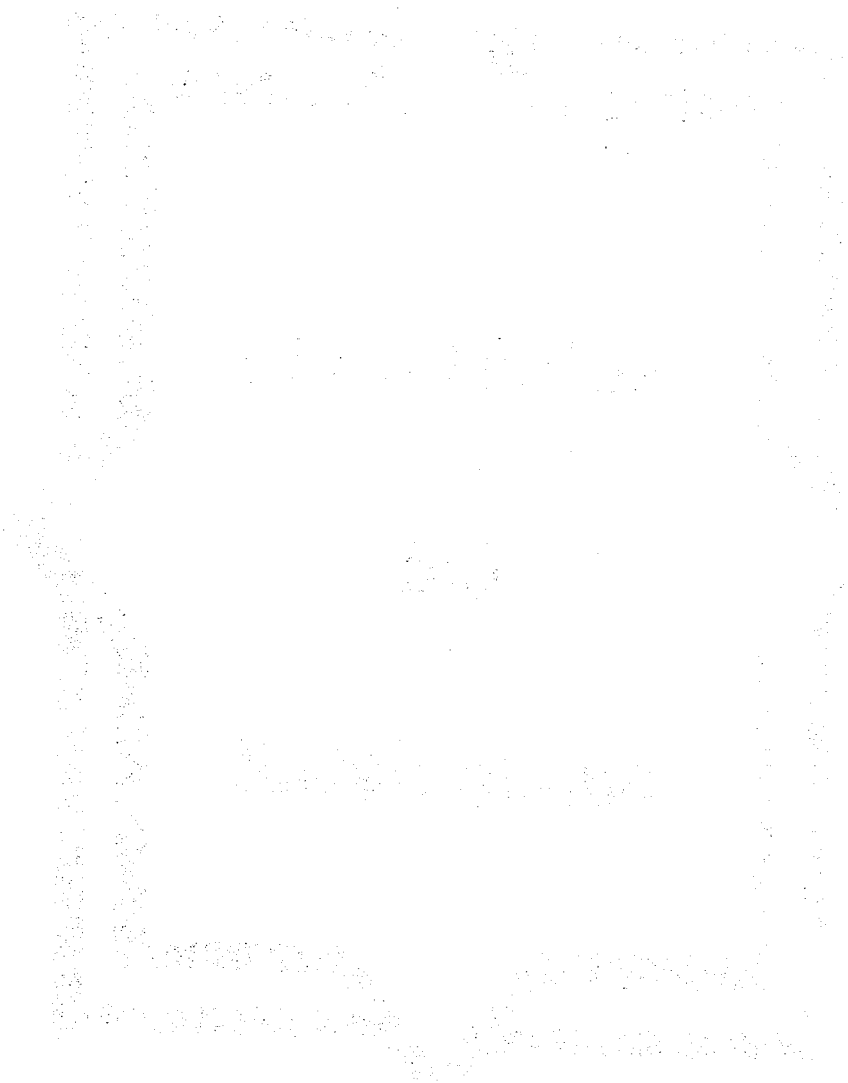

السلوك والتربية:

أما مداومة الطاعة في الأحكام والأعمال، فهي التي تسمى العبدية والخضوع، وهما اللذان يعبّر عنهما بكلمة (الإسلام) وهما روح التصوف الإسلامي، أما التربية بهما فهي عند الشيخ التهانوي المجدد هو السلوك الكامل، وهو أن لا يقصر المرء ما استطاع في امتثال الكتاب والسنة، وجميع الأحكام والأعمال الشرعية، سواء كانت فرعية أم أساسية، وذلك ما تراه في كتاب (تربية السالك للشيخ المذكور) بآلاف صفحاته، كما تراه في مكاتيب الشيخ، فإن كلاً من ذلك يدور حول هذا الموضوع ويبحث عنه، ولكن يجب أن تفهم أن ليس معنى العمل الهتاف باسمه، وهذا الصخب الذي تسمعه صباح مساء، فكل ينادي (العمل) (العمل) كما نرى في هذا العصر، وأن العوام لا يريدون بذلك غير الأعمال والحركات البهيمية أو الصبيانية والجنونية أو الشركية، كما أن الأطفال لا يعرفون ما داموا أطفالاً سن الرشد والحياة التي هي أبقى وأعلى، فلولا توجيه آبائهم وإشرافهم لقضوا كل وقتهم في اللهو واللعب والمناقشات في الأشياء التافهة الجنسية وفي الأكل والشرب والمتع، أو كما أن الطيور والأنعام لا تعرف لها مستقبلاً سامياً معلوماً ولا هدفاً رشيداً، غير أنها تتبع ما توحي نفوسها إليه بالطبع من دون تبصر ولا تفهم من صباحها إلى مسائها، تتكالب على الأكل والشرب والتوليد والنسل، فهذا ميدان مسابقتها أو على حد التعبير العصري الدارج، أنها تنكب على جهاد الحياة، وتنهمك فيي التنازع للبقاء، فتنقطع إلى هذه التفاهات، أو أن يصير الرجل كسفيه أو مجنون، ضرب هذا ورمى ذاك وشتم ذلك، فالحاصل أنه لا يعرف هدفاً معقولاً لأي عمل من أعماله وحركاته مثل المجانين واتجاهاتهم.

العمل والحركة عند المشركين:

هنا قسم ثان لمثل هذا العمل يدق فهمه وتكثر فيه المغالطات، وهي أفعال المشركين الذين قطعوا صلتهم عن خالق الإنسان ورب العالمين، فبعضهم لزموا عبادة النار وحسبوها بل سموها ديانة، فيباشرون أعمالها وأفعالها، وبعضهم يعكف على عبادة الشمس، أما الآخرون فقد اختاروا الشجر والحجر أو الإنسان والحيوان، سواء كان حيّاً أو جامداً أو نامياً، واتخذوه لهم آلهة ووقفوا حياتهم لها، أما الذي يفوق كل هذا لبساً ودقة وخطأ فهو أن ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[1].

وهو أحدث أنواع الشرك وأكثرها طرافة، وقد استفحل وقوي أمره من باب الإلحاد والكفر والإنكار، فعاقب الله رجاله لانحرافهم عن جادة الحق، بأنهم يلحدون فيخضعون أمام أناس مثلهم، فمنهم من يعدو خلف الاشتراكية والشيوعية لا يلوي على شيء، ومنهم من يهيم بالجمهورية والديمقراطية، فيلذ له سماع الهتافات ويتبع كل ناعق لها، ومنهم من يبذل نفسه وروحه للآمرية والسفسطائية ويضحي بنفسه لمن دعا بدعوتها. وهكذا تحول الإنسان عن عبادة الله سبحانه، ومنح إعظامه وإكباره وعبادته الآخرين من أمثاله، وناط بهم جميع أفعاله وأعماله[2]. ثم إنه من طبيعة الإنسان العامة، أن الإنسان

---

[1] - سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

[2] - نحن أكثر تأسفاً على المسلمين الذين كانوا خير أمة أخرجت للناس وقد أسند إليهم تجديف سفينة الإنسانية، وقد وكلوا سفينتهم إلى محمد علي جناح [مؤسس دولة باكستان] حيناً وإلى أتاتورك حيناً آخر، وسلموا قيادتهم حيناً ثالثاً إلى جواهر لال نهرو [رئيس وزراء الهند الأول، وأحد كبار زعماء حركة تحرير الهند من الاستعمار البريطاني] وأمثالهم من الأبطال القوميين في كل شعب من شعوب الأمة الإسلامية (العلامة المؤلف).

كلما تجاوز الحدود الثابتة لله سبحانه وحده، فلا ينتهي إلا إلى أن يعبد هذا ويخضع لذاك من صغار الآلهة الكاذبة وكبارها، فهذا طابع الإلحاد الحاضر الذي يؤله فيه الإنسان الإنسان، ولا تنحصر عبادته في إله واحد، بل لا بد له أن يخضع لكل صغير وكبير من الزعماء والآلهة السياسيين، والحركات الأخرى، من غير تبصر ولا تروٍّ، وهؤلاء الآلهة المزورون يطلبون من عبادهم أعظم قربان من نفوس وأرواح وأموال وشرف من غير رحمة ولا هوادة، أفنجد فيما مضى من الزمن أن آلهة العصر القديم طلبوا من تضحيات للمال والنفس ما طلب هؤلاء الآلهة الحاضرون (الزعماء الجدد) في الحرب العالمية الأولى، وأكثر منها في الحرب الثانية، أو كما يجبي هذا الخراج القاسي هؤلاء المتألهون في بلادنا الهند وباكستان صباحاً ومساءً، من يوم أن تحررت البلاد من نير الإنجليز بكل بهيمية وحيوانية، وبكل وقاحة وقساوة.

فإن الإنسان حينما ينقطع عنه حبل الله، يتسلط عليه الشيطان ويخلب عقله ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[1]. كأن الإنسان يتحول بذلك كرة للقدم، تتحرك وتعمل دائبة، غير أن كل حركة من حركاتها لا تكون إلا نتيجة لركل قدم لاعب (زعيم) وقد صور القرآن، بأسلوبه المعجز وبلاغته التي لا مثيل لها، هذا الهيام والتيه اللذين تتصف بهما الحياة المشركة في الأعمال والحركات فقال: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[2].

وقد حل الدعاة السياسيون والاجتماعيون والاقتصاديون ودعواتهم وفلسفاتهم محلّ النسور الآكلة للجيف التي تمزق جسم الإنسانية، وتملأ بطونها بهذه اللحوم

---

[1] - سورة البقرة، الآية: ٢٧٥.

[2] - سورة الحج، الآية: ٣١.

الممزقة وقطعها، أو ترميه في مكان بعيد جداً عن الحياة الصحيحة الأبدية، وأسباب الحياة والعمل، حيث لا رجوع ولا مصير له إلا الهلاك الأبدي.

المقصود من العمل هو العمل الصالح:

والحاصل: أن العمل الذي خلق الإنسان له، ليس مقصوده هذا الفوضى والاضطراب والهتاف المتواصل للعمل، وليس المقصود منه الخبط والتيه السوفسطائي، إنما الغاية هو العمل الصالح الذي يخرج الناس من هذا الخبط والاضطراب الذين يوجدان في العلم المشكوك فيه، ثم الذي يمنحهم من غير نظرٍ إلى لون النسل، وفوارق البلاد، والأمم، والفقير والغني، والطبقة المترفة والكادحة، يمنحهم الحنيفية الكاملة، والوجهة الوحيدة التي لا يتسنّى للإنسانية الخلاص والإنقاذ إلا بالإيمان بالإله الواحد، الخالق للسماوات والأرض، وهو الذي عناه إبراهيم الحنيف بقوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

وليس الإيمان إلا قبول هذا العلم والهدي الصادرين من الله سبحانه، اللذين لا ريب فيهما، واللذان يحيطان بكل شيء، وهو خالق السماوات والأرض ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2].

وإذا عمل الإنسان بمقتضى هذا الإيمان والعلم فهو العمل الصالح المطلوب في شريعة الإسلام وتعليمه.

---

[1] - سورة الأنعام، الآية: ٧٩.

[2] - سورة العنكبوت، الآية: ٥٢.

أهمية حقوق العباد:

لو حللنا العمل الإنساني لوجدنا له صلة من أي طريق كانت بحقوق الإنسان وواجباته، أو بحقوق العباد، سواءٌ كان العمل فردياً أو اجتماعياً، سياسياً أو اقتصادياً، مدنياً أو ثقافياً، وإنما جميع الفتن وكل الفساد ينشأ من التغافل والتجاوز في أداء حقوق عباد الله هذه، ومن الإحجام عن تأديتها، أو التقصير في قضائها، فانظر ما يقوله الشيخ في (قصد السبيل):

(إن طريق الأقدام على التصوف هي أن يتوب الرجل عن سائر آثامه أولاً، وإن كان عليه للناس حقوق، فيشرع في محاولة قضائها، أو أن يستسمح فيها أرباب الحقوق، لأنه من دون أن يتخفف من حقوقهم لن يصل إلى الله، ولو جاهد واجتهد طول حياته.

علامات النسبة الباطنية:

فالذي يقولون عنه أنه النسبة الباطنية، يمكن لنا عنها أن نقرأ علامتها في كتاب (قصد السبيل) نفسه، وإن لحصول النسبة الباطنية علامتين:

أحدهما: أن يثبت ذكر الله في القلب، حيث لا يزول لمحة واحدة عنه.

والثانية: أن ترغب النفس وتميل إلى امتثال أوامر الله، سواءٌ كانت من باب طرق العبادة، أو كانت من باب المعاملة مع العباد بعضهم مع بعض، أو كانت ما دل فيها سبحانه على طريقة التحادث والتحاور، أو كانت ما دل الله سبحانه فيها على طرق القيام والقعود، وأن تحجم النفس وترغب عما نهى عنها الله سبحانه، مثل ما ترغب النفس إلى الرغائب الطبيعية وتحجم النفس عن المكاره الطبيعية، وعمّا لا تميل النفس إليه، وأن تصطبغ سائر عوائده بصبغة القرآن الكريم.

الوصول إلى الله لا يمكن بدون الأعمال:

هذا هو لب التصوف الإسلامي والتجديدي، حيث أنه عنوان للكمال في جميع الأعمال، وفقاً لما جاء به القرآن، غير أنه كما تجد أن الموضوع الخاص في هذه الأعمال للفقه هي الأعمال الظاهرة، فلذلك فإن موضوع التصوف هي الأعمال الباطنة (لكنه مع التزام الأعمال الظاهرة وترقيتها)، بحيث لو جاهد أحدٌ في أعمال الباطن والقلب وأحوالهما من دون أعمال الظاهر والجوارح، وجاهد واجتهد طيلة حياته فلن يصل إلى اللهن ولن يكون متصوفاً في التصوف الإسلامي، إذ الهدف الأصيل في التصوف الإسلامي هو إرضاء الله سبحانه، وذريعته السير الكامل على أوامر الشريعة، ففي هذه الأوامر منها ما هي تبع للظاهر مثل الصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها من العبادات، وكالنكاح والطلاق وقضاء الحقوق التي تجب على الزوجين، وغيرها من التي تسمى الديانات، وكالآخذ والرد والتحاكم والشهادات والوصية وتقسيم الميراث وغيرها من شؤون المعاملات، وكالسلام والكلام والطعام والقيام والقعود والضيافة وغيرها من شؤون العشرة والاجتماع، وهي تسمى بمسائل (علم الفقه)، ثم ما هي تبع للباطن، كالمحبة لله والخوف منه والذكر له، وتقليل حب الدنيا والرضا بمشيئة الله، وترك الحرص، وإحضار القلب في العبادة، وأداء الأعمال الدينية بإخلاص، وعدم تحقير أحد وتجنب العجب، وكظم الغيظ وغيرها، وتسمّى سلوكاً.

العمل بأحكام الباطن كذلك فريضة:

والعمل بأحكام الباطن فريضة وواجبة مثل الأعمال الظاهرة، وأنه ليتولد الفساد في الأعمال الظاهرة من فساد الباطن أحياناً، مثل أن تكسل النفس لسقوط المحبة لله والقلة فيها، أو أن يأتي الرجل بصلاته بدون تعديل أركانها مستعجلاً، أو

امتنع من الزكاة والحج بسبب البخل، فلم تتطلع النفس إليها، أو ظلم أحداً لكبره أو لغلبة غضبه، أو أضاع الحقوق وتركها، وما إلى ذلك.

ولو عالج الاحتياط في هذه الأعمال الظاهره بدون أن يصلح نفسه، فلن يفيده هذا الاحتياط أيضاً إلا لبضعة أيام.

فلذلك لا يجب إصلاح النفس للأعمال الباطنة فحسب، بل ويجب كذلك لتأدية الأعمال الظاهرة في صورة كاملة تامة.

الحاجة إلى الشيخ:

لكنه قلما يعرف الرجل نقائص النفس وعلل الباطن، وإذا عرفت وفهمت، فقلما يعرف الرجل طرق علاجها وإصلاحها، وإذا علم كذلك وعرف لتعسر إذن العمل به لصراع النفس، ومن هنا يحتاج الإنسان إلى الشيخ الكامل، لأنه هو الذي يعرفه بهذه الأمور بعدما يتفهمها ويتعرفها، ثم يصف لها علاجها وتدابير مداواتها، ويعلم أشغالاً وأذكاراً لتستعد النفس للإصلاح، وللسهولة في المعالجات والتدابير، والذكر عبادة بذاته.

عملان للسالك:

فيجب للسالك الإتيان بعملين:

أحدهما: لازم يعني مزاولة الأحكام الشرعية الظاهرة والباطنة.

وآخرهما: وهو مستحب: هو إكثار الذكر، فمزاولة الأحكام تأتي برضا الله سبحانه، وإكثار الذكر يحدوا إلى زيادة الرضا والقرب، وهذه هي خلاصة طريق السلوك وغايته.

فعلمنا من هذا: أن خلاصة التصوف الإسلامي هي توخي رضا الله سبحانه، وهو يقتصر وينحصر في استدامة ومزاولة الأعمال الظاهرة والباطنة كاملة، وأن لهذه الأعمال درجتين:

إحداهما: للفرائض والواجبات التي تجب مزاولتها على كل مسلم، ولذا يجب تحصيل تصوف هذه الدرجة على كل مسلم وجوباً لازماً، وهو يسمى الولاية العامة.

أما الدرجة الثانية: فهي درجة إكثار الذكر أو زيادة الرضا والقرب.

(لابد فيه من أن يشتغل الظاهر في نوافل العبادات، والباطن والقلب في ذكر الله سبحانه دائماً، فلا يغفل أبداً، وهي درجة مستحبة، وهي التي يقول لها الناس (التصوف) لكن يجب أن تذكر وتعلم).

التصوف المحرم:

وإن ساقه الاشتغال في هذه الدرجة الثانية إلى ضررٍ في شيءٍ من أمور الدرجة الأولى، أو ينقص فيها، فالاشتغال في الدرجة الثانية إذن محذور ومحرم، مثل ما يفعله بعض الجهلة بأنهم يهجرون الأهل والعيال، ويشغفون بالدروشة.

وهكذا تجد كثيراً من الجهلة يحسبون الأذكار والأشغال والمراقبات والرياضات، أو الأحوال، غايات ومنشودات أصيلة للتصوف والولاية، وهي جهالة خالصة، لأن المقصود هو أعمال الظاهر والباطن لا غير، أما بقية الأذكار والأشغال المتعارفة، أو الرياضات والمراقبات، فليست إلا تدابير ووسائل لإصلاح الأعمال، أما الأحوال فهي الثمرات التي ليست بلازمة، أي: الثمرات التي لا يلزم أن تظهر، وليس تحصيلها بواجب ولا منشود.

البيعة التقليدية ليست بواجبة:

وكثيرٌ من الناس حسبوا الإرادة والشياخة والبيعة لازمة للتصوف، أو حسبوا البيعة الصرفة كافية، وهي جهالة خالصة، أما الغرض الحقيقي من الشياخة والإرادة فهو إصلاح الأعمال الظاهرة والباطنة، وعلى الأخص علاج

الأمراض النفسية، ولو كان الشيخ والمريد معنيين بالإصلاح والعلاج عناية تامة فالبيعة التقليدية الصرفة ليست بواجبة إذن، غير أن الإنسان كما يلتمس لأمراضه الجسدية طبيباً نظامياً أعلم من يمكن حصوله، ثم يراجعه في مشاكله الصحية، كذلك يجب الاعتناء بذلك في طبيب الباطن الذي يداوي الأسقام النفسية، ولذلك لابد من عرفان سمات الشيخ الكامل.

علائم الشيخ الكامل:

١- أن يحمل من العلم القدر الذي لا غنى عنه.

٢- وأن يكون محافظاً على الشريعة في العقيدة والعمل والخلق جميعاً.

٣- أن لا يكون حريصاً على الدنيا، ولا يزعم لنفسه الكمال لأنه كذلك شعبة من حب الدنيا.

٤- ويكون قد قضى مدة في صحبة شيخ كامل.

٥- وأن يحسن العلماء والمشيخة المعاصرون المنصفون الظن به.

٦- أن يرغب إليه الخاصة والعقلاء المتدينون أكثر من العامة.

٧- والذين بايعوه كان أكثرهم أحسن حالة من حيث الشرع وقلة الحرص في الدنيا.

٨- وكان يعطف ويحدب على حال مريديه في تعليمهم وتلقينهم، وكلما رأى فيهم سوءً أو سمعه، نعى عليهم ومنعهم منه، لا أن يدعمهم على حالهم كيفما كان.

٩- والجالس في صحبته يشعر بالنقصان في حب الدنيا، والزيادة والتقدم في حب الله.

١٠- أن يكون هو نفسه ذاكراً مشغولاً، إذ بغير العمل أو بدون عزمه لا تحصل البركة في التعليم.

ويجب أن لا يلتمس فيه هل يضطرب ويتلوى الناس من تأثير إلقائه والتوجيه

منه، لأن ذلكما ليسا مما يلزم للولاية، والحقيقة أنهما عمل نفسي يشتد ويعظم بالتمرين، ولا يختصان بالتقوى، بل تجد الكافر يقدر عليه كذلك، وهذا العمل ليس من الواجب فيه أن ينطوي على فائدة، لأن تأثيره لا يدوم، غير أن المريد البليد الذي لا يتأثر بالذكر شيئاً، يتلقى تأثراً وانفعالاً لقبول الذكر لأيام عديدة، بمعالجة الشيخ لهذا العمل، لا أن يتلوى ويضطرب وينقلب.

الشريعة والطريقة والمعرفة والحقيقة:

يحسن أن نعرف تفسير كل هذا على وجه الإجمال فقد قال مجيباً على سؤال رجل:

(الشريعة اسم لمجموع الأحكام التكليفية، وهو يحيط بالأعمال الظاهرة والباطنة جميعاً، وكانوا يرون الفقه مرادفاً له لدى المتقدمين، كما أثر عن الإمام أبي حنيفة في التعريف بالفقه (معرفة النفس مالها وما عليها) ثم جاء المتأخرون فأصبح في مصطلحهم العنصر من الشريعة الذي يخص الأعمال الظاهرة فقهاً، وأما ما يخص الأعمال الباطنة من شعب الشريعة فصار تصوفاً[1]).

إنه يقال لطرق هذه الأعمال الباطنة طريقة، ثم ما يتولد من الصفاء والانجلاء في القلب لصلاح هذه الأعمال الباطنة، يتكشف به للقلب بعض الحقائق الكونية المتعلقة بالأعيان والأعراض، وعلى الأخص الأعمال الحسنة والخبيثة، والحقائق الإلهية من صفاتية وذاتية، وعلى الأخص المعاملة التي بين الله والعبد، ويقال لهذه المكشوفات حقيقة، ويسمى الانكشاف معرفة. ويدعى صاحب الانكشاف محققاً وعارفاً.

---

[1] - لكن هذين ليسا بمتخالفين ومتضادين، بل إن التالي تكميل للأول كما تراه مشروحاً ومؤكداً في هذا الكتاب.

فجميع هذه الأمور تبع للشريعة، وأما ما شاع عند العامة أن الشريعة إنما تدعى بها الأعمال الظاهرة، فليس بمأثور من أي رجل عالم، وليس مفهومه عند العامة بسديد كذلك، إذ هو اعتقاد لتضاد الظاهر والباطن.

الولاية العامة والخاصة:

فالإجمال هو أن التصوف عنوان لجميع الشريعة، أو الأعمال الظاهرة والباطنة كلتيهما وللعناية بها، وإنه ليقال لجمعها والعناية بها في دائرة الفرائض والواجبات (الولاية العامة) التي يجب تحصيلها على كل مؤمن، أما الدرجة الثانية فهي العناية بالذكر الكثير مع التقدم في الفرائض والواجبات والتزامها يعنني كما جاء في ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[1]. و﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[2]. فلا يغفل ويسهو عن ذكر الله ومراقبته، أو الذكر والاستحضار في جميع حركاته وسكناته، في جلوسه وقيامه، لينشىء كيفية الإحسان في العبادة في سائر الأعمال، فكل ما نفعله نفعله وكأن الله شاهدنا وكأننا نراه، إذ أننا إذا لم نكن نراه فإنه يرانا، فهذه الدرجة هي درجة (الولاية الخاصة) وخصوصاً إذا أطلق الناس كلمة (الولاية) أو اعتبروا أحداً من (المقبولين)، فالمراد من ذلك هذه الدرجة، وقد يعبر عنه بالقرب والحضور.

(السالك والمريد) طالبان لكمال الدين، وهما السائران على هذا الطريق، و(الشيخ) هو الهادي والدليل في ذلك، و(حقيقة السلوك) هي الجد في أعمال هاتين الدرجتين الظاهرة والباطنة وإصلاحهما وتقويمهما، و(حقيقة التصوف) هي تعبير الظاهر والباطن، و(إصلاح الظاهر) هو أن تتفق الأقوال والأفعال جميعاً مع الشريعة، و(إصلاح الباطن) هو (صلاح حالة القلب).

---

[1] - سورة الأحزاب، الآية: ٤١.

[2] - سورة آل عمران، الآية: ١٩١.

المريد يعاهد الشيخ على هذا الجد والعمل والإصلاح، والشيخ يعاهده ويعده بالتوجيه والإرشاد، علمياً وعملياً، بناءً على تجربته وبصيرته، ويتعهده ويتفقد جميع أسقام الظاهر والباطن العملية ويداويها، مثل الطبيب النطاسي الرفيق.

تعدي مرض مريض الروح:

كما أن المريض لا يقدر على أداء أعمال الحياة الفردية والاجتماعية حق أدائها، بل ويحذر في أدائها زيادة المرض في كثيرٍ من الأحيان، إن كان المرض مما يتعدى فلا يكون المرض خطراً على صاحبه فحسب، بل ومساهمته في الحياة العملية خطر على الجماعة كلها أيضاً، وتجد مثله مريض القلب والنفس والروح، فإنه لا يقدر أن يؤدي حقوق الأعمال الدينية والفرائض الدينية، ولا يحسن القيام بها، بل وتكون أمراض النفس في أكثر الأحيان أكثر تعدياً من أمراض الجسم، وهي التي تحدث في النظام الاجتماعي والفردي كله بتعديتها وفسادها اختلالاً وتدهوراً، وكما أن بعض الأمراض لا ينجع فيها غذاء صالح، بل ويأتي بتأثير معكوس، ويزيده، فكذلك الأعمال الصالحة والظاهرة في كثير من وجوهها، إذا كانت مصحوبة بالأمراض الباطنة لا تكون إلا ظاهراً ورياءً لا غير، وإن المتدينين الجامدين، أو الذين لا يحملون من الدين إلا اسماً وصورة فحسب، فأولئك لا يزيدون الدين نقصاناً فحسب، بل ويبيعونه، وإن المفاسد والأسقام التي ينطوون عليها، تذيب البقية الباقية من الدين لدى المريض وتمحوها، مثل مريض السل، فإنه يؤثر على حوله، وينتشر مرضه في الجماعة كالوباء.

إن الإنسان ليتردد إلى الطبيب في أمراضه الهينة والجليلة، وتفتح المستشفيات والمستوصفات في الأزقة والسكك والشوارع، وحينما يصبح المريض خطيراً ينقل إلى المستشفى بعيداً عن داره، ليعطي الدواء والغذاء في أوقاتهما، وليتفقد حاله كما يجب، ويحتاط في حاله. أما المرضى الذين يشكون الأمراض المعدية فإنهم

يرسلون إلى المستشفيات النائية البعيدة من العمران، ويعدون ذلك خيراً وضرورة لا مناص منه، لصون نفوسهم ونفوس غيرهم أيضاً.

الوحشة من العلاج الروحي والباطني:

لكن العجيب المضحك أن الناس يندهشون كلما سمعوا ذكر علاج الأمراض النفسية والروحية والباطنية، ويستشرفون قائلها، كأنما هي ليست أمراضاً، وليس علاجها من الواجبات، وكأن الآية: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[1]. لا تتضمن ذكر الأمراض القلبية، وكأن الآية: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]. لا تطالب بسلامة القلب وصحته، ولا تأمر بهما، وكأن الأحاديث لا تحوي على حديث: «**إِنَّ فِي الْجَسَدِ لَمُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ**»[3].

زاوية الشيخ مستشفى للأمراض الروحية:

ثم إذا ذكرت (زاوية الشيخ) التي هي مستشفى أمراض القلب لرأيت كثيراً من العلماء والمتدينين والصالحين تتقطب جباههم لسماع هذا، إن هذه الغفلة

---

[1] - سورة البقرة، الآية: ١٠.

[2] - سورة الشعراء، الآية: ٨٩.

[3] - والحديث بكامله: عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن، وبينهما مشتبهات، لا يعلمهن كثيرٌ من الناس، فمن اتقى الشبهات وقع في الحرام، كالرّاعي يرعى حول الحمى، يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملكٍ حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب». (رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه (٥٢ و٢ ـ ٥١) ومسلم في كتاب المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم الحديث (١٥٩٩)).

والجهل العامين الذائعين لا يؤثران فقط في دين المتدينين مع علمهم وعملهم الظاهريين، حتى يصبح دينهم جسماً بلا روح، بل وتجد جهلاً فوق جهل، أنهم يستغنون عن أمراضهم وعلاجها أيضاً، ويحلون أنفسهم محل المصلحين والأطباء للعالم أجمع، فالنتيجة ظاهرة أن مثل هذا الإصلاح قبل أن يأتي بنتائج صالحة، يصبح مصدراً لأنواع المفاسد والأصناف الخلل والاضطراب، ويصير في أكثر الأحيان فتنة محضة.

والأهم في تجديد التصوف الذي قام به الشيخ هو للأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا آثرنا التعبير الحديث، فإن سلوك حضرة الشيخ هو التربية والتهذيب مع الجمع الكامل للأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا آثرنا التعبير الحديث، فإن حضرة الشيخ قد رتب وهذّب فنّ إصلاح النفس بطريق نفسي، وجعله فنّاً علمياً، فلم يبق للسالك التواء ولا تعقيد في السبيل، فكل سائر على الجادة يستطيع الوصول إلى الغاية من دون خطر.

المبادىء الأولية الأساسية:

المبادىء في هذا الفن ثلاثة:

١- التمييز بين المقصود وغير المقصود.

٢- التمييز بين الاختياري وبين الاضطراري.

٣- التمييز بين الطبيعي وبين العقلي (الاعتقادي).

فالرضا الإلهي: هو الغاية المنشودة في هذا الطريق، وطريق تحصيله (الاتباع الكامل) لأعمال الشريعة التكليفية، سواء كانت للظاهر أو للباطن، للقالب أو للقلب، وسواء كانت اختيارية أو عقلية.

ترى بوجه عام أن الناس أعرضوا عن الأعمال الاختيارية، وجعلوا الأحوال غير الاختيارية غايتهم، ووقعوا وأوقعوا في المجاهدات والرياضات

الشاقة، للوصول بعملهم إلى هذه الغاية، فجعلوا هذا الطريق المستقيم البسيط طريقاً ملتوياً معقداً، كتب الشيخ إلى طالب توخى مالم يكن في الاختيار، فتعنّى ووقع في مشاق عظيمة.

فإن كنت راغباً مغرماً بالعناء والمشقة، فليس لدي من دواء، بيد أن الطريق مستقيم، وهو أن لا يعتني الرجل في الأمر الذي لا اختيار له فيه، بل يتشجع ويعتزم لما هو في الاختيار، فلو أخطأ استغفر عما مضى، ويستعمل همته وعزمه في ما يأتي، ويلتزم الدعاء كذلك، مع التفرغ زيادة على ذلك كله.

الحسرة والفكر في الماضي والمستقبل:

ويجب الاعتدال في الجهود أيضاً، كأن تفوت الأعمال الصالحة عامة الناس، فلهم أن يتأسفوا عليها ما شاؤوا، فإنما يجديهم ذلك، لكنها إذا فاتت خاصة الناس فلا يتأسفوا لها، بل ويحزنوا قليلاً من الوقت، ثم يتوبوا بكل نفوسهم، ولا يهتموا ولا يقلقوا على ما مضى قلقاً شديداً، فيفكروا أن كيف فاتنا هذا؟!.

فإن هذا الشغل في كل حين يضر السالك، لأن همه وقلقه هذين يصبحان حجاباً وعائقاً عن الرقي والعلاقة مع الله سبحانه، والسر في هذا: أن العلاقة بالله تزداد وتقوى بنشاط من القلب أما هذا القلق فإنه يرزأ هذا النشاط وينقصه.

ولذلك لم يستحسن المحققون علاجاً بالتفصيل والتطويل والرياضة، وخصوصاً بعدما شاهدوا القوى الإنسانية الموجودة، والأحوال الحاضرة، لأن الرجل ينحصر سعيه في التفكير والمعالجة، للتداوي لكل مرض، واحداً واحداً بالتفصيل، فلأجل هذا:

لنوجد للروح ثلاث مصيبات في كل أوان:

١ـ التحسر على ما مضى.

٢ـ الشبهات فيما يجري.

٣ـ والخوف والحذر مما يأتي.

فلما شاهد المجددون المحققون وبالأصح قد بصّرهم الله سبحانه وتعالى (ومنهم مرشدي الحاج إمداد الله ـ رحمة الله عليه[١] ـ). أن الطريق طويل قد ينقضي أجل الإنسان قبل الوصول إلى غايته، بل إن التعب الشديد والوقت المديد الذين يواجههما السالك في طريق الوصول إلى ثمار التربية، يصبحان كما قال الشاعر:

قبل أن تصل إليَّ أفضضي إلى ربي .....

ثم إن قوى رجال العصر الحالي لضعيفة واهنة، وهممهم قاصرة، فبمشاهدة كل هذا بإلهام من الله، وضعوا خطة أخرى للتربية، وهي: أن كلاً من الماضي والمستقبل حجاب من الحق سبحانه. وأن الله خلقنا لمشاهدته، لا للمطالعة والدراسة في الماضي والمستقبل، ولله در الشيخ الرومي إذ قال: إن الماضي والمستقبل حجاب من الله.

ولضعف رجال العصر الحاضر ولقصر هممهم، كان شيخنا الحاج (إمداد الله)[٢] يستفسر المريدين عن كثير من الأمور كم الفراغ وكم الدخل؟.. وكيف الصحة؟.. وما هي العلائق؟.. وكيف القوة؟.. إذ لا يحسن التكليف بالعمل أكثر مما تتحمله القوة.

أربع طبقات في التربية:

درس شيخنا حكيم الأمة أحوال الناس وأشغالهم، عن ضعفهم وقوتهم

---

[١] - ومنهم الشيخ المربي الكبير أشرف علي التهانوي ـ رحمه الله ـ.

[٢]- سبقت ترجمته في صفحة (١٠١).

وقصور هممهم، بطريقه العلمي الحكيم الخاص، فقسم الطالبين والسالكين في أربع طبقات، نظراً إلى تفاوت أحوالهم:

١ـ العامي الذي هو في غير حاجة إلى الكسب وإلى أداء حقوق الأهل والعيال.

٢ـ العامي الذي يهتم ويعني بالكسب وأداء ما يجب عليه لأهله وعياله.

٣ـ العالم المتفرغ من أمور دنياه.

٤ـ العالم الذي يتشاغل بأعمال مهنته.

ووضع لكل منهم خطته على حدة، نجد تفصيلها في كتاب (قصد السبيل) وخلاصته:

أن يحسب القرب غاية منشودة، وأن يكب على الطريق التي قررت له، وهي اختيار الأعمال الاختيارية، بعد تصحيح العقائد، كل عمل لوقته سواءٌ كان عملاً ظاهرياً من صلاة وزكاة وغيرها، أو عملاً باطنياً مثل الخوف والرجاء والشكر والصبر وغير ذلك، والذكر والتفكير فهما كذلك من العمل، ويجب عليه أن يقبل عليها ويشتغل بها في أكثر أحيانه، وان يجتنب الأسباب التي تسبب البعد، وهي معاصي الظاهر والباطن، وأنه ليس في حاجة إلى أن يعني بتكوين الملكة في أسباب القرب، ولا في حاجة إلى أن يقطع مادة البعد، ولكنه يجب عليه أن يرى الأمور الاختيارية التي يصدر منه الخطأ والتقصير عنها ضرراً، ويجعلها موضع اهتمامه وعنايته ويستصلحها، أما الأمور غير الاختيارية، فلا يلتفت إلى وجودها، ولا إلى انعدامها، ولا يتعب كثيراً في إصلاحها أيضاً، كما لو حدث خلل في عمل عظيم قضى ذلك العمل، وإن صدر منه منكر استغفر منه، ثم يشتغل بأمره، ولا يشغل باله بذلك، ويفكر كيف فاته أو كيف أتاه؟!.

وإنه لمغالاة ومبالغة نهى عنهما الكتاب والسنة[1]. ﴿لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾[2]

«مَنْ شَادَّ شَادَّ اللهُ عَلَيْهِ»[3].

«سَدِّدُوا وقَارِبُوا واسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصَوا»[4].

«مَنْ غَلَبَهُ النَّوْمُ فَلْيَرْقُدْ، لا تَفْرِيطَ فِي النَّومِ فَإِنَّمَا التَّفْرِيطُ فِي الْيَقْظَةِ»[5].

ويقول العارف الشيرازي: إن الزمان يشاد الذين يتشددون.

السلوك المسنون:

الغرض هو أن يطلب المقصود الأصيل، وهو (الرضا الإلهي) وأن يبتعد عن سخطه سبحانه.

وعليه أن يزاول العمل الذي له تأثير في الرضا والذي ينحصر في المأمورات الواجبة، والمستحبة، وإن فاته قضاه، فأي شيء أيسر من هذا في الدين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[6].

وأن يجتنب ويبتعد عما يسوق إلى سخط الله سبحانه والذي ينحصر في المنهيات، فإن صدر عنه استغفر الله سبحانه عن ذلك.

---

[1] - من شده شدد الله عليه.

[2] - سورة النساء، الآية: ١٧١.

[3] - أخرجه الترمذي في البر و الصلة، باب ما جاء في الخيانة و الغش، رقم الحديث (١٩٤٠) وابن ماجة في الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضرّ بجاره، رقم الحديث (٢٣٤٢).

[4] - أخرجه البخاري (٨/ ١٢٣) ومسلم (٧٨).

[5] - لم أجده.

[6] - سورة الحج، الآية: ٧٨.

ولا يرين نفسه في الخاصة فيتوحش ويكتئب من أحوال العامة، وأن لا يطلب الثمرات في العاجلة ولا الرتب العليا في الآجلة، غير أن عليه أن يواظب على دعاء الله أن يرزقه التوفيق في الدنيا ويرزقه الجنة في الآخرة، وأن ينجيه من النار، فهذا هو السلوك المسنون.

مفتاح الاختياري وغير الاختياري:

إن الإنسان لو ملك هذا المفتاح (التمييز بين الاختياري وغير الاختياري) فإذن لا يسهل ولا يصفو له الدين فحسب بل وإنما يسهل ويصفو الكمال الديني والتصوف الإسلامي أيضاً، وما أسهل وأروح قطع المسافات فيه! وما أسرع السير! وأنه منتهى الراحة والاستغناء بأن القرب والرضا الذين هما المطلوبان والمقصودان لعينهما، ليس العناية بتحصيلهما مطلوبة ومستهدفة، لأن ذلك ليس في الاختيار غنما في الاختيار السعي والطلب، أو العمل، ولذلك ترى أنه لا يطالب بجد واهتمام إلا الطلب والعمل، لا الثمرات والنتائج أو الوصول والحصول[1].

روح السلوك:

ومن المقرر والمتحقق لدى رجال الطريق أن الطلب غاية وليس الوصول بغاية، وشرح هذا أن لا يحل في قلبه الطلب والتشوف لحصول المقصود، فذلك أيضاً من الحجاب، لأن هذا التشوف تمهيد للتشوش واضطراب النفس،

---

[1] - يقول حضرة الشيخ الحاج رحمه الله في بيت من شعره: إنك مختار فيما أن تنال أو لا تنال، غير أن الواجب عليك أن لا تنقطع عن السعي والجهد. وغن كل خطوة في هذا السعي والجهد غاية بنفسه، وقد أديت هذا المفهوم في بيت: كل خطوة في سبيل الطلب غاية بنفسها، والذي في أثناء الطريق هو في منتهى الطريق. (العلامة المؤلف).

وإنما التشويش يبدد اجتماع القلب، ويضيع التفويض، والاجتماع والتفويض هما شرطان للوصول، فليمكن ذلك وليثبته، لأنه روح السلوك.

لن تجد الكمال التام إلا لدى الأنبياء، وأنهم أيضاً لا ينظرون إلى أنفسهم نظرة الكمال، فكل يعد نقائص نفسه ويراها، سواء كانت حقيقية أم إضافية، ولذلك يجب ترك رجاء الكمال، غير أن الرجاء في سعيه بل العزم له واجب، ومثال ذلك: أن المريض سواء يئس منه ممرضوه أم لم ييأسوا، لا يجوز معه أن يترك التفكير في صحته ولا التمريض له، وأن النجاة بل القرب لا يتوقف على الكمال، بل إنما وعد به على العناية بالتكميل، كما يقول الشاعر: (حصل أم لم يحصل لن أترك التمني ووجدت أم لم أجد لن أترك البحث والالتماس في كلتي الحالتين).

ويرى الشيخ التهانوي: أن الرجل إذا لم ينجح بعدما أدى ما كان عليه في السعي والنشدان فإنه سينال أجره مرتين.

سأل رجلٌ: إذا أراد رجلان أن يعملا عملاً ما، فاجتهدا فيه، وقد نجح أحدهما دون الآخر، فإنه قد خاب، أفينالان أجرهما سوياً أم يجد أحدهما أقل وآخرهما أكثر؟ كما إذا اجتهد رجلان في تعلم القرآن الكريم ففاز واحد في محاولته، لأنه اقتدر على تلاوته، وكان يتلوه بنفسه ويقرئه غيره كذلك، أما الآخر فلم ينجح لضعف أو مرضٍ أو بلادةٍ فيه، لكنه لم يدع الاجتهاد طول حياته لتعلمه، فقال الشيخ: إن كليهما سينالان أجرهما سواء، مع أنه ليس من العجب أن يكون أجر الذي لم ينجح أكثر من الرجل الذي نال أمنيته، ففي الحديث الشريف قال رسول الله ﷺ: «**الماهرُ بِالقُرْآنِ مَعَ السَّفَرةِ الكِرَامِ البررةِ، والَّذي يَقرأ القُرْآنَ ويَتَتَعْتَعُ فيْهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أجْرَانِ**»[1]. متفق عليه. ثم قال الشيخ: إنه يلاحظ من هو أعظم صلة وأوثق

---

[1]- والحديث عن عائشة رضي الله عنها. رواه البخاري في كتاب التفسير سورة عبس، رقم الحديث (٤٩٣٧) ومسلم في كتاب صلاة المسافرين، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه =

علاقة، ويرى بنظرة التقدير، لأجل ذلك يجب الاستمرار في العمل، ولو لم يصل إلى النجاح طول الحياة.

حقيقة إحضار القلب:

سل الذين يعلمون (كم يجدون من اليسر والطمأنينة؟) ولا تسأل الذين يرون كل عمل عسيراً قبل أن يمارسوه، أن الشيخ محمد يعقوب[1] ـ رحمه الله ـ (أستاذ شيخنا) قد كشف عن هذه الحقيقة بقوله:

إن الصلاة فعل مركب، ينطوي على أجزاء مختلفة من قيام وقعود وركوع وسجود وقراءة وذكر وغير ذلك، وإحضار القلب، وهو أن لا تؤدي أعمال الصلاة بذاكرتك فقط، بل بالقصد وإقبال القلب، بأن تقول: إني أؤدي الآن من لساني هذا لأمر، وأما الآن فأقبل إلى الركوع، والآن أدخل في السجود، فعلى كل، يجب عليك أن تجدد إرادتك في كل فعل وفي كل لفظ، وتمهد الطريق ليحصل لك حضور القلب. إنا لنجد في تأييد ذلك حديثاً: «**مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ مُقْبِلاً عَلَيْهِمَا بِقَلْبِهِ**»[2]. مرجع الضمير في (عليهما) هو ركعتين، يعني الصلاة.*

والحاصل: أن يقبل بقلبه على الصلاة، فلما كان مركباً، فإن التوجه والإقبال هما ما ذكرهما الشيخ فيما سبق، وأن هذا الأمر اختياري.

=(٧٩٨) وأبو داود في الوتر، باب في ثواب قراءة القرآن، رقم الحديث(١٤٥٤) والترمذي في فضائل القرآن، باب ما جاء في فضل قارئ القرآن، رقم الحديث (٢٩٠٤) وابن ماجة في الأدب، باب ثواب القرآن، رقم الحديث (٣٧٧٩).

[1] - هو الشيخ العالم الكبير المحدث يعقوب النانونوي، أحد كبار العلماء في الهند، كانت له اليد الطولى في الفقه والأصول والحديث والأدب، زار الحجاز سنة ١٢٩٤هـ وصحب شيخه الشيخ إمداد الله المهاجرلكي. توفي بنانوته (الهند) سنة ١٣٠٢هـ.

[2] - لم أعثر على هذا الحديث.

ولذا يجب تحصيله بالعزيمة والعمل، فهذا حضور القلب الذي في الاختيار، يعني أن درجته التي يطمع فيها السالكون في الأعم ليس في الاختيار، غير أن الدرجة التي هي منه، والتي هي مطاوعة للإحضار وتابعة له هي اختيارية، وفي أكثر من هذا وزيادة عليه، يجب الدعاء لا غير، وكذلك الذوق والاشتياق وغيرها، ليسا في الاختيار بل يجب لها أيضاً الدعاء. وليست المجاهدة علاجها، كما لم يجيء في الحديث لعلاجها إلا الدعاء لذلك: «**أسألُكَ لَذَّ النَّظَرِ إلى وَجْهِكَ والشَّوقِ إلى لِقَائكَ**»[1].

فلا تباشروا المجاهدة وغيرها لتحصيل الشوق، ولا تسألوا الشيخ علاجاً له أيضاً، ولا تشكو إليه عدم حدوث الشوق في النفس، غير أنه يجب أن تدعوه فحسب، قد عمّ هذا الخطأ في الاختياري وغير الاختياري، حتى تورط فيه كثيرٌ من الخاصة، ولا يفرقون بينهما، ولذلك أزال الشيخ أنواع الشبهات التي تقع في هذا الصدد، وقد كتب في رسالة:

مانعان خاصان في طريق السلوك:

من موانع طريق السلوك أمران خاصان يكثر وقوعهما، وقلما تجد من السالكين من لم يتورط فيهما، بل وتجد أهل العلم أيضاً قد ابتلوا بهما، وأولهما

❖ - أما أنا كاتب هذه السطور فأرى في تأييد ذلك الآية، حتى تعلموا ما تقولون، وقد استدلَّ بعض الناس بهذه على أن يصلي وهو يعقل المعنى والحقيقة معاً، لكني أقول: لو كان معنى الآية كما يقول هذا الاستدلال فيكون (تعقلون) وما أشبهها من كلمات أخرى غير (تعلموا) أوفق وأنسب، أما في هذا الموضع فنفهم أنه يعني بأن يعلموا مغزى ما يعقلون، وأما ما يقولونه فهو الألفاظ. (العلامة المؤلف).

(٢)-وهو بعض الحديث، أخرجه النسائي في كتاب الصلاة، باب الدعاء بعد الذكر، رقم الحديث(١٣٠٦).

أنهم يقعون في الاهتمام بالأمور التي لا تدخل في اختيارهم من الذوق والشوق والاستغراق والمتعة وتوحد الخيال والقلب، وإزالة الخطرات، والتألم والانجذاب والعشق المطبوع وغير ذلك، وأنهم ليرون فيها ثمرات ونتائج للذكر والشغل والمجاهدات، ويعدون إذا لم تتات لهم هذه حرماناً، مثل الانقباض وهجوم الخطرات وشيوع النفس، أو كمحبة رجل أو مال، أو غلبة الشهوة والغضب الطبيعيين، أو كثافة القلب، أو عدم التمكن من البكاء، أو غلبة حزن أو خوف دنيويين وغير ذلك، فإنما يرون هذه الأمور ضارة بالطريق ومانعة من المقصود، ويرون عدم اتحادها وزوالها من موجبات البعد عن الله سبحانه.

وأما موضع الاشتراك فيهما فهو أنهم يعنون بتحصيل الأمور غير اختيارية، أو إزالتها، وفي ذلك مفاسد عديدة، إحداها اعتقادية، لأنه مخالفة خفية لقول الله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[1].

ومعارضتها، لأن القدرة على الاختيار تتعلق بالضدين، فالأمر الذي ليس في الاختيار ليست إزالته من الاختيار، وإذا اعتقد السالك المقصود متوقفاً على حصولها وزوالها، فكأنه اعتقد أنه لا يشترط للمقصود والمأمور به أن يكون في نطاق الوسع والاستطاعة (أي في دائرة طاقة الإنسان) وهو مخالفة صريحة لقول الله (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وما أعظم هذا الخطأ!.

والمفسدة العملية الأخرى، هي أن هذه الأمور إذا لم تبق اختيارية فلن تحصل بالاجتهاد ولن تمحى به أيضاً، بيد أن الاضطراب سيزداد ويعظم بالخيبة والحرمان، وأما القلق المتواصل فربما يُمرض الإنسان، فيحرم كثيراً من الوراد والطاعات، وثانياً فربما تضيق الأخلاق لغلبة القلق والهم، وبذلك يتأذى الآخرون، وربما يحصل التقصير في أداء الواجبات نحو الأهل والعيال لغلبة

---

[1] - سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

الهمّ والغمّ، وتتعدى هذه الحالة إلى المعصية، وربما يرتفع الاضطراب إلى حدّ أن الإنسان ينتحر بما يقنط، ويصير مصداقاً لقوله: خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وأحياناً يهجر الأعمال والطاعات ظانّاً إياها غير مجدية لقنوطه، ويصل إلى البطالة والانقطاع عن الشغل، وأحياناً يسيء الظن بشيخه بأنه نفسه لا يعرف طريق المقصود، وربما يسخط من الله سبحانه بما يخطر بباله أني أحاول وأجتهد إلى هذا الحد ولا أنجح! فأين ذهبت جميع تلك الوعود الثابتة من قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[1]. «**مَن تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً**؟!»[2].

فالمقصود: أن ذلك مثال للسفاسد التي تحتوي ضرراً جسدياً أو نفسياً أو دينياً من معصية أو كفر، ولذلك قلت في السطر الأول في تمهيد كلا الأمرين:

أن تحصيل غير الاختياري وإزالته مانعان لطريق السلوك، وقد داوى أهل الطريق هذه الموانع في كل عصر رعاية بصلاحية الطالبين، ومن تلك المعالجات ما يدخلُ حيناً لحين في تربية السالك وفق حالة ذلك العصر وصلاحيته فتصير من أجزائه.

وحينما يقع الناس تحت أيدي المشايخ السطحيين، إنما يقعون في المفاسد والمشوشات الدينية والدنيوية. كما سترى في رسالة أحد المريدين، وأنهم إنما يقعون في أنواع المفاسد لأنهم يعتنون بالأمور التي ليست في اختيارهم، يحدث ذلك، بل وأكثر من ذلك إذا لم يستعملوا الاختيار والهمة والعزيمة.

لقد وقعت منذ سنوات في أمراض متنوعة وتشويشات مختلفة لا يجديني

---

(١) - سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٢) - قد سبق تخريجه في صفحة: (٢٠٨).

العلاج فيها، وأظن أن كثرة المعاصي هي من أسباب تلك الأمراض، لقد أفسد العمل الخاطىء والمعاصي حالتي، فأنا أنشد الهداية من الله سبحانه ولكني لا أجدها.

بايعت قبل ست سنوات في السلسلة القادرية، ثم نقضت البيعة لأني أكرهه وأعاف منه، بسبب ما رأيت من مخازي الشيخ المرشد، ثم وقعت أنا أيضاً في نفس تلك المخازي، وأصبحت الآن لا أعتني حتى بالقيام بالصلاة والصوم. الإيمان صحيح لكني متباعد عن العمل، وكل هذا لاختلال صحتي، فأرجوك أن تدعو الله سبحانه لي خيراً، أو تقترح علي بشيء حتى أتخلص من الملمات والآفات، إني أرى الذنب ذنباً فأتوب إلى الله وأستغفره، وأحب أن أتخلص من المعاصي، لكنه لا يجديني أية حيلة ولا تدبير.

فقال رداً عليها: إنني - وليس غيري - أعرف الطريق التي تصدر بها الأعمال الاختيارية من الإنسان بدون أن يستعمل اختياره.

ما يوسوس لك من تأثير التصرف، فإني أشك أولاً في تاثيره، ومهما يكن فإني ولا ريب متجرد من هذا الكمال.

إن بلية الناس أنهم يجتهدون في أمور دنياهم، ولا يدخرون في ذلك جهداً، ولا يقصرون فيها، غير أنهم يحبون قضاء مآربهم الدينية بمحض الدعاء، دون العمل إلى حد الهمة والاختيار.

لما ذهب الحاجُ الشيخ إمداد الله نور الله مرقده إلى بمبائي قال له تاجر: أرجو من حضرتك أن تدعو لي أن يرزقني الله سعادة حج بيته الشريف، فقال: نعم سأدعو ولكن بشرط، وهو أن تملكني زمام أمرك يوم تتحرك الباخرة، فإني سآخذ بيدك وأركبك الباخرة، فإنه قبل أن يكون هذا، لا يجديك دعائي، فإنك قبل أن تزمع على ذلك فلن تترك أعمالك وشواغلك، وهي لا تقل من نفسها، فماذا يصنع دعائي للحج، وليست بآيته إليك،

والذين تشرفوا بها فهم كذلك اضطروا إلى القدوم إليها.

انظر إلى أن أبا طالب الذي هو عم سيدنا رسول الله ﷺ وأكبر محبٍّ له، نصر رسول الله ﷺ حين خذلته قريش وعادته، وكان الرسول ﷺ يحبه أيضاً حبّاً جمّاً، وقد حاول كثيراً لإسلامه، لكنه لم ينفعه محبته ﷺ له ومحاولته لإسلامه، لأجل أن أبا طالب لم يرد ذلك بنفسه، فأصابه ﷺ بذلك هم شديد ونزلت الآية: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[1].

وهذا كل ما أبان عنه في كتابه (تسهيل الطريق) وميزه من سائر الطريق ونظام العمل الكامل في سطرين:

(يجب أن لا يهتم الرجل فيما ليس في اختياره، وليستعمل الهمة في الاختيار منه، فإن قصّر شيئاً استدرك الماضي باستغفاره، وبدأ في مستقبله بتجديده للهمة، وليلتزم الدعاء كذلك، مع استعماله للهمة والتضرع والخشوع).

قد بين الحقيقة (وروح التصوف) في جملتين رداً على عالم بقوله: إن المقصود في هذا الطريق هي الأفعال لا الانفعالات.

سبحان الله ما أحسن تفسيره! إذ تلخص جوهر المقصود وما ليس من المقصود، وما هو في الاختيار، وما ليس في الاختيار في جملتين فحسب.

الرذائل لا تستأصل بالرياضة:

والمور الطبعية أيضاً ليست في الاختيار، والناس يضيعون وقتهم وقوتهم في اجتهادهم باستئصالها وإزالتها، فيلقون في نتيجته ألم الخيبة والخسران، مثلاً: يريدون أن يمحوا ويزيلوا الميول الطبيعية إلى الشر والسوء بمجاهداتهم ورياضاتهم، ويستأصلوا الأخلاق المذمومة، والحال:

---

[1] - سورة القصص، الآية: ٥٦.

أن الرياضة لا تمحو ولا تزيل أصول الأخلاق الذميمة، بل إنما تهذبها وتقومها، ومعنى كل ذلك أن آثار تلك الأصول تميل وتتحول، يعني: يتغير اتجاهها ومواضع عملها، كما لو أن الرجل ينطوي على الغضب والبخل، فالرياضة لا تقدر على اجتثاثها واستئصالهما، بل تتهذب بها بحيث كان في الماضي يبخل في مواضع الخير، ويغضب على الصالحين الأبرياء، أما الآن، فسيغضب على الأشرار والمفسدين وعلى نفسه وعلى المبغوضين إلى الله، وسيبخل فيما لا يحل الإنفاق والبذل فيه.

وبهذا الطريق تصبح الأخلاق الذميمة ذريعة للتقرب، بعد أن كانت من قبل ذريعة للبعد. (هكذا قال مرشدي الحاج إمداد الله)[1].

وبهذا انحسم الخلاف المشهور، هل تغيُّر الأخلاق من المستطاع أم لا؟! فعلمنا أن تغير الأصول ليس في وسعنا، جاء في الأثر الشريف:

«**إِذَا سَمِعْتُمْ بِرَجُلٍ زَالَ عَنْ جِبِلَّتِهِ فلا تُصَدِّقُوْهُ**»[2]. غير أن الآثار، ومواضع الأعمال وطرقها يمكن له التحول، ولأجله جاء الأمر بالمجاهدة والرياضة.

إن مجرد الميل والطلب لمعصية أو شر ليسا من العصيان ولا من الشر. إلا إذا صحبه العمل، وليس الإنسان مكلفاً إلاّ:

بأن لا يعمل بما تطلب منه الأخلاق المرذولة، أما أن يمحي الاقتضاء والرغبة نفسها، فليس الإنسان مكلفاً بذلك، وليس من اليسير أن يناله، غير أن النفس تتهذب وتتثقف بالرياضات والمجاهدات، لأنها تنقاد وتتدلل بيسر، ضرب الشيخ لذلك مثالاً بقوله: إن ذلك كالحصان الرَّيض والمهذب الذي ينفر

---

[1]- قد سبقت ترجمته في صفحة: (١٠١).

[2]- جِبِلَّتِهِ، أي: خِلْقَتِهِ.

ويستن كثيراً، لكنه يسهل قياده وينقاد بيسر، لكن الناس يحبون بوجه عام أن تفنى الميول الطبيعية والنفسانية بحذافيرها، كما كتب طالب يقول: إني أتمنى وأرجو أن لا تساورني الشبهات. فرد عليه: معناه أن تتمنى غداً أن لا تلم بك الحمّى. وقد كان كتب من قبل: أن ورود الشبهة من غير اختيار النفس لا يتعارض ولا يتنافى مع تصديق الله ورسوله.

شكى إليه رجلٌ ميل نفسه إلى الأمارد، وقد كان موفور الهمة واثق العزيمة، ما كان يقصر في العلاج الذي في مستطاعه كتب يقول: إني لا أحادث من تميل نفسي إليه من غير حاجة، ولا ألقي النظرة عليه بإرادتي وأغض بصري عند الحاجة كذلك، وبذلك يضعف ميل النفس حتى يكاد ينعدم، لكن السقام الأصيل لا يبرح، كان بذلك يشكو عدم فناء الميل الطبيعي والنفساني كليّاً، وعدم اقتلاع المادة فرد عليه:

(ليس هنا من حيلةٍ لاستئصال المادة، فإنك إذا تناولت الدواء لحمى الغب أفيمكن القول إذن أنك لن تبتلي بها في السنة القابلة؟! وأية حيلة تتقي بها من تولد الصفراء، ولو فعلنا ذلك فكثيرٌ من المنافع التي تظهر لوجود الصفراء ستزول أيضاً، والفوائد في المادة الشهوانية كثيرة.

وسأل طالب علاجاً يتخلص به من الشهوة النفسانية فأجابه: تعال غداً بعدما تتوب عن الغذاء الحرام، واسأل الدعاء للتخلص من الجوع كذلك؟!.

الفرق بين الطبيعي والعقلي:

إذا لم يفرق السالك بين الطبيعي والعقلي فما أكثر الأخطاء التي يتورط فيها! كتب سالك: إني أجد حبّ رسول الله ﷺ غلاباً في هذه الأيام حتى لا أجد مثله لأحدٍ، حتى أنني لا أجد حب الله أكثر منه أيضاً! فرد عليه:

ليس ذلك بصحيح، فإن العقلية هي الغالبة في محبة الله، أما في محبة المجانس

الطبيعية فهي الغالبة، وترى المحبة العقلية في بادىء النظر ضعيفة ضئيلة بالنسبة إلى المحبة الطبيعية، والأمر خلاف ما يظهر، لأنك ترى أنه إن صدر من هذا المحبوب الطبيعي كلام خبيث أو أمر شر في ذات الله سبحانه (معاذ الله) فلا يسع النفس إلا أن تبغضه، وبذلك تقرر أن محبة الله هي الغالبة.

نجد في القرآن والحديث الشريفين فضيلة البكاء، لكن بعض الناس رقيقوا النفس من طبيعتهم، فإنهم يبكون لكل شيء، أما الآخر بعضهم فلا تكون عندهم رقة قلبٍ طبيعية فأخبر الشيخ بأمرٍ عجيب، إذ قال: إن مثل هذا الرجل لو تأسف على حالته عقلياً لكان هذا معدوداً من البكاء.

قال عالم: أتشير آية: ﴿يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾[1].

إلى البكاء بالإرادة؟ فأجاب قائلاً: أن هذه الآية تدل على فضيلة البكاء، ولا تأمر به، ولذلك ليس المقصود منها البكاء بالقصد والإرادة، قال رجلٌ: أما الذي لا يقدر على البكاء فقال: هو أيضاً يقدر عليه! قال: كيف يقدر عليه؟ فقال: التأسف على عدم قدرته على البكاء بكاء أيضاً.

خطأ خطير في فهم بعض الكبار:

من الغريب أن الكبار يرون المطلوب والكمال في عامة الأحوال أن يحصل الفناء والامحاء في ذكر الله، بحيث إذا هم أرادوا النسيان لم ينسوا، ولم يأت طيف لغير الله في النفس أصلاً أبداً، مع أن الذي لا خفاء فيه، هو أن ذلك ضد الطبيعة الإنسانية وفطرتها العامة، بل إن ما ذكر الشيخ المجدد في هذا الصدد هو أحسن رد على ذلك، وهو قوله بأن هذا تمنّ للاضطرار مكان الاختيار الذي عليه مدار كل الفضيلة والحكمة التكوينية.

---

[1] - سورة الإسراء، الآية: ١٠٩.

كتبَ رجلٌ: إني أنشد منذ زمان أن يدخل وينفذ ذكر الله في القلب حيث إذا أردت نسيانه لم أستطع، وأن يستعصي على قلبي حضور غيره، فأجابه: إني كذلك لم أرزق هذه الحالة، ولا أشتهيها كذلك، لأني لا أبقى فيها صاحب اختيار، بل أصبح مضطراً.

ثم كتب هذا الرجل مستعيناً برسائل الشيخ المجدد والإمام أحمد السرهندي[1]: أن رأس الأمراض الباطنية: اعتقال القلب وأسره بغير الله، وعلامة البراءة منه أن يتناسى غير الله كلياً، ويغفل عن سائر الأشياء، حتى إذا تكلف التذكر لتلك الأشياء لم تعرفها ذاكرته، إلى أن يستحيل خطور غير الله على القلب، وإني إذا أبصرت هذا المستوى لا أجد نفسي إلا بعيدة عنه مجردة والحمد لله على أن غير الله لم يحل إلى جذر القلب، غير أن جوانب القلب لا تخلو من غير الله وخواطره.

غلبة حال أهل المرتبة:

تغلب الحال أحياناً على أهل المقام، فإذ ذاك تجد تأثير الثورة في تعبير المسائل، وعندي أن العنوان شديد، لكن المفهوم هو نفس ما استفيد من النصوص، وإني أعبر عنه بعنوان آخر سهل يقارب أن يكون شرحاً لكلام الشيخ السرهندي على وجه التقريب، وهو أوضح من التعبير المعروف، وذلك

---

[1]- هو أحمد بن عبد الأحد بن زين العابدين الفاروقي السرهندي، من كبار علماء الهند، لقب بمجد الألف الثاني، وُلِدَ في "سرهند" (الواقعة الآن في باكستان) درس على كبار علماء عصره، فاشتغل بالتدريس، توفي ب (سرهند) عام ١٠٣٤هـ، ومن مؤلفاته "المبدأ والمعاد" و"إثبات النبوة" و"ردّ الشيعة" و"المعارف الدينية" أنظر للإستيزاد من الاطلاع على حياته وأعماله الدعوية والإصلاحية، الجزء الثالث من كتاب "رجال الفكر والدعوة في الإسلام» للعلامة أبي الحسن الندوي، طبع دار ابن كثير، دمشق.

أن معنى الاعتقال والأسر، ليس هو العلاقة مطلقاً، لأن العلاقة المطلوبة ليست ذميمة، بل العلاقة المقصودوة هي أن يتأثر القلب ببعد هذا الذي اعتقل به القلب أو قوته، حتى ينشغل بتصوره والحسرة له، فيطرأ الضعف والقلة أو قوته، حتى ينشغل بتصوره والحسرة له، فيطرأ الضعف والقلة على الطاعات لأجل هذا الانشغال ولو لم يصل إلى هذه الدرجة، فمجرد الحزن ليس بمانع، أفيمكن لأحد أن ينكر حزن يعقوب الشديد؟! وأفيمكن لأحد أن يقول عن حالته أنها كانت مانعة عن الحق؟!.

مفهوم ذلك: أن معنى غلبة ذكر الله، وغلبة العلاقة به، أو معنى عدم الغفلة، أن لا يؤثر ذكر غير الله، والعلاقات بغير الله سبحانه، في اتباع مرضات الله سبحانه وطاعاته، لئلا تأتي بنقص ولا ضعف، وهو أن لا يصدر منا عمل ولا فعل خلاف رضا الله سبحانه في دائرة أفعالنا.

الفهرس

شذرات من أقوال الأئمة والعلماء في التصوف ٥
مقدمة المحقق ١٥
تقديم الكتاب: بقلم العلاّمة أبي الحسن الندوي ١٧
ترجمة الشيخ أشرف علي التهانوي ٢٩
ترجمة المؤلف ٣٣
مولده ونشأته: ٣٣
دراسته: ٣٣
ممارسته في مجال التدريس: ٣٤
اتصاله بالشيخ التهانوي: ٣٤
مؤلفاته: ٣٥
وفاته: ٣٦
ترجمة المترجم ٣٧
الفصل الأول: بين التصوف والحياة ٤٣
بين التصوف والحياة ٤٥
تناقض: ٤٥
سر هذا التناقض: ٤٦
تنقيح التصوف من الأوهام والزوائد: ٤٧
حقيقة التصوف: ٤٧
التصوف هو الفقه الباطني: ٤٩
خطأ جسيم: ٥٤
التزكية المرضية: ٥٤
الحب وشرطه: ٥٥

حدوث مصطلح التصوف وتدوينه كفن: ٥٧
مهمة التصوف في الحياة: ٦٠
أهمية اللُّباب: ٦١
الشريعة بين فقهين: ٦٢
التوسع في الدراسات والإخلال بالعمل: ٦٣
من معاني الإحسان: ٦٤
أحكام إصلاح الباطن: ٦٥
الحاجة إلى التربية وإصلاح الباطن: ٦٦
الدنيا لا تحصل كذلك لغير المتصوف: ٦٨
لا صلاح بغير التصوف: ٦٩
نكتة غريبة نادرة: ٧٠
سبب النفور من التصوف: ٧١
الفصل الثاني: في الأذكار والأشغال والمجاهدات ٧٣
الأذكار والأشغال والمجاهدات ٧٥
الغايات والوسائل: ٧٥
إكثار الذكر: ٧٨
حقيقة الذكر: ٨١
خطأ كبير: ٨٢
ذكر الله درجات: ٨٣
شهادة من القرآن على كون درجات الذكر مختلفة: ٨٤
الذكر القلبي اصطلح عليه الصوفية: ٨٦
درجات الذكر: ٨٦
لون من المحبة: ٨٧
الذكر أساس الشريعة: ٨٨

كيف يحصل ذكر الله: ٩٢
ذكر القلب أفضل أم ذكر اللسان: ٩٤
خطأ جسيم في باب الذكر: ٩٦
طريق الطاعة والذكر ملخصاً: ٩٨
أربع طبقات للسالكين: ٩٩
مبدآن أساسيان لتجديد التصوف: ١٠٢
النسبة الباطنية: ١٠٣
لا يصح خدمة الخلق بدون تصحيح الرابطة بالرب: ١٠٥
المجاهدة: ١٠٧
معالجة الشدة والعناء بدون الحاجة إليها لن تسمى مجاهدة: ١١١
حقيقة الزهد: ١١٢
المجاهدة بدون قصد: ١١٤
المجاهدة لا تستأصل الرذائل: ١١٥
تنبيه هام: ١١٦
السلوك والرياضة المفضلان: ١١٧
شبهة: ١٢١
نتيجة المجاهدة الحقيقية ليست أحوالاً: ١٢٢
حقيقة التصوف في جملتين: ١٢٣
حقيقة الكشوف والكرامات: ١٢٤
الإلقاء والتصرف: ١٢٧
البيعة: ١٣٢
الصحبة والأواصر: ١٤١
إفراد الشيخ: ١٤٥
الصحبة تشرب القلب الدين: ١٤٨
الفصل الثالث: في الحبّ والعشق ١٥١

الحب والعشق: ١٥٣
العشق من لوازم الإيمان: ١٥٤
الحب العقلي: ١٥٥
الحب العقلي اختياري: ١٥٧
الحب قاصر على المناسبة: ١٦٠
معنى (خلق الله آدم على صورته): ١٦٠
تأويل حمل الأمانة: ١٦٢
دواعي الحب موجودة في الله بصورة كاملة: ١٦٣
ما يجب في الحب العقلي: ١٦٤
العشق والتفويض: ١٦٥
حقيقة العشق المجازي: ١٦٦
الفصل الرابع: في باطنية التصوف ١٧١
باطنية التصوف: ١٧٣
علة الإخفاء: ١٧٣
علة أخرى: ١٧٤
مصالح أخرى: ١٧٥
تنبيه آخر جليل: ١٧٦
الفتنة الكبرى: ١٧٨
الفصل الخامس: في القرب المنشود ١٨٣
القرب المنشود: ١٨٥
والجنة أيضاً ليست مطلوبة بالذات: ١٨٦
شبهة ١٨٧
إلغاء التشبيه مغالاة: ١٩٠
طريق تحصيل الرضا: ١٩٢
عناصر ثلاثة لدرجة الكمال: ١٩٣

العلم والعمل والحال: ١٩٤
القرب عنوان للكمال الديني: ١٩٦
العبدية: ١٩٧
قرب النوافل: ٢٠٠
قرب الفرائض: ٢٠١
التفويض والدعاء: ٢٠٢
الأوراد مكان الدعاء: ٢٠٣
شأن العبدية: ٢٠٤
مثال عجيب للوصول من غير رضاً: ٢٠٥
هذه الحياة موت في حقيقة الأمر: ٢٠٦
فلماذا رُزقنا هذه الحياة؟: ٢٠٧
كراهة هذه الحياة، والسخط عليها لغلبة الحال: ٢٠٧
الرقي بالطلب: ٢٠٨
الكمال الأخروي: ٢١٠
فهم خاطىء: ٢١١
التصوف ليس البطالة بل هو الكمال في العمل: ٢١٢
جريمة الاستخفاف بالعمل: ٢١٣
الهدف الأصيل هو العبدية التي هي كمال العمل والطاعة: ٢١٤
كمال العبدية يستلزم كمال الإسلام والرضا: ٢١٥
الفصل السادس: في السلوك والتربية ٢١٧
السلوك والتربية: ٢١٩
العمل والحركة عند المشركين: ٢٢٠
المقصود من العمل هو العمل الصالح: ٢٢٢
أهمية حقوق العباد: ٢٢٣
علامات النسبة الباطنية: ٢٢٣
الوصول إلى الله لا يمكن بدون الأعمال: ٢٢٤

العمل بأحكام الباطن كذلك فريضة: ٢٢٤
الحاجة إلى الشيخ: ٢٢٥
عملان للسالك: ٢٢٥
التصوف المحرم: ٢٢٦
البيعة التقليدية ليست بواجبة: ٢٢٦
علائم الشيخ الكامل: ٢٢٧
الشريعة والطريقة والمعرفة والحقيقة: ٢٢٨
الولاية العامة والخاصة: ٢٢٩
تعدي مرض مريض الروح: ٢٣٠
الوحشة من العلاج الروحي والباطني: ٢٣١
زاوية الشيخ مستشفى للأمراض الروحية: ٢٣١
المبادىء الأولية الأساسية: ٢٣٢
الحسرة والفكر في الماضي والمستقبل: ٢٣٣
أربع طبقات في التربية: ٢٣٤
السلوك المسنون: ٢٣٦
مفتاح الاختياري وغير الاختياري: ٢٣٧
روح السلوك: ٢٣٧
حقيقة إحضار القلب: ٢٣٩
مانعان خاصان في طريق السلوك: ٢٤٠
الرذائل لا تستأصل بالرياضة: ٢٤٤
الفرق بين الطبيعي والعقلي: ٢٤٦
خطأ خطير في فهم بعض الكبار: ٢٤٧
غلبة حال أهل المرتبة: ٢٤٨
الفهرس ٢٥١